الدكتور عدنان علي رضا النحوي

لقاء المؤمنين

الجزء الثاني

الأهداف

الطبعة الرابعة
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

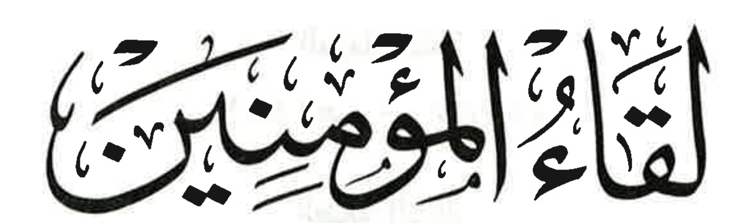
دار النحوي للنشر والتوزيع

لقاء المؤمنين

الجزء الثاني

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية
النحوي، عدنان علي رضا
لقاء المؤمنين- ط ٤ .
٣٥٩ ص ؛ ١٧ X ٢٤
ردمك X - ١٨ - ٦٨٧ - ٩٩٦٠ (مج ٢)
ردمك ٨ - ١٩ - ٦٨٧ - ٩٩٦٠ (المجموعة)
١ - الإسلام والمجتمع ٢- الوعظ والإرشاد
٣- الثقافة الإسلامية أ- العنوان
ديوي ٢١٩ ١٤/١٩٧٩
رقم الإيداع: ١٤/١٩٧٩
ردمك: ١- ١٨- ٦٨٧- ٩٩٦٠ (ج ٢)
ردمك: ٨ - ١٩ - ٦٨٧ - ٩٩٦٠ (المجموعة)

إلى
لقاء المؤمنين
وبناء الجيل المؤمن



الجزء الثاني



الدكتور عدنان علي رضا النحوي

دار النحوي
للنشر والتوزيع

الطبعة الرابعة
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

الطبعة الأولى

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

الطبعة الثانية

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

الطبعة الثالثة

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

الطبعة الرابعة

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

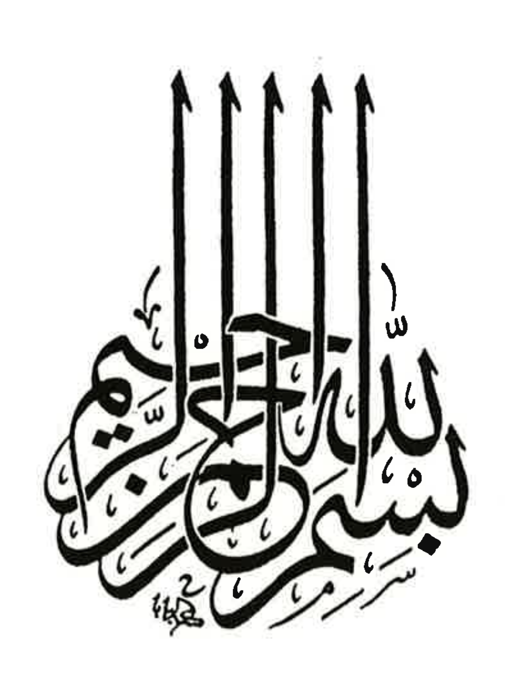


دار النحوي للنشر والتوزيع

هاتف وفاكس: ٤٠١٠٢٥٧

ص. ب ١٨٩١ - الرياض ١١٤٤١

المملكة العربية السعودية


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء ...

إلى الجيل المؤمن العامل ،

الذى ينظر إلى أفق مشرق ،

وينطلق إلى نور وهدى ،

يسعى ليبَلغ الجنة ،

وينجو من النَّار ،

على صراط مستقيم ،

بَيَّنَهُ اللَّه رب العالمين .

• الافتتـــــاح •

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾

(الإسراء: ١٨، ١٩)

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾

(الصافات: ٦٠، ٦١)

« اللهمّ إني أسألك الجنّة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل ...».

(رواه أحمد ومالك)[١]

---

(١) أحمد: المسند (٦/ ١٣٤). الفتح (١٤/ ٢٩٥)، صحيح الجامع الصغير وزياداته (ج١ ص٤٠٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

● مقدمة الطبعة الرابعة ●

إننا نعتبر قضية «لقاء المؤمنين» من أهم قضايا واقعنا الإسلامي اليوم حين ندرسه من خلال منهاج الله. وذلك للأسباب التالية:

١- توالت الآيات والأحاديث على خطورة هذا الأمر - لقاء المؤمنين في أُخوّة صادقة للّه -. فهو أمر من عند اللّه لا يحلّ لمسلم أَن ينكص عنه أو يعطله، ففي النكوص والتعطيل إثم كبير.

٢- إن الفرقة بين المسلمين واسعة مزَّقتهم تمزيقاً. وقد توالت الآيات والأحاديث لتبيّن أن أعداء اللّه يدخلون من هذه الفرقة ليصدوا عن سبيل اللّه، وليزيدوا المسلمين تمزيقاً، ولينشروا الفساد في الأَرض. وفي إبقاء هذه الفرقة إثم كبير على المسلمين جميعاً.

٣- لا تستطيع اليوم جبهة واحدة أن تصدّ الهجمة الدولية العاتية على المسلمين، حين يقوم بهذه الهجمة صفّ متراص من الأَعداء، بالرغم من شدة الخلافات بينهم، وشدة الصراع على الأَطماع والثروات، بالرغم من ذلك كله فإنهم يلتقون على هذه القضية صفّاً واحداً. وهذا الصفّ الواحد من أعداء اللّه لا يقف أمامه إلا صفّ متراص كالبنيان من المؤمنين الصادقين.

إن الدين والواقع والتاريخ والمستقبل، هذا كله يفرض على كل مسلم أن يعطي هذه القضية الخطيرة وزنها وحقّها من الدراسة والتفكير والجهد.

إنها لم تعد مسئولية طبقة واحدة، ولكنها في ميزان الإسلام هي

مسئولية كل مسلم .

ولا يتمّ هذا اللقاء بجهود ارتجالية وردود فعل آنيّة ، ولا بشعارات وهتافات ، ولا بالأماني والأَحلام يغيب فيها النائمون . ولا يتمّ بأن نتعاون على ما توحي به أهواؤنا ومصالحنا ونظرتنا الآنية المضطربة . ولا نعذر أنفسنا إذا لم نتعاون على الحق . إنه يتمُّ بإِذن اللّه إذا توافرت الشروط الكلية الكبيرة التالية :

١- صدق الإِيمان والتوحيد وإِخلاص النيّة للّه سبحانه وتعالى ، وأن يبذل المسلم جهده منطلقاً من هذا الإِيمان ، واعياً لواقعه وحدوده .

٢- صدق العلم بمنهاج اللّه - قرآناً وسنة - كما جاءا باللغة العربية ، ليكون هذا العلم يغذّيه صدق الإِيمان ، وهو بدوره يغذّي الإِيمان .

٣- الخبرة والمران في ممارسة منهاج اللّه في الواقع البشري ، خبرة نامية في مدرسة الدعوة .

٤- وعي الواقع وعياً أميناً نابعاً من الأسس الثلاثة السابقة .

٥- قيام منهج عملي وخُطة تطبيقية ترسم الدرب وتحدِّد الأهداف ، على أن تكون قائمة على الركنين الأساسيين : **المنهاج الرباني والواقع** ، القائمين على القاعدة الصلبة للدعوة الإسلامية وجوهرها : **قاعدة الإِيمان والتوحيد** .

إن السعي لأي هدف في الحياة الدنيا دون وجود نهج وخطة ، هو أمر مخالف لسنن اللّه في الكون ، ومخالف لنهج الإسلام في العمل . لقد أهملنا التخطيط لأهدافنا في واقعنا اليوم ، فمنينا بالهزيمة تلو الهزيمة ، وغلبتنا الأهواء ، وزادت الفرقة ، واشتدت بذلك غارة الأعداء علينا .

إن لقاء المؤمنين قضية هامة يأمر بها اللّه . فمن رحمة اللّه أن بيّن لنا

الدرب لهذا الهدف العظيم ، وأن جعل التبيين جليّاً ميسراً حتى لا يكون للناس حجة على اللّه أبداً .

فمن منهاج اللّه إذن نتلمس الطريق . ومن منهاج اللّه نحدّد الأهداف ، ومنه كذلك نقيم الوسائل والأساليب .

إن اللقاء يكون على الحق . وللحق ميزان محدّد أمين هو منهاج اللّه . إن اللقاء إذن على نهج ممتد ، ودرب ومسيرة ، وليس على نقاط من هنا وهناك . ولا بد أن يكون هذا النهج قائماً على قواعد يأمر بها اللّه ، وقواعد تلبّي حاجة الواقع ، ووسائل تنبع من النهج وتقوم عليه وعلى حاجة الواقع .

لذلك حاولنا في هذين الكتابين : لقاء المؤمنين - القواعد والأسس - الجزء الأول ، ولقاء المؤمنين - الأهداف - الجزء الثاني ، وكذلك في سائر سلسلة كتب الدعوة ، أن نرسم معالم النهج الذي نؤمن أنه يحقق هذا اللقاء .

ولا ننكر أن الأمر شاق مثل سائر قضايا الدعوة الإسلامية ، ولا ننكر أن واقعنا اليوم أقام حواجز سميكة بين المسلمين ، وفي الوقت نفسه نراه يهدِّم الحواجز بين بعض المسلمين وبعض أعداء اللّه .

ولكن الثقة الراسخة باللّه سبحانه وتعالى تجعل كل مشقة تهون ، وكل بذل يرخص على درب ماض إلى الجنة .

إننا نشير في هذه المقدّمة إشارة سريعة لقاعدة هامة أساسية لهذا اللقاء ، لقاعدة فصّلناها في كتب الدعوة بإلحاح وتكرار . هذه القضية هي قضية الولاء الأول للّه سبحانه وتعالى ، والحب الأكبر للّه ولرسوله ، والعهد الأول مع اللّه سبحانه وتعالى ، لينبثق بعد ذلك كل ولاء وحب وعهد في الدنيا من الولاء الأول والحب الأكبر والعهد الأول .

إن هذا الشرط ، حين يتحقق في واقع الدعوة الإسلامية ، يزيل عدداً هائلاً من الحواجز بين المسلمين . وبغير تحقيقه تنهار جهود كثيرة ، وتتمزّق روابط كثيرة . إن الأخوة في الله لا يمكن تحقيقها دون هذا الشرط ، وكذلك قواعد إيمانيّة كبرى تقوم على هذا الشرط .

أدعو الله سبحانه وتعالى أن يتقبَّل عملنا هذا غنيّاً برحمته وفضله ، نقيّاً من شوائب الدنيا وأهوائها ، خالصاً لوجهه الكريم .

والحمد لله رب العالمين

عدنان علي رضا النحوي

الرياض ٢/٦/١٤١٦هـ
٢٦/١٠/١٩٩٥م

* * *

• مقدمة الطبعة الأولى •

هذا هو الكتاب الثاني للقاء المؤمنين !

لقاء المؤمنين هو اللقاء الذي تمتد إليه أَبصار الملايين في الأرض ، أَملاً وشوقاً ودعاء ، وتهفو إليه قلوب الملايين ، رغبة ولهفة ونداء ، ويسعى إليه العاملون الصادقون ....!

لقاء المؤمنين أَمل الملايين من المعذّبين ، أَمل المحرومين ، التائهين ، الضائعين ...! إنّه أَمل الضعفاء ، وغاية الأقوياء . من بين الدماء المسفوحة ، والأَنات المذبوحة ، من بين الجثث المحترقة ، والصيحات المنطلقة ، والأكوام المدفونة ، والطعنات المجنونة ، من بين هذا كله وكثير مثله ، تمتد نظرات الأَمل ، وتشتد سواعد العمل .

من بين الديار المتساقطة ، والحملات المتلاحقة ، والمؤامرات المتواصلة ، تنطلق الحسرة ، وتمتد الزفرة ، ويعلو الشوق ، ويطمئنّ القلب على ذكرى اللقاء ، وفرحة التلاق ...!

وكذلك ، فإنّه الشبح المرعب لأَعداء اللّه ، الشبح الذي ينزع من قلوبهم الأمن ، ومن جفونهم الكرى ، ومن ضلوعهم الراحة . إنه الشبح الذي ينتزعهم من أحضان الفجور ، وفراش الخدر ، وسكر النعيم ، وبلاء الجريمة . إنّهم يعملون ليل نهار على حربه وقتاله .

إنه لقاء الخير.... وهم أهل الشرّ ....! إنّه يدعو للعمل الصالح ، وهم يريدون الجريمة ....! إنّه دعوة العدل وهم طلّاب الظلم ، وجنود العدوان ....!

إنّه حزب اللّه ... وأُولئك حزب الشيطان ....، إنّه فرحة البركة ، وهم عبوس الجفاف ، وسواد الظلم ، وقترة الإرهاق ، وغبرة الشقاق .

ولو عقل النّاس لهبُّوا جميعاً إليه ، يسعون لتحقيقه ، ويبذلون لنجاحه ، ويدفعون لحياته . إنّه الخير لهم جميعاً ، فإن تركوه فلن يجدوا بعده خيراً ، ولن يجدوا خيراً سواه . إنّه حاجة الإنسان في الأرض ، إنّه الهواء والماء والغذاء والكساء... وإنّه لأكبر من ذلك ....! إنّه خير الدنيا والآخرة .

وفي الكتاب الثاني هذا ، نتابع المسيرة التي نرجو بها رضاء اللّه . نتابع المسيرة في البحث عن أسس لقاء المؤمنين ، كما أرادها اللّه سبحانه وتعالى في منهاجه الذي أنزله على عبده ورسوله محمد صلى اللّه عليه وسلم - قرآناً وسنّة - .

إنّنا لا نبحث عن رغبات هائجة ، ونظرات بشريّة مائجة ، وأَمزجة وظنون ، وأَوهام وفنون . ولكننا نعيش مع كتاب اللّه وسنّة رسوله صلى اللّه عليه وسلم ، ونحاول من خلالهما فهم الواقع الذي نعيشه ، حتى نخرج من ذلك بقواعد وأسس ، نحمل لها البيّنة والدليل آية من قرآن كريم ، أو حديثاً من سنّة نبويّة شريفة ، دون أَن نلجأ إلى تأويل يفسد الإيمان ، أو يخالف قواعد الإحسان ، أَو يناقض نصّاً آخر ، أَو يخرج عن حدود اللغة ...!

ولا بد ، مع هذه المسيرة ، مِنْ أَن نصوغ التجربة ، وأَن نسترجع الأَحداث ، من خلال الآيات والآحاديث كذلك ، ليس لعرض تاريخ ، أو عرض قصّة ، فذلك له كتبه وكتّابه . ولكننا نحاول هنا أَن نصوغ التجربة صياغة تدفع المسيرة ، وتنير الدرب ، على صُورة نتائج وقواعد .

إنّ تجربة العمل الإسلامي ممتدة في التاريخ ، منذ أَوّل وحي وأَوّل رسالة من عند اللّه . وقد نقل لنا القرآن الكريم جوهر التجربة هذه ، وخلاصة

الزاد، ليظلّ هُو منهاج المؤمنين أَبد الدهر. ولكنّ المؤمنين مكلّفون كذلك أَن يجعلوا من تجاربهم زاداً يصوغه القرآن والسنّة، ويحملونه من جيل إلى جيل، حتى تتكامل التجربة، ويعظم الزاد، وَيَقِلَّ الزلل، وتبين السبيل، وذلك كله في إِطار المنهاج الربّاني.

وفي القرن العشرين، حتى يومنا هذا، نستطيع أَنْ نقول إِنّ تجربة العمل الإسلامي استغرقت أكثر من نصف قرن من الزمن. ولقد وضع بعض رجاله قبسات من تاريخ، ولمحات من أَحداث، ولكنّ التجربة كلها لم تُدرَس بعدُ على أُسس إِيمانيّة دراسة كاملة، وما زال أَمام العاملين بذل واسع، وجهد عظيم، حتى تُستَوفَى الدّراسة، وتُستَكمَل الأسس. وتجارب القرن العشرين، حين تردّ إلى القرآن والسنّة، تصبح زاداً غنيّاً، وعتاداً قويّاً، ودرباً جليّاً.

وفي الجزء الأوّل[1]، عرضنا بعون اللّه: ملامح عامة عن لقاء المؤمنين في المقدمة والتمهيد، ثم عرضنا رابطة اللقاء، وخصائصه، والإيمان، والعهد، وأُسس لقاء المؤمنين وقواعده.

ونحاول الآن أن نتابع هذه الأَبحاث مبتهلين إلى اللّه عز وجل في خشوع وخوف ورجاء، وذلّ وتوبة وإنابة، أَن يتقبّل عملنا، وأَن يهبنا من لدنه صدق النيّة والقول والعمل... إنّه هو السميع المجيب، وهو الولي الحفيظ.

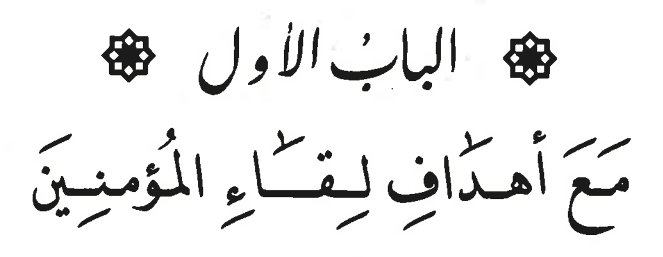
الرياض: الجمعة

١/١٠/١٤٠٤هـ

٢٩/٦/١٩٨٤م

عدنان علي رضا النحوي

(١) لقاء المؤمنين – الجزء الأول.



الباب الأول

مَعَ أهدَافِ لِقَاءِ المُؤمِنِينَ

الفصل الأول

• موجز •

• النظرية العامة للدعوة الإسلامية •

إنِ أهداف الدعوة الإسلامية ، كما سندرسها في هذا الكتاب ، جزء من النهج والتخطيط العام للدعوة . والنهج والتخطيط العام للدعوة عنصر هام من عناصر النظرية العامة للدعوة الإِسلامية ، عناصر العمل والتنفيذ في الميدان .

النظرية العامة للدعوة الإِسلامية هي التي توفِّر قاعدة الانطلاق ، القاعدة الصلبة ، قاعدة الإيمان والتوحيد ، القاعدة التى تقوم النظرية كلها عليها ، ويقوم عليها الركنان والأسس والعناصر . والنظرية العامة هي التي تحدّد أخطر المشكلات في الميدان وأَولويّاتها . وهي التي تحدّد الاتجاه وتضبط المسيرة كلّها . وبإيجاز هي التي تيسّر للداعية والدعاة والدعوة كلها نقطة البداية والانطلاق ، وكيفية التصرّف في الميدان ، في الواقع ، على أساس من منهاج اللّه .

إِنها تحدّد الدرب والاتجاه والأهداف ، وتحدد المراحل والوسائل والأساليب . وهي توفر بذلك الأُسس والقواعد التي تقوم عليها الدراسات المنهجيّة والأبحاث ، حتى لا تكون الدراسات مبعثرة ، والجهود متناثرة متنافرة .

والنظرية العامة كلها يجب أن تنبع من منهاج اللّه - قرآناً وسنة - كما جاءا باللغة العربية . فهي مسئولية المؤمن الداعية أن يتأكد حتى يطمئنّ إِلى أنها تقوم حقّاً على أساس منهاج اللّه وتنبع منه ، مع توافر الأَدلة والبينة على

ذلك من منهاج اللّه. وهي مسئولية الدعاة كلهم!.

وهي مسئولية الدراسات المنهجيّة والأَبحاث أَن تأخذ كلَّ جزء من هذه النظرية العامة، فتفصِّل فيه بالقدر الذي يحتاجه الواقع، وتقدّم مع كل تفصيل حجته وبيانه ودليله، حتى يطمئنَّ المسلم إلى أنه يسير على درب حقٍّ، ولينقطع الجدل والمراء، وليقوم الأساس النابع من منهاج اللّه، الأساس الذي يوفّر فرصة للقاء المؤمنين الصادقين وجمع الجهود وإيقاف الشحناء والصراع الدائر في واقعنا اليوم.

الكتاب الذي يقدّمه الجهد البشريّ لا يمكن أن يرقى إلى مستوى منهاج اللّه أبداً. فمنهاج اللّه وحده هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وحسب الجهد البشري أن ينبع من هذا الحق المطلق، وأن يجد حجّته منه، ليؤدّي دوراً محدَّداً في الواقع، لا ليحلّ محل منهاج اللّه، لا في الدعوة والبلاغ ولا في التربية والبناء، ولا في أي مرحلة من مراحل العمل والدعوة. فسيظل للمنهاج الربّاني الدور الأول والمهمّة العظمى في كل مراحل الدعوة. وسيظل هو المنهل العذب الذي تنهل منه البشرية كلها!

فما هو دور الكتاب البشريّ؟! ولماذا نكتب؟!

للكتاب البشري دور في مسيرة الدعوة الإسلامية، يمكن أن نوجزه بنقاط محددة:

١- أن يكون **كتاباً منهجياً**. أَي أن يحتلَّ مكاناً محدَّداً في منهج محدَّد، يرتبط من خلاله مع سائر كتب الدعوة، وترتبط كلها بمنهاج اللّه. حتى يستطيع أن يؤدي دوراً واضحاً محدَّداً.

٢- أن يدفع المسلم وغير المسلم دفعاً **إلى منهاج الله**، وأن يبيّن بوضوح وجلاء أن ما يقدّمه هذا الكتاب أو ذاك من قضايا عرضها منهاج الله، لا يبلغ بها الصورة المتكاملة التي يعرضها منهاج الله، وأنه يقدّم قبسات فقط، تعين وتذكّر وتوجّه، وتدرس وتحلّل، وتقدّم الرأي والنصيحة.

٣- أَن يضع **النهج التطبيقي العملي** في ميدان الواقع، النهج الذي ينبع من منهاج الله، ويلبّي حاجات الواقع المتجددة لكل ساحة ونشاط. النهج الذي يرتبط به كلّ كتاب.

٤- أن يقدّم **دراسات منهجيّة للواقع** حتى نفهم الواقع من خلال منهاج الله، لا من خلال الأهواء والمصالح والأفكار المنحرفة. ودراسات الواقع متشعبة في ميادين متعدِّدة من سياسة، واقتصاد، واجتماع، وعلوم إنسانية، وعلوم تطبيقية فنّية، وتاريخ، ودراسات في المذاهب والنحل والحركات والأحزاب والدعوات. ويقدّم من خلال ذلك كله «فقهاً» يعالج أهم مشكلات الواقع، ويعرض رأياً ونصيحة وفتوى، على أن يكون ذلك كله نابعاً من منهاج الله مرتبطاً به.

نعرض هنا، كما نعرض في معظم الكتب الأخرى للدعوة، موجزاً للنظرية العامة للدعوة الإسلامية، لتظلّ دراساتنا منضبطة في إطارها المنهجي، تأخذ دورها العادل في المنهج، وليسهل على المسلم معرفة دور كل كتاب تقدمه الدعوة وحدوده التي يعمل بها.

تنهض النظرية العامة للدعوة الإسلامية على قاعدتها الصلبة، **قاعدة الإيمان والتوحيد** التي هي جوهر الدعوة الإسلامية، وهي الزاد الأول الرئيس للداعية، وهي الهدف الثابت الأول للدعوة الإسلامية، كما سنبيّن في هذا الكتاب.

ويقوم على هذه القاعدة الصلبة الثابتة ركنان أساسيان هما: **المنهاج**

الرّبانيّ والواقع .

وهذه الثلاثة معًا : **الإيمان والتوحيد ، ومنهاج الله ، وفهم الواقع من خلال منهاج الله** ، تمثّل معاً الزاد الضروريّ الأساسيّ للداعية والدعاة قبل نزول الميدان ، أو العدة التي لا غناء له عنها .

فإذا نزل إلى ميدان الواقع بهذا الزاد ظهرت أَمامه مشكلات متعددة ، ومظاهر واسعة للخلل فيه . ولو حاول أن يعالج كن مشكلة جزئية أو كبيرة في الواقع وحدها مستقلة عن غيرها لأعياه الأمر وطال به ، وقد لا يصل إلى النتيجة المطلوبة . ولكنه يستطيع أن يحصر المشكلات كلها ، ومظاهر الخلل في وحدات أربع كبيرة ، نذكرها بترتيبها وأهميتها وترابطها : **مظاهر الخلل في التصوّر لقضية الإيمان والتوحيد ، هجر منهاج الله ، عدم وعي الواقع ، والخلل في الممارسة الإيمانية الناتج عن الخلل في القضايا الثلاث الأُولى .**

إن هذه القضايا أو المشكلات الأربع الكبرى التي يجدها الداعية أو الدعاة بعد نزولهم إلى الميدان ، وبعد دراستهم لواقعه هي أكبر القضايا وأهم المشكلات التي يجب عليهم البدء بمعالجتها في الميدان . إنها هي نفسها تتحوّل أو يخرج منها الأسس الأربعة الضرورية لتكوّن العنصر الأول من عناصر التنفيذ عند الانتقال من مرحلة دراسة الميدان إلى مرحلة العمل والتنفيذ . هذه الأسس الأَربعة تصبح : **الإيمان والتوحيد ، المنهاج الربّانيّ ، الواقع ، الممارسة الإيمانية** . وتصبح في الوقت ذاته العنصر الأول من عناصر التنفيذ الذي تنطلق منه سائر عناصر التنفيذ وترتبط به .

بهذا التصور نرى أن الداعية يمر بثلاث مراحل : المرحلة الأُولى هي مرحلة البناء والإعداد والتزوّد بالزاد الحقيقي الضروري . والمرحلة الثانية هي النزول إلى الميدان ودراسته . والمرحلة الثالثة هي الانطلاق في العمل

والدعوة على بصيرة ونور. ولا نعني بالمراحل الثلاث أنها مراحل منفصلة بعضها عن بعض. كلا! إنها مراحل متداخلة تداخلاً يحدّده وسع الداعية وواقع الميدان والظروف العامة المحيطة. ونعني بالممارسة الإيمانية ممارسة منهاج اللَّه في الواقع البشريّ ممارسة تقوم على أساس الإيمان والتوحيد والعلم بمنهاج اللَّه وفهم الواقع من خلال منهاج اللَّه. وهذه الممارسة الإيمانية تقود إلى العمل الصالح الذي يُفَصِّلُه منهاج اللَّه.

نلاحظ هنا كيف أن قضية الإيمان والتوحيد ممتدة في جميع مراحل النظرية العامة، فهي أولاً القاعدة الصلبة التي تقوم عليها النظرية كلها. ثم يبرز الخلل فيها كأخطر خلل في الواقع يجب البدء بمعالجته لتكون هذه القضية هي الهدف الثابت الأول في الدعوة الإسلامية. ثمّ تصبح هذه القضية أَحد الأُسس الأربعة التي تكون بمجموعها العنصر الأول للتنفيذ في الميدان، لترتبط بها سائر العناصر وتنطلق منها.

فما هي إِذن عناصر التنفيذ التي تحتاجها الدعوة الإِسلامية في الميدان؟! يمكن أن نوجز هذه العناصر على النحو التالي:

١- الأسس الأربعة السابق ذكرها تمثل العنصر الأوّل، وهي: الإيمان والتوحيد، المنهاج الرباني، الواقع، الممارسة الإيمانية. ومنها تنطلق العناصر الأخرى للتنفيذ وترتبط بها.

٢- النهج والتخطيط العام للدعوة: إنه يبدأ أولاً بالنيّة الخالصة للَّه حتى يطهر ويتحدَّد اتجاهه، وحتى يحمل معه أسباب القوة. وهو يبين الدرب والأهداف والمراحل. ويبين الوسائل والأساليب، وتساند الميادين، وغير ذلك.

٣- النهج والتخطيط لكل ميدان تخوضه الدعوة. ونذكر هنا بعضاً من

هذه الميادين، ثم تمتد وتتسع مع نموّ نشاط الدعوة ونموّ ميادينها :

أ - ميدان الدعوة إلى الإيمان والتوحيد، إلى اللَّه ورسوله .

ب - ميدان التعهد والتربية والبناء والإعداد .

ج - ميدان التدريب المنهجيّ على الممارسة الإيمانية .

د - ميدان الأَدَب ودوره في الدعوة الإسلامية .

هـ - كل ميدان جديد تخوضه الدعوة .

٤- الإدارة والنظام : وهو العنصر الذي يجمع الجهود وينسق بينها، ويؤمن التساند بين الميادين، ويحدّد المسئوليات والصلاحيات في كل مستوى، ويوفر الإشراف والمراقبة، والتوجيه والمتابعة .

٥- ميزان المؤمن : وهو العنصر الذي يزن به المؤمن الناس، ليُنزِل كلَّ إنسان منزلته الأمينة .

٦- المؤسسات الإيمانية : وهي المؤسسات التي تقدِّم الصورة التطبيقية للإسلام في الواقع في مختلف أوجه النشاط .

٧- التقويم : وهو العنصر الذي يوفر المحاسبة والمراجعة والدراسة، وتحديد الأخطاء، ووسائل المعالجة، بصورة منهجية دورية .

ويوضح النموذج المبين في آخر هذا الموجز، الهيكل العام لهذه النظرية العامة للدعوة الإسلامية وترابط أجزائها وتماسكها .

وتقدم الدراسات المتوافرة في سلسلة كتب الدعوة التفصيلات الضرورية والحجة والبينة من منهاج اللَّه : لقضية الإيمان والتوحيد في مراحلها المختلفة، ولدور المنهاج الرباني وأهمية دراسة الواقع، وللمشكلات الأربع الرئيسة، ولعناصر التنفيذ، ويدخل في ذلك دراسات أهم قضايا الواقع

الفكرية، وأهم أحداث الواقع، لترتبط كلها في منهج محدَّد.

وتظل هذه الدراسات المنهجية تنمو مع نمو الدعوة، لتأخذ كل دراسة مكانها العادل المحدد في نهج الدعوة وخطتها.

وهذا الكتاب، **كتاب لقاء المؤمنين – الجزء الثاني – الأهداف** – يأخذ مكانه في نهج الدعوة وفي نظريتها العامة. يأخذ مكانه في الدراسات الخاصة بالعنصر الثاني من عناصر التنفيذ في الميدان – عنصر النهج والتخطيط العام للدعوة. فهذا الكتاب يقدم دراسة الأهداف والدرب والمراحل، لتظل هذه كلها نابعة من منهاج اللَّه ملبية لحاجة واقعنا اليوم، وكل واقع!

إن تحديد الأهداف ضرورة رئيسة للمسلم والداعية والدعاة، وللدعوة الإسلامية كلها، ليكون هذا التحديد سبباً من أسباب لقاء المؤمنين المتقين الصادقين.

كيف يمكن أن يلتقي المؤمنون إذا لم يكن لهم في الواقع، في الميدان، صراط مستقيم واحد، وأهداف تطبيقية واحدة، إن الشعارات وحدها لا تكفي لجمع المؤمنين المتقين الصادقين.

ولقد لمسنا من واقع المسلمين اليوم ما آلوا إليه من هزيمة وفواجع وخسران نتيجة لتمزق الجهود واشتداد الصراع بين المسلمين أنفسهم، وتضارب الأهداف والنهج.

ونؤكد أن على المسلم الصادق أن يكون ملتزماً بتدبُّر منهاج اللَّه، صحبة عمر وحياة، تدبراً منهجيّاً، كما عرضنا ذلك في كتاب منهج المؤمن بين العلم والتطبيق، ودور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية وفي

غيرهما ، حتى يستطيع أن يرد كل ما نقدمه إلى منهاج الله ، ليطمئن هو بنفسه إلى أن ذلك نابع من منهاج الله ملبٍّ لحاجة الواقع .

إنِ هذا أمر ضروريٌّ حتى يقوم التناصح بين المؤمنين على أساس منهاج الله ، وليأخذ كل كتاب دوره المحدَّد في النهج والخطّة ، لينمو الجهد البشريّ والفكر البشري على أساس من منهاج الله ، ملبياً لحاجة الواقع .

لقد أصبحنا نجد في واقعنا اليوم « فكر إسلاميّاً » معزولاً عن منهاج الله ، منفصلاً عن الإيمان والتوحيد ، ينطلق من تصوّرات بشرية خاصة ، يُصْبَغ بشعار إسلاميّ . أصبحنا نجد ما يسمى « بالفكر الإسلامي » معزولاً عن تصور الدار الآخرة ، معزولاً عن الموت والبعث والحساب ، يلقيه صاحبه بجرأة على الله عجيبة ، جرأة يجمع فيها أهواءه ورغباته ، كأنه فكر مادّي شديد الصلة بالنظرية المادية الجدلية والمادية التاريخية التي طلع فيها فريدرك إنجلز ، وماركس ، وغيرهما ، لا تجد فيها أي تقدير وحساب للدار الآخرة ، وللموت والبعث والحساب .

« الفكر الإسلامي » الصادق ينطلق أولاً من منهاج الله ويظلُّ مرتبطاً به ، ويحمل منه كل مسلم على قدر وسعه الذي سيحاسبه الله عليه ، وعلى قدر مسئوليته وأمانته . ثم ينمو هذا « الفكر الإسلامي » النابع من منهاج الله من خلال التفاعل مع الواقع ، ليخرج على صورة فقه تطبيقي ، أو نهج عمليّ ، أو خطة تلبّي حاجة الواقع ، أو دراسات تحتل مكانها في النهج والخطة ، وتربط ذلك كله بالموت والقبر ، والساعة والبعث والحساب ، والجنة والنار ، تربطه بكل قضايا الإيمان والتوحيد ، على صورة منهجيّة تطبيقية .

إِنها مسئولية المسلم نفسه أن يبذل جهده ووسعه الصادق ليطمئن إلى أن هذا الفكر ، أو ذاك نابع من منهاج الله ، مرتبط به ، ماضٍ معه ، يحمل

حجته وبينته منه ، لا من التصورات البشرية المتفلتة مع الأهواء والانحرافات .

إن من أهم ما نهدف إليه من هذا النهج الذي توجزه « النظرية العامة للدعوة الإسلامية » وتفصله « كتُبها » هو أن يكون أساساً للقاء المؤمنين الصادقين المتقين ، الذين صدق ولاؤهم الأول للَّه وعهدهم الأول مع اللَّه وحبّهم الأكبر للَّه ولرسوله ، لينطلق من هذا الولاء والعهد والحب كل ولاء آخر في الحياة الدنيا وكل عهد وكل حبّ . وليكون هذا الأساس وهذا اللقاء منطلقاً لبناء الأمة المسلمة الواحدة في الأرض ، ونؤمن أنه يتعذّر بناء الأمة المسلمة الواحدة في الأرض ، دون أن تتحقق في نفوس المؤمنين هذه الشروط الرئيسة والخصائص الربانية الضرورية .

ومن أجل تيسير تعاون المسلمين على هذا الأمر ، فلا بد أن نُذكِّر بأمر هام . ذلك أن القاعدة التي انتشرت بين المسلمين خلال هذا القرن وهي : « أن نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه » ، آن الأوان لتغييرها بعد أن أصبح مفهومها مضطرباً ، وبعد أن جعلت التعاون والاختلاف والاتفاق خاضعاً للتصور البشري ، وبعد أن ثبت أن هذه القاعدة لم تُزل الخلافات والصراع ، وإنما ازداد الخلاف والتهب الصراع حتى أخذ صورة الإثم والمعصية .

لذلك نستبدل بالقاعدة السابقة قاعدة جديدة نؤمن أنها أقرب لنصوص منهاج اللَّه ، وأدق تعبيراً ، وأوضح نهجاً ، هذه القاعدة الجديدة هي :

« يجب أن نتعاون فيما أمر اللَّه أن نتعاون فيه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما أذن اللَّه لنا بالاختلاف فيه » .

بهذه القاعدة أصبح التعاون والاختلاف مرتبطاً بصورة واضحة بمنهاج اللَّه وقواعد الإيمان والتوحيد . وأصبح هذا النصّ محكّاً لصفاء النفوس ،

وتمحيصاً لما في الصدور.

والنهج الذي ندعو له، والنظرية العامة كذلك، كل منهما يقدّم الأسس الربانية التي يجب التعاون على تحقيقها في ميدان العمل الإسلامي. ويقدم كل منهما القواعد والأسس التي لا غناء عنها في أي عمل إسلامي. لا ننكر أن الكثيرين يرفع شعاراته من بعض هذه القواعد والأسس. ولكننا لا ندعو إلى التعاون في رفع هذه الشعارات فحسب، ولكن ندعو بالإضافة إلى ذلك إلى التعاون على تحقيق هذه الشعارات في أنفسنا، وفي الواقع البشريّ طاعة للّه وجهاداً في سبيله: في ميدان الدعوة والبلاغ، وميدان التربية والبناء، وميدان التدريب، وميدان الأدب، وكل ميدان جديد تخوضه الدعوة.

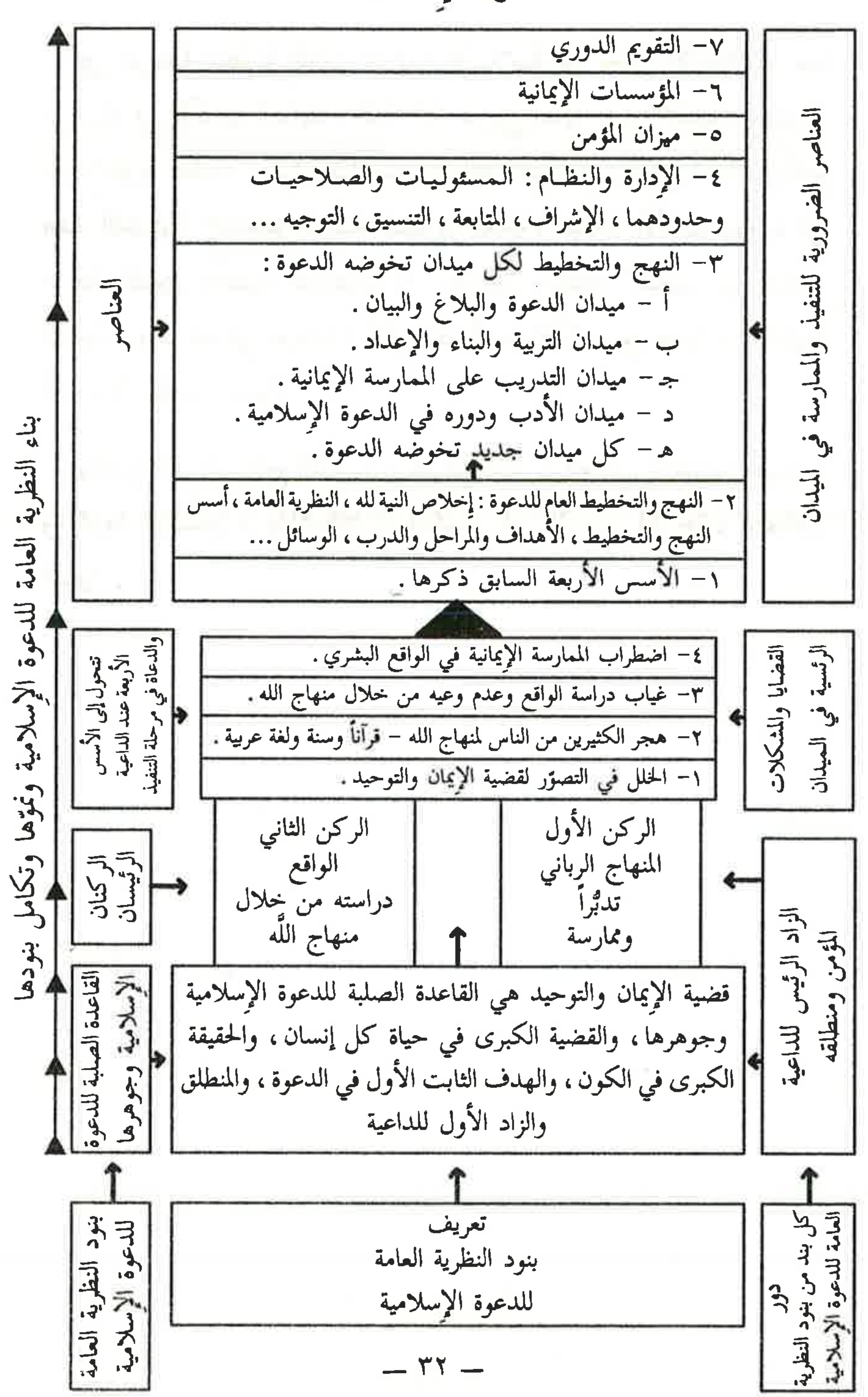
يريد الكثيرون حلولاً فوريّة لمآسينا. فإذا عُرِضت حلول مدروسة تحتاج إلى مدى، تركوا ذلك وهبّوا إلى ردود الفعل والارتجال، ليحصدوا بعد سنين طويلة مرارة الهزيمة والخذلان. إن هؤلاء يحسبون أن النجاح أو الفشل مرهون بجهد الإنسان وحده معزولاً عن أمر اللّه وقضائه وقدره. إنهم ينسون أن الأمر كله للّه، وأنه إليه وحده ترجع الأمور، وأن للّه سنناً لا تبديل لها، وأنه لا يمكن تحقيق نجاح حقيقي يرضى اللّه عنه، إذا لم يتصل جهد الإنسان وبذله بطاعة اللّه على نهج عمليّ يضبط المسيرة، حتى لا تتفلت وحتى لا يدفعها الهوى إلى مزالق الانحراف، والفشل والخذلان.

ولا نُغرُّ بما يحققه أَعداء اللّه من مكاسب في هذه الحياة الدنيا. هي فترة ابتلاء وامتحان وتمحيص، ثم يأتي أمر اللّه وتمضي سننه ويمضي قضاؤه وقدره ليأخذ كلّاً بذنبه وآثامه، وقضاء اللّه حق عادل لا يظلم شيئاً، ولا يظلم أحداً، ولا يظلم أبداً.

في عرضنا للنظرية العامة للدعوة الإسلامية هنا بعض الاختلاف عما عرضناه في الكتب السابقة. لقد كنا نعرض هناك بعض القضايا منفصلة عن النظرية العامة، حيث كنا نعتبرها داخلة ضمناً في بعض أجزائها وأهم هذة القضايا: القاعدة الصلبة للنظرية العامة، ميدان الأدب ودوره في مرحلة التنفيذ وأهمية التخطيط له، الإدارة والنظام كعنصر من عناصر التنفيذ. وأما هنا في عرضنا الحالي فقد أدخلناها لتصبح جزءاً من النظرية العامة لا ينفصل عنها.

ونقدم الأن النموذج الذي يبين هيكل النظرية العامة: قاعدتها الصلبة، وركنيها الرئيسين، والمشكلات الكبرى أو الأسس الأربعة، وعناصر التنفيذ.

النظرية العامة
للدعوة الإسلامية



الفصل الثاني

جلاء الأهداف وترابطها
ومسئولية الفرد والجماعة والأمّة

لا يعقل أن يسير المسلم في حياته الدنيا ، ولا الجماعة ولا الأُمة ، دون أَن يكون هنالك أَهداف واضحة جلية ، يؤمن بها الفرد والجماعة والأُمة .

ولا تصدق هذه الأَهداف إلا إذا كانت نابعة من منهاج اللّه تحمل معها الحجة والدليل منه ، وتلبّي حاجة الواقع الذي يعيشه الناس .

إنها مسئولية كل مسلم أن يتأكد هو نفسه من وضوح هذه الأَهداف ، ومن أَنها نابعة من منهاج اللّه ، وأَنها مترابطة متماسكة متناسقة ، تقود كلها إلى صراط مستقيم حدده منهاج اللّه ، وتقود كلها إلى الهدف الأسمى والأَكبر – الجنّة ، إذا صدقت النيّة وصح العزم . وعندئذ يصبح المسلم نفسه مسئولاً بين يدي اللّه عما بذله لتحقيق هذه الأَهداف ، أو عما قصّر فيه ، فينال الأجر والثواب ، أَو ينال العقاب . وتصبح الجماعة والأُمة كلها كذلك مسئولة .

إن هذه الأَهداف لا تعمل بالوهم والخيال . ولكنها أَهداف قامت لتطبّق في الواقع البشري . بالجهد البشري . هذه هي سنة اللّه التي سبقت بها كلمته ومضى بها قضاؤه وقدره . إنها تمثل صورة من صور الابتلاء والتمحيص للإنسان ، ليميز اللّه الخبيث من الطيب ، والقوي من الضعيف ، ولتقوم الحجة على الإنسان ، أو تقوم له ، يوم القيامة .

إن وضوح الأَهداف ، وجلاءَها ضرورة هامة للفرد والجماعة والأُمة ،

لتكون هذه الأَهداف قاعدة أَساسية للقاء المؤمنين الصادقين العاملين. كيف يمكن أَن يكون لقاء للمؤمنين إِذا لم تتوحّد الأَهداف؟! كيف يمكن أَن يلتقي المؤمنون إِذا تحرّك كل واحد منهم في متاهة مظلمة لا هدف له ينير الطريق. في هذه المتاهة الواسعة التي تغيب فيها الأَهداف تتبعثر الخطى وتتفرق الطوائف وتضيع الجهود.

جلاء الأَهداف نور تشرق به الدرب، ونور يمشي به الداعية بين الناس:

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢٢)

هذه الأَهداف الربّانية لا يعمل كل هدف منها منعزلاً عن الآخر. إنها تعمل معاً مترابطة. فحين تنطلق الدعوة إِلى الهدف الثابت الثاني يصبح الهدفان الثابتان الأول والثاني يعملان معاً. وحين تمضي الدعوة إِلى الهدف الثالث تصبح الأَهداف الثلاثة تمضي معاً وتعمل معاً لتحقيق الهدف الرابع. ثم تمضي الأَهداف الأربعة بترابطها لتحقيق الهدف الخامس، والخمسة لتحقيق الهدف السادس، وتمضي المسيرة كلها إِلى الهدف الأسمى والأكبر – الجنَّة.

وهذه الأَهداف وجلاؤها ضرورة أيضاً لصدق النهج والخطة. فإذا كان العنصر الأول للنهج والتخطيط هو صدق النية وإِخلاصها للّه، فإن جلاء الأَهداف عنصر رئيس كذلك لسلامة النهج والتخطيط. وكيف يكون هنالك نهج أو خطة إِذا لم يكن هنالك أَهداف محددة مجلوة تحملها الخطة ويمضي بها الجهد البشري. ومسئولية المسلم أَن يتأكد هو نفسه من

النهج ومن أَنه نابع من منهاج اللّه . حين ننظر في واقعنا اليوم نجد خطورة الاضطراب ونتائج عدم وضوح الأَهداف أَو غيابها . فتغلب ردود الفعل والارتجال ، ثمّ يقع العتاب والتلاوم ، ثمّ الخلاف والشقاق ، ثمّ التنابذ والصراع .

إذا صدقت النية للّه خالصة طاهرة ، ووضحت الأَهداف ربّانية مشرقة ، فإن الجهود تمضي إِذن باتجاه واحد ، على درب واحد ، في مجرى واحد ، لا تتفرّق ولا تتبعثر ولا تنحرف . ومن كانت له أهدافه وخطته كان أقدر على بلوغ النجاح ، وصدّ الأعداء . ولو التقى طرفان أحدهما له أهدافه ونهجه وخطته والآخر لا يملك من ذلك شيئاً ، فإن صاحب الأَهداف والخطة يستطيع أَن يحوّل جهود الآخر لمصلحته هو ، ويضيع على الآخر وقته وجهده وماله ليعود خاسراً خاسئاً يجر ذيول الندم والحسرة والأسى .

حين ننظر في واقعنا اليوم ندرك كم استفاد أعداؤنا من جهودنا وأوقاتنا وخيراتنا وأخطائنا ، وكم بذلنا من الجهود سنين طويلة ذهبت فيها الجهود أدراج الرياح ، وانتقلنا من هزيمة لهزيمة ، ومن خزي إلى خزي .

ولقد سارت النبوة الخاتمة ، وسار الخلفاء الراشدون على وضوح الأهداف وجلاء الخطة وصدق النية والعزيمة ، فانتقلوا بذلك من نصر إلى نصر ، ومن عزة إلى عزة .

إن جلاء الأَهداف دليل على وعي الواقع وردّه إِلى منهاج اللّه . وهو دليل على صدق البصيرة وحسن التفكر والتدبّر ، وهو ضابط يحفظ الخطى من الانحراف ، وكابح يكبح الأَهواء والشهوات التي تعيش في ظلام المصطلحات العامة التي لا تدل على نهج ولا هدف .

كلمة « المصلحة العامة » تصبح ميدانًا لكل هوى وشهوة ، ولكل عبث وضلالة إذا غابت الأهداف واختفت الخطة ، وكذلك تفعل سائر التعبيرات العامة في مثل هذه الأجواء .

إن جلاء الأَهداف يحدّد مسئولية الفرد المسلم حتى لا يتعلل بالأَعذار الواهية . إِن الأَهداف تضع المسلم أمام مسئوليته التي سيحاسبه اللَّه عليها . ولا يوجد في الإِسلام إِنسان دون مسئولية . فكل مسلم مكلفٍ شرعاً هو مسئول ومحاسب . ومن مسئولية كل فرد مسلم تنشأ المسئولية الجماعية ، المسئولية العامة للجماعة والأُمة ، حين تترابط مسئوليات الأفراد وتتماسك وتتناسق من خلال منهاج ربّاني متكامل مترابط .

وعند غياب مسئولية الفرد في الأُمة أو تقصير الأفراد بها ، أو قتلها ، فحينئذ تضطرب المسئوليات كلها وتظهر الديكتاتورية أَو الديمقراطية أو الاشتراكية أو غير ذلك مما يزينه شياطين الإِنس والجن تحت خدر الشعارات .

وإن أَكبر خطر تتعرض له الأُمة هو حين تصبح الأَهداف مجرد شعارات تستهلك طاقة الحناجر والهتافات ، ولا تستهلك طاقة العقول المفكرة والقلوب المتدبرة والسواعد الباذلة على درب مشرق باليقين .

إِنها مسئولية الطاقة البشرية أن تصدق البذل لتحقق الأهداف ولتفي بعهدها مع اللَّه وبأمانتها التي حملتها ولتكسب الفوز في الدنيا والآخرة .

ومن الأَخطاء القاتلة أَيضاً أَن يطغى هدف على هدف بغير موازنة أَمينة ، أَو أَن يغيب هدف غياباً كلياً عن المسيرة تحت ضغط شعارات وأَهواء .

والجلاء والوضوح في النهج العام والأَهداف الثابتة يجب أَن يكون لدى الأفراد كلهم، لدى الجنود كما هو لدى القادة. إن الجلاء والوضوح في الأَهداف الثابتة والنظرية العامة والنهج العام ضرورة للدعاة قادة وجنوداً. واستمع إلى آيات الله تقرر هذه الحقيقة الهامة:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف: ١٠٨)

نعم! (.... **على بصيرة أنا ومن اتبعني ....**). إنها دعوة يمضي جنودها وقادتها على بصيرة وجلاء ووضوح. إنها ليست تبعيّة جهل وذلة وعمى. إنها تبعية بصيرة وجلاء.

ولننظر في واقعنا ومدى حاجة الأَتباع إلى بصيرة ونور، وجلاء ووضوح، حتى يتسابق الجميع إلى البذل والعطاء إذا صدق الإيمان وأَخلصت النية وصحت العزيمة.

إن مسئولية الدعوة أَن تبني الإنسان المؤمن الواعي الذي له بصيرة، والجيل المؤمن المبصر، والأُمة المؤمنة المبصرة. وليس من مهامِّها بناء قطيع يساق لا يسمع ولا يبصر ولا يعي. إن مسئولية الدعوة الإِسلامية أن تبني الإنسان المؤمن الذي يعرف كيف يفكر تفكيراً إيمانيّاً، والجيل المؤمن الذي يعرف كيف يفكّر تفكيراً إيمانيّاً نابعاً من إيمانه ويقينه، ومن علمه الصادق بمنهاج الله، ووعيه الأمين للواقع. إن هذا الجيل المؤمن بخصائصه الإيمانية يعرف دربه وأهدافه ونهجه، فلا يتيه ولا تخدعه الزخارف، ولا تلهيه الشعارات!

* * *

الفصل الثالث

الخصائص الإيمانية
لأهداف لقاء المؤمنين
وأهمية تحديدها

١- تمهيـــد :

وقفة هادئة مع داعية ، أَو جماعة ، أو رجل مسلم لِتسأَلهُ سؤالاً واحداً فقط ....: ما هدفك ؟ ما هدف عملك ....؟ ما هدف دعوتك ...؟ ... ضع السؤال في أَيِّ صيغة شئت ، أَو ضعه في أَحسن الأَساليب التي تلائم صاحبك الذي تسأله ...! واجمع الإِجابات وَأَحْصِها ، وانظر ماذا يجتمع إِليك .

فلو أَحصيت إجابة الأَفراد المسلمين العاديين لاجتمع لديك ، بعد تردد هذا وتفكير ذاك ، إجابات متعدّدة ... متنوّعة ...، وقد تكون متباينة مختلفة . ولا أظنّ الحال يختلف كثيرًا لو أَحصيت إجابات الدعاة في نواحٍ مختلفة من الأَرض ، أَو إجابات الجماعات والدّعوات ... العاملة هنا وهناك ...!

وقد لا يكون من الضروري أَن نثبت هنا ما يمكن أَن نتوقعه من إجابة ... فذلك أَمر يطول ، ولكننا نُعْطي بعض الأَمثلة والنماذج ، على ضوء واقع عشناه ، وتجارب عانيناها ، ونكبات حلّتْ بنا . فمن قائل : إقامة الحكمْ الإِسلامي ... دون أَن يتحدّد مكانه وشكله ، ومن قائل : تحرير فلسطين ....، ومن قائل : الموت في سبيل اللّه ، ولا يتردد آخرون في

تجديد الصياغة فيقولون : محاربة الاستعمار ، طرد أَعداء اللّه ، وآخرون يقولون : العودة إلى السنّة التي تركها الناس ...، العودة إلى القرآن ، العودة إلى الإسلام ... الدعوة إلى اللَّه ...، وهكذا تتوالى التعابير والمصطلحات ، من كلٍّ على قدر جهده واجتهاده . ولا ننكر أَنّ كلًّا من هذه الرايات يصلح لأَن يكون هدفاً وغاية من الأَهداف والغايات .

ولكن الذي نحب أَن نشدَّ النظر إليه ، هو اختلاف الإجابة مهما كانت درجة الاختلاف ، وعدم وجود أهداف موحّدة ولا مراحل جامعة ، وغياب النهج الذي يجمع الأهداف كلها . ولو وجّهتَ مثل هذا السؤال لأَصحاب محمد صلى اللّه عليه وسلم ، لأَجاب أَدناهم بما يجيب أَعلاهم ، إجابة واضحة واحدة ، سواءً أكانوا في الحبشة عند النجاشيّ ، أَم أَمام قيصر ، أَم أَمام كسرى ...! وقد تختلف الإجابة على قدر الحال ، وضرورة المقام ، دون أَن تتباعد المرامي ، أَو يتناثر الجوهر .

وبعد هذه الرجعة السريعة التي دعونا لها في أَول الكلمة ، والوقفة الهادئة ، فلنعد إلى حاضرنا اليوم ، ولنعش مع واقعنا ، لنبحث عن الأَهداف كُلّها ، أَو بعض منها ، وعن الرّايات ... والشّعارات ...! إننا نجد أَنّ فلسطين انتُزِعَتْ ، وانتُزِعَ غيرها ، ونجد أَنّ من النّاس من عاد إلى بعض السنَّة ، ولم يعد إلى القرآن ، ونجد أَنّ الكثيرين ماتوا تحت رايات عدّة ، واللَّه هو وحده أعلم بما في الصدور ، وما ضمّت القبور ، والحساب في يوم النشور ....! ونجد أَنَّ أَعداء اللَّه امتدّ سلطانهم ، وغلب شأنهم ، وأَنّنا نمرّ في محنة بعد محنة ، ونكبة بعد نكبة ، لا يخفّف من ويلاتها أُغنية « الصحوة » ، ولا أُنشودَة « الأَماني » ، ولا خدر العواطف ، ولا سكر الغيبوبة . إنها نكبات وويلات دفعت الدّماء سيولاً سيولاً ، وأَزهقت الأَرواح آلافاً آلافاً ، وجمعت الجثث أكواماً أَكواماً ....!

إذن غابت تلك الأَهداف أَو غاب معظمها ، وطُويَتْ تلك الرايات أَو طُويَ معظمها ...! لا ننكر الأَهداف ولا ننكر حقَّ رجالهَا ، ولكننا ننكر الاضطراب والتعدد والتَّبَايُن ، وننكر غياب النهج ، حتى استمسكتْ كلُّ عصبة بدَعْوتها ، على أَنَّها الحقُّ الذي لا يعلو عليه حقٌّ ، فانقطع أَمل التلاقي ، وذاق الجميع ويلات الفراق ، وغصّت القلوب بالحسرة ، وشرِقَت النفوس بالزفرة ....!

إنّ هذا الاختلاف والاضطراب في تحديد الأهداف يمكن أن نرجعه إِلى عِدّة أسباب ، نذكر هنا أَهَمَّها :

١- عدم الالتزام الكامل بردّ الأمور إِلى منهاج اللّه ردّاً أميناً يقوم على سلامة الإيمان ، وقوّة العلم ، وصدق التجربة ، وعلوّ الموهبة ، صفات تجعل المؤمن يعرف حدوده ووسعه ، وقدرته وطاقته . فلا هو يهبط ليكون إمّعة ، ولا هو يتجاوز إلى فتنة وتحاسد ، وتناجش ....!

٢- جهل الواقع الذي تعمل فيه الدعوة . وإذا توافر بعض العلم عن هذا الواقع فإنّه لا يُفهم برؤية قرآنيّة صافية ، وإنَّما هي رؤيا يعلوها الغَبَش والاضطراب ، رؤية تتصل بالواقع من خلال قنوات لا تحمل صفاء الإيمان . إنّه واقع يفرض نفسه حتى يولّد هو نفسه فكراً وتصوّراً قد يبعد عن الإيمان . إنه واقع قد يضعف فيه المسلم حتى لا يقوى على ردّه إلى منهاج اللّه ، ليرى الرؤية السليمة .

٣- ومن هذين السببين ، تنبع سائر الأَسباب والعوامل التي قد لا نستطيع حصرها هنا ، في هذه العجالة .

٤- ونتيجة لذلك كله غابت عن الأُمة خصائص لقاء المؤمنين ، ولذلك غابت أَهداف هذا اللقاء . إن الخصائص الإيمانية لهذه الأَهداف كانت

واضحة في صدور الصحابة رضي اللّه عنهم ، كانت مشرقة في قلوبهم ، كانت تمثل الحافز والدافع والغاية والهدف . كلّ ذلك كان جليّاً ، مشرقاً ، في القلوب والصدور . وأمّا اليوم فقد غابت هذه الخصائص عن واقعنا وفكرنا ، فاضطربت الرؤية كلها فلنعِش إذن لحظات مع هذه الخصائص الإيمانية .

٢- الخصائص الإيمانية للأهداف :

فالخاصية الأولى هي أن الدعوة الإسلامية دعوة ربّانيّة ، فأَهدافها ربّانيّة . إنّ اللّه سبحانه وتعالى أَنزل هذا الدين على عبده ورسوله محمد صلى اللّه عليهْ وسلم ، ديناً قِيَماً ملّة إبراهيم حنيفاً ، ديناً استكمل كلّ عناصره وأَهدافه . فالدين الإسلامي ، المنهاج الربَّانيّ ، يحمل إذن معه أهدافه ، لتكون نور المؤمنين ، وجلاء الدرب ، ومنار السائرين . إنَّ الدعوة الإسلامية ليست كالشيوعية ، أَو القومية ، أَو الوجودية ، أَو غيرها ... عملاً بشريّاً ، وصياغة بشريَّة ، وأَهدافاً بشرية . إنها أعظم من كلّ هذا ...! إنّها دعوة ربّانيّة ، وصياغة ربّانية ، فحقّ لها أَن تكون أَهدافها ربّانية .

والثانية هي أَنّ الدعوة الإسلامية دعوة ممتدّة امتداد الزمن ، دعوة ممتدة في الأَرض ، ممتدة في الزمن ، ماضية حتى قيام الساعة ، فوجب أَن تمتد أهدافها امتداد الحياة ، والأَرض ، والزمن . وجب أَن تمتدّ حتى تحمل معها بذرة الحياة ، وقوّة المضيّ ، واتساع الصبر ، ومضاء العزيمة ، وعزة الوثبة ، ويقين النصر . إنها لا تترك الميدان من جولة ، ولا تدبر من نكسة ، ولا تنهار من محنة ...! وأُحُدٌ ، والخندق ، وحُنَين ... نماذج حيَّة على مدار التاريخ . حين تنحصر أَهداف الدعوة الإسلامية في قضية مرحليّة ، أو جولة عابرة ، فإنّها تتعرض إلى الجمود ، ثم التمزّق ، ثم الضياع ، سواء أَحقّقت

الهدف أَم لم تحققه. فإذا لم تحققه فإِنّ الصدمة تكون عنيفة أَو مدمِّرة وتكون بعد ذلك مصدر فتن كقطع الليل. وإذا حققته نظرت بين يَدَيْها فلم تجد لها دربًا تمضي به، فتنقلب على نفسها في حيرة واضطراب، وتلاوم وعتاب، وتطاحن واحتراب.

والثالثة هي أَنّ الأَهداف تكون واضحة كالدعوة ذاتها، جليّة كاليقين، نقيّة كالإيمان. إنّها أَهداف تحمل خصائص الإيمان، وجلاء العقيدة، ونور الصدق، وقوة الحق. إِنّها ليست حركة باطنية تحمل أَهداف الجريمة فتختفي في الظلام، أو تحمل الفساد فتحتمي بعُصَب الشرّ، وأمواج الليل. إِنّها دعوة الخير وأَهداف الخير، ودعوة الوضوح وأَهداف الوضوح، ودعوة القوة وأَهداف القوة.

والرابعة هي أَنّها مع وضوحها وجلائِها، لا تكون أَهداف غفلة. فلا تُستدرج إِلى هلاكها، ولا يُستَغَلُّ وضوحها، ولا تُدفَن في جلائها. إِنّ الوضوح والجلاء يجب أَن لا يوفّر السلاح للعدو الكافر ليُحكم الضربة، ويُسدّد الطعنة، ولا أَن يدفع الدعوة إِلى شرك الخديعة، وحبال المكر، ومصائد الكيد. إِنّها مع وضوحها وجلائها، أهداف ذكية واعية، حذرة، فطنة، لا تنام لها عين ولا يغفل لها قلب، ولا تقع فريسة سهلة بين أَنياب الوحوش وأَظافير الثعالب. إِنَّها الموازنة الأَمينة بين الحذر والوضوح، والكتمان والإِعلان، والصمت والبيان. إِنها الموازنة الواعية، الذكيّة، الأَمينة، الإِيمانية، القائمة على إِيمان جليّ قويّ، وعلم أَمين غنيّ، وموهبة متفتحة قادرة. إِنّها لا تقوم على ضعف إِيمان، وغلبة جهل، وضيق وسع، وضياع موهبة.

والخامسة هي أن هذه الموازنة الدقيقة تحتاج إِلى خصائص دقيقة حتى تتوافر للأَهداف صفاتها الإِيمانية. وكما تحتاج هذه الأَهداف بصورة رئيسة

إلى الإيمان ، فإنّها تحتاج إلى العلم . إنّ أَهداف الدعوة الإسلاميّة لا يمكن أن يُحدّدها هوان في الإيمان ، ولا إغراق في الجهل ، حين يختفي ضعف الإيمان والعلم في حُمّى العواطف ، وبريق الشعارات ، وخداع المظاهر . وكلّما نما الإيمان وقوي العلم ، سهلت الموازنة ، ووضحت الأَهداف . فالأَهداف ترتبط ارتباطاً مباشراً بثلاثة أمور رئيسة :

أ – الإيمان والتوحيد

ب – المنهاج الربانيّ

جـ – الواقع البشريّ

فالأَهداف أساساً تنبع من الإيمان والتوحيد ، ومن المنهاج الربّاني الذي يَمدّ الأَجيال كلَّها ، والعصور كلَّها بأهدافها النامية ، الكاملة ، المترابطة . وكلُّ جيل ، وكلّ عصر ، يحدّد أَهدافه الثابتة والنامية ، على ضوء واقعه البشريّ الذي يُدرس من خلال منهاج اللّه . وارتباط أهداف الدعوة الإسلامية بالواقع البشريّ من خلال منهاج اللّه ، هو الذي يوفّر للدعوة وأَهدافها خصائصها المتميزة . إنَّ هذا الارتباط يمد الدّعوة وأَهدافها بالقدرة على الامتداد ، ونور الوضوح ، وذكاء الوعي والحذر ، وسلامة الموازنة .

والسادسة هي أَنّ هذه الأَهداف ، مع هذه الخصائص ، تظلُّ دائماً تشمل نوعين : هدف ثابت دائم ، وهدف نام متطور . والهدف الثابت يمثل المعين الذي يغذي كلَّ الأَهداف ، والنبع الذي يروِّي كل الغايات . نبع ثَرٌّ غنيٌّ لا ينضب أَبداً ، ومعين صاف لا يعكره شيء أَبداً ، إلّا إذا ضعف الإيمان ، وغلب الجهل ، وتدنّت القدرات . وكلّ هدف نام يصبح عند تحقيقه وبلوغه وسيلة وسبباً ، وقد ينقطع عن أن يكون هدفاً . إنه يصبح وسيلة وسبباً ينضمّ إلى سائر الأَسباب والقوى ، لتحقيق هدف أو

أهداف نامية جديدة ، أو أهداف ثابتة تصبح هي بدورها وسائل وقوى ، تنضم إلى ما سبقها من وسائل وقوى ، وتجتمع كلها في وثبة جديدة على درب الإيمان ، لتحقيق الأَهداف النامية الجديدة أو الأَهداف الثابتة . ومع كلّ هدف ، وكلّ وثبة ، تظلّ القلوب والأَبصار معلقة بالهدف الأَعلى ، لتأخذ منه حقيقة القوّة ، ومادّة الغذاء ، وصدق الرواء . وهكذا تظلّ الدّعوة ، مع تحقيق كلّ هدف ، تجمع قوة إلى قوة ، وسبباً إلى سبب ، وعزّة إلى عزة ، ومنعة إلى منعة . وقلوبها وأبصارها معلقة بالجنّة .

والسابعة هي أَنّ هذه الأَهداف النامية المرتبطة بالمنهاج الربّانيّ ، وبالواقع البشريّ ، إنّ هذه الأَهداف تحدّدها الطاقة البشرية المؤمنة ، من خلال النهج والتخطيط . إنّ المنهاج الربّانيّ يحمل أَهداف الأَجيال والعصور كلها . ولكنها هي مهمة الإنسان نفسه أَن يرسم خطته المرحلية ، ونهجه الذاتيّ ، وأَنّ يحدد أهداف كلّ مرحلة وكل خطة وكل نهج ، من خلال اختيار أمين ، وإيمان قويّ ، وعلم غنيّ ، وموهبة واسعة . وارتباط هذا النوع من الأَهداف بالطاقة البشرية ، هو من باب الأَمانة ، والعبادة ، والاستخلاف ، والابتلاء ، والتمحيص ، الذي كتبه اللّه على بني آدم في الحياة الدنيا . فهي إذن مسئولية الطاقة البشرية ، مسئولية الإنسان نفسه ، في أَن يضع من خلال منهاج اللّه ، وعلى ضوء الواقع البشريّ ، أَهداف المرحلة ونهجها وخطتها . وإنّها لمسئولية الطاقة البشريّة أيضاً ، أن تقوم ، ليس بتحديد الأَهداف هذه فحسب ، وإنما تقوم كذلك بالسعي إلى تحقيقها ، والبذل على بلوغها .

والثامنة هي أَنّ مسئولية الطاقة البشريّة في اختيار وتحديد الأَهداف النامية ، من خلال منهاج اللّه ، والواقع البشريّ الذي يُدرس من خلال منهاج اللّه ، لا تأتي مع التراخي أَو الرهبانية أو اللهو . إنّ هذه المسئولية تأتي

مع العمل والجد ، والبذل والجهد ، والسعي والكد ، والمعاناة والصبر . إنّها مسئولية كبيرة ، وعمل عظيم يحتاج إتقانه إلى طاقة عظيمة وجهد عظيم . إن تحديد أهداف الدعوة الإسلامية في أيّ مرحلة ، أو جيل ، أو عصر ، يأتي مع سائر الشروط من خلال الممارسة الإيمانية ، من خلال الجهد المبذول ، والخطأ والصواب ، حين يحوط ذلك كله المنهاج الربّانيّ ، والنهج والخطة ، والدراسة والوعي ، وحين تردّ الأمور عن إيمان وعلم وموهبة إلى منهاج اللّه .

٣- مهمّة الطاقة البشريّة المؤمنة :

إن دور الطاقة البشرية دور عظيم ، وإن مسئوليتها مسئولية عظيمة . إن هذه المهمة ، هذه المسئولية ، هذا الدور ، يحتاج إلى الجدّ والعزيمة ، والموهبة والوسع ، والخبرة والمران ، مع الأُسس الهامة التي تُبْنَى عليها هذه المسئولية ، من إيمان وعلم . ولا تتعارض هذه المسئولية مع حسن التوكّل على اللّه ، وصدق الإنابة إليه . بل هي من صميم التوكل على اللّه والإنابة إليه . ذلك أنّ جهد المؤمن كله هو مما يأمره به اللّه رب العالمين ، ومسئوليته يبيّنها اللّه ربّ العرش العظيم ، ونهجه يرسمه له اللّه الذي لا إله إلا هو . والمؤمن في كلّ عمله يصدر عن نيّة خالصة للّه ، وإيمان قويّ باللّه ، وعلم أمين بمنهاج اللّه . فهو يضع جهده على درب الإيمان ، على النحو الذي يأمره به اللّه سبحانه وتعالى . ولكن كيف يتسنّى لجاهلٍ بمنهاج اللّه أن ينطلق مثل هذا الانطلاق ، وأنّى لغافل أن يبحث عن أَهداف ، وكيف يجد النهج صاحب هوى ، أَو وُسْعٍ متدنّ واه .

إن تحديد الأَهداف النامية ، وإن السعي لتحقيقها وبلوغها ، ذلك كله مهمة الطاقة البشريّة ، الطاقة البشرية المتميزة التي أُعدّت لهذه المهمة ، والتي أُنيطت بها هذه القضيّة . وإنه لحساب شديد بين يَدَي اللّه عن التقصير في

هذا الأَمر ، أَو القعود عن واجباته ، إِذا كان الوسع الذي وهبه اللّٰه لعبد كان أهلاً للمهمة ، وإِذا كانت المسئولية والأَمانة مما يحوط هذا الأَمر ، وإِذا كان الداعية يعرف حدَّه ، ولا يَقتل حسده غيره .

على الأُمّة أَن تستحضر هذه الخصائص كلها ، وهي تحاول صياغة أَهدافها ، أَهداف الدعوة إِلى اللّٰه . عليها أن تستعيد في ذاكرتها ، وأَن تضمّ في صدورها ، هذه الخصائص الإِيمانية لأَهداف الدعوة الإِسلامية . وعليها كذلك أَن تحمل نور المنهاج الربّانيّ : إِيماناً وعلماً وبذلاً ، ووعي الواقع البشريّ : علماً وحيطة وحذراً ، وأَن تصبّ من خلال هذا كلّه جهودها في مجرى الإِيمان ، لتحدِّد أَهداف كلّ مرحلة ، تحديداً إِيمانيّاً واعياً ، تحديداً ذكيّاً نامياً .

٤- من أَهمّ الأَخطار التي تهدِّد المسيرة :

ومن أخطر ما يمكن أن تتعرض له أُمّة في مسيرتها ، هو أن يُحَدِّدَ لها عدوُّها أَهدافها وغاياتها ، بما يُلقيه لها في دربها من أوهام وأَشباح . ثم يزيّن لها الشيطان أوهامها ، ويحُرّك لها أَشباحها ، حتى تظنّ أَنّ بها حياة ، أَو أَنّها حقّ وحقيقة . فعندئذ تمتدّ الضلالة على طريق طويل ... طويل ، تتحرك فيه من ظلام إلى ظلام ، يقودها الشيطان وجنوده . واسمع إلى آيات اللّٰه تصف هول هذه الخسارة :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (الكهف : ١٠٣، ١٠٤)

وكيف يكون لهؤلاء نور؟ وكيف لا يخدعون أنفسهم؟ وكيف لا يخدعهم الشيطان ؟ وقد فقدوا نور الإِيمان ، وأَخذوا بظلام الكفر ، فحدد

لهم الشيطان أهدافهم وأعمالهم ، حتى حسبوا أنّهم يحسنون صنعاً ؟

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ (الكهف : ١٠٥)

ويصوّر لنا القرآن الكريم هذا الضلال بصور متعدّدة ، حتى يعلم الناس شدّة الضِلالة وهول الخذلان :

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (الأنفال : ٤٨)

وهكذا يُزيِّن الشيطان للكافرين أعمالهم ، للكافرين الذين خرجوا من ديارهم بَطراً ورئاء الناس ، ويصدون عن سبيل اللّه . هكذا زيّن لهم الشيطان أعمالهم ، وأَغراهم بالمدد والقوّة الكاذبة ، ومنّاهم خداعاً بالأمانيّ والسّراب .

هذا هو الخطر الشديد الذي يجب أَن يحذره المؤمنون . والشيطان قاعد لهم بالمرصاد ، ليُزيِّن لهم أهداف الضلال ، وأَوهام الفتنة ، وأَشباح الظلام . ولا نجاة من هذا إلا بإذن اللّه . واللّه قد وضع للمؤمنين نهجاً ، وأنزل لهم قرآناً وبعث لهم رسولاً ...! فأصبح من واجب المؤمنين إذن أَن يَصْدُقوا اللّه ويتعلموا منهاجه ، ويلتزموا حدوده ، فلا يتعدَّونها :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

(البقرة : ٢٢٩)

فتدبُّر منهاج الله - قرآناً وسنّة - ووعي الواقع البشريّ وعياً إيمانيّاً، هما من أول الواجبات حتى يستطيع المؤمنون أن ينجوا من فتنة الشيطان بإذن الله، ومما يزيِّنه لهم، وما يعدهم وما يمنّيهم ...!

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (النساء: ١٢٠)

وليس هذا هو الخطر الوحيد الذي قد يتعرض له المؤمن، مما نحن بصدده الآن، ولكن هنالك خطر آخر، لا يقلّ عن السابق شرّاً وفتنة، بل قد يزيد حين يكون تمهيداً للخطر الذي سبق أن ذكرناه في الأسطر الماضية، فيمهّد له تمهيداً. فيقع الإنسان عندئذ بالخطر الثاني بين وعود الشيطان وأمانيه. ويجمع بذلك الشرور كلّها والهلاك كلّه ...! ذلك يكون عندما يسير الإنسان دون هدف بيّن محدّد، أو أهداف واضحة مشرقة. ذلك يكون عندما ينطلق الإنسان تدفعه الدروب يمنة ويسرة، في عرض فلاة، لا يرى لها أفقاً، تخبطه الصخور والرمال والأشواك، وهو على غير هدى، ثمّ يبتلعه الظلام، ويرميه في واد سحيق... سحيق، ظلامه هول، وعمقه هول، وصداه أهوال. ثم من بعد تستهويه الشياطين ....!

ويجمع القرآن الكريم في آية واحدة جامعة، تقارن وعي الإيمان ونور الهداية، بحيرة التائه، الضائع، الذي استهوته الشياطين. تقارن الآية بين من عرف هدفه وأشرقت غايته إيماناً وعملاً، وبين من أفلتتْ من يديه الأهداف، واضطربت السبل، فاستهواه الشيطان، حيرة على حيرة، وضلالة على ضلال:

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ

يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنعام: ٧١)

ما أقسى حياة الإنسان وما أشقاها، حين ينطلق في جفاف الحياة الدنيا أو في بَلالها، في صحرائها أو جِنَانِها، في رمالها أو خضرتها، وهو لا هدف له ولا غاية أبداً، وهو تائه ضائع حيران ....! فقد تعطلّت لديهم كل منافذ النور والهداية، فلا قلوب يفقهون بها، ولا أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها ... أولئك ... كيف يعيشون:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٩)

ما أشقَ حياتهم وما أشقاها ....! عاشوا في تيه الضياع، حتى إذا استهواهم الشيطان زادهم حيرة وضياعاً، أو منّاهم بكاذب الأماني، وسراب الأحلام، ورخيص الأهداف. فإذا هم يركضون وراء اللقمة عن تخمة، يبيعون من أجلها شرفاً ورجولة وديناً. وإذا هم يهدفون إلى الدنيا عن غنىً، فهو أسْمَى أهدافهم، يفرحون إذا جاء، يحزنون إذا ضاع، والدينار بين مجيءٍ وذهاب يحطم أعصابهم. يفرحون لمنصب في الدنيا ويحزنون على فقده، يفرحون لزخرف وعرض زائل، ويهلكون جزعاً وخشيةً من فقدانه... تعِسَ عبد القطيفة ... تعِسَ عبد الدينار ... تعِسَ عبد الدنيا ....! وسيأتي الحديث الشريف.

ويظلّ الإنسان وهو يكدُّ لهذه الأهداف الرخيصة، يحوطها بالزخرف، ويجود عليها بالزينة. يجوع ويعطش، ويحرم نفسه النّوم والراحة، يطارد في حَمَارَّة القيظ، ولهب الهاجرة، يطارد شيئاً من الدنيا، وقد ترك نعيم

الآخرة، حتى إذا بلغ لعاعة عادت فأفلتت، فعاد يجري.

٥- أهميَّة تحديد الأهداف :

لا بدّ للمؤمن إذن، وللجماعة، وللأُمّة، لا بد من أَهداف إيمانية، تحمل خصائصها الإيمانية، لتظلّ هذه الأَهداف هي الباعث المنشّط، والمحرك القويّ، والطاقة الدافعة، على صراط مستقيم، على درب الإيمان ....!

لا يصح أَن يظلّ المؤمن في سعيه وعمله وحركته لا هدف يجذبه إليه، ولا غاية تدفعه إليها. لا يصحّ أبداً أَن يظلّ لحظة واحدة دون هدف واضح محدَّد، يشعر بعظمته، يشعر بأَنّه جزء من عقيدته وإيمانه، مرتبط بواقعه وحياته، يشعر بأنّه جزء من خطته ونهجه. لا بد للمؤمن من أَهداف واضحة بينة، تملك عليه حسّه وشعوره، وفكره وتصوره، وخطوه وجهاده، وموهبته وطاقته، ووسعه وقدرته. لا بد من مثل هذه الأَهداف كذلك للجماعة، وللأُمة ....! لا بدَّ من هذا حتى تظلّ حياة المؤمنين متصلة مترابطة، متصلة الأَهداف، مترابطة النهج. وأَهداف الأُمة هي أهداف المؤمن، ما دامت كلها تنبع من منهاج اللّه، مرتبطة بالواقع البشري الذي نفهمهُ من خلال منهاج اللّه، تصوغها خطة واحدة، ونهج واحد.

لا بدّ من هذه الأَهداف الربّانيّة، الأَهداف الإيمانية التي تحمل الخصائص الإيمانية التي عددناها، لا بدّ من هذه الأَهداف التي تحمل هذه الخصائص، لتسود الأُمّة، حتى إذا سألت أَي فرد منها عن هدفه، عادت لك الإِجابة ذاتها... مهما تناءت الدّيار، وتباعدت المواطن ....! إجابة واحدة... أهداف واحدة... من أُمّة واحدة، ودعوة واحدة، ودين واحد. أُمّة واحدة، تعبد ربّاً واحداً، لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، له الملك وله

الحمد وهو على كلِّ شيء قدير . وسبحان اللَّه ، والحمد للَّه ، ولا إله إلا اللَّه واللَّه أكبر ....!

٦- الأَهداف الثابتة قِسْمان :

لقد ذكرنا في الصفحات السابقة أن للدعوة الإسلامية نوعين من الأَهداف : نوع ثابت ممتدّ دائم، ونوع آخر نام متطوِّر إذا حقَّقَتْه أصبح وسيلَةً وقوَّة . والنوع الثابت من الأهداف ، نريد أَن نقسمه إلى قسمين أيضاً : الهدف الأول ، الهدف الأكبر الذي يربط كلَّ الأَهداف بجميع تسمياتها وأَنواعها ، بجميع أسسها وفروعها ، وأصولها وتفاصيلها . إنَّه الهدف الأَسمى الذي تنبع منه كل الأَهداف الثابتة والنامية . إنّها تنبع منه ، وتصدر عنه ، وتظلّ مرتبطة به ، لا تنفكّ عنه أبداً ، حتى يكاد يبدو أنه هو الهدف الوحيد للإنسان في هذه الحياة الدنيا ، وقد جُمِعَتْ فيه سائر الأهداف ، وضمَّها إلى نفسه .

وبهذا التصور يصبح للإنسان ، للجماعة ، للأُمّة ، للدعوة الإسلامية ، ثلاثة أنواع من الأهداف :

- **الهدف الأَول ، الهدف الأكبر ، الهدفُ الأَسمى ... وهو الجنّة .**
- **الأَهداف الثابتة .**
- **الأَهداف المرحليّة .**

وعلى هذه الأَهداف ، تقوم التربية والإعداد ، منذ الطفولة ، مع آيات وأحاديث ، حتى تصبح الأهداف جزءاً من نهج وحياة ، وعبادة وممارسة ، لا مجرّد شعار يطويه كتاب ، أو تردد صداه نواد ، أو يحرك ألسنة وعواطف ، سرعان ما تهدأ وتخْبو .

وبذلك يصبح ارتباط المؤمن بعقيدة ، بنهج ، بأَهداف اطمأنَّ لها قلبُه ، لأَنها أَهداف ربّانيّة ، لم يفرضها بشر ، وإنما يحملها دعاة صادقون . بذلك لا يعود ارتباط المؤمن بشعارات تظهر وتختفي ، ورايات تُنشر وتُطْوَى ، وبرق خُلَّب . وبذلك تصبح أخوّة الإيمان ، وخصائص لقاء المؤمنين ، جزءاً من عقيدة مشرقة ، يتكامل نهجها ، ويستقيم صراطها بإذن اللّه ، على إيمان وعهد .

ونشير بهذه المناسبة إلى أَنَّ لفظة « هدف » ، و« أهداف » ، لم ترد في كتاب اللّه ولا سنّة رسوله صلى اللّه عليه وسلم . فإنّهما لم يجمعا كلّ كلمات اللغة العربية ، ولا حرّما استخدام لفظة عربيّة صحيحة كريمة لم ترد بهما .

ولعله من المفيد أن نستعرض معاني هذه اللفظة في اللغة العربيّة :

الهَدَفُ : كلّ مرتفع من بناء ، أو كثيب من رمل أو جبل .

: الغَرَض .

: الرجل العظيم .

هل هَدَفَ إليكم هادف ؟ : هل حدث ببلدكم أحد سوى من كان به ؟

الهادفة : الجماعة .

الهِدْفة : القطعة من الناس والبيوت ، يقيمون في مواضعهم .

هدَّف إليه : دخل .

هدف للخمسين : قاربها .

الهِدْفُ : الجسيم .

أَهْدَف عليه : أشرف .

أهدَفَ إِليه : لجأ .

أهدَف له : عرض .

أهدَفَ منه : دنا ، أو انتصب واستقبل .

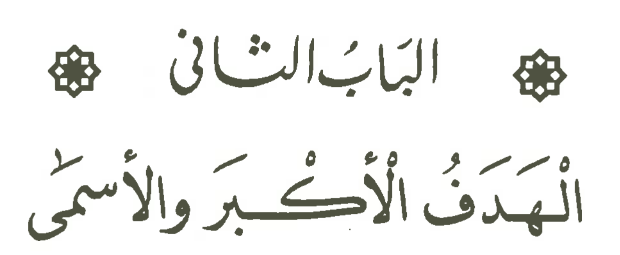
استهدف : انتصب وارتفع .

ومن مجمل هذه المعاني والظلال ، نحبّ أن نضع تعريفاً لهذه اللفظة يَتَّفق مع ما نرمي إِليه ، ويتفق مع أصولها وظلالها .

فالهدف الإيماني :

هو الغاية والغرض الذي يسعى إِليه المؤمن أو لقاء المؤمنين ، يسعى إِليه ليبلغه ويحقّقه ، طاعة للّه وعبوديّة له ، مستوفياً جميع خصائص الأهداف الإيمانية التي عرضناها ، مرتبطاً بمنهاج اللّه ، مرتبطاً بهدف قبله يمهّدُ إِليه ، مُرْتَبَطاً بهدف بعده ينطلق نحوه ، مُرتَبَطاً ارتباطاً مباشراً بالهدف الأسمى ، الهدف الأكبر .. الجنّة ، مُرْتَبِطاً ارتباط نيّة وإيمان ، وعقيدة ويقين ، وصراط مستقيم ، ونهج قويم . ويجمع ذلك كله خطة إيمانية مستوفية شروطها الإيمانية .

* * *



الباب الثاني

الهدف الأكبر والأسمى

الباب الثاني

الهدف الأكبر والأسمى

على رمضاء مكة ، في لفح الهجير ، ألقى المشركون ياسراً وزوجه سميّة وعماراً رضي الله عنهم يعذّبونهم في لهيب الشمس عذاباً شديداً . كلّ لحظه كأنها الدهر .... ! ومرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وهم يؤذَون فقال لهم : « صبْراً آل ياسر ! صبراً آل ياسر ! فإن موعدكم الجنّة »[1] .

ويعذبون بلالاً رضي الله عنه ، يطوفون به والحبل في عُنقه بين أَخشبي مكة ، أو يلصقون ظهره بالرمضاء ، لكي يشرك ، فيقول : أَحَد ! أَحَد ! فيمرّ ورقة بن نوفل به ، وهو على تلك الحال ، فيقول : « أَحَد ! أَحد ! يا بلال والله ! لئن قتلتموه لأتخذنّه حناناً » . أي لأجعلن قبره موضع حنان ، أي مظنة من رحمة الله ....![2] (*) .

« فإن موعدكم الجنة » ...! حدّد بها رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، ونبيه وقائد الدعوة ، حدّد بها هدف الدعوة الأول والأكبر . ولم يبدأ التحديد هنا في الحقيقة ، ولكنَّ تحديد الهدف بدأ مع أوّل خطوة ، وأوّل سورة ، وأول منطلق . وهو يأتي هنا للتذكير والتثبيت ، في مواقف يكون فيها الإنسان على أشد حالاته حاجة إلى تثْبيت أهداف دعوته وتذكرها . مواقف البذل ....، مواقف العطاء ، مواقف التعذيب والصبر . رضي الله عنكم آل ياسر..!

وكذلك بلال رضي الله عنه ، في أقسى حالات التعذيب والصبر ، لا

---

(١) حياة الصحابة جـ ١ ص ٤٢٩ .

(٢) حياة الصحابة جـ ١ ص ٤٢٦ .

(*) هذا الأثر ظاهر النكارة ؛ لأن ورقة بن نوفل مات قبل ذلك ، وفيه التبرك بالقبور ، وهذا مخالف لاعتقاد أهل السنة والجماعة . مصححه .

يردد لسانه إلَّا كلمة واحدة : أَحد ، أَحد ...! إنها التوحيد ، إنها العبودية للَّه الواحد الأَحد ، إنها الهدف الأكبر للمؤمن والغاية الأولى . فلم يهتف لصنم ، ولم يمجّد إنساناً ، ولم يلجأ لدنيا ....!

ولقد حفظ جنود الإسلام أهداف دعوتهم منذ اللحظة الأولى ، وعاشوا معها ، وعاشت معهم أبداً ، لا يتركونها ولا تتركهم . وتظلّ هي الحافز ، وهي المحرك ، هي الطاقة ، تمدهم بالعزيمة والقوة ، في كل موقف . ولم يكن آل ياسر ، وبلال، وحدهم على هذه الدرجة من الإيمان والوضوح ، ولكن سائر أبناء الدعوة كانوا على هذا المستوى من القوة واليقين . فقد تلقوا دروسًا واحدة ، في أحضان مدرسة النبوة . وكانوا أُمة واحدة ، ودعوة واحدة ، ودينًا واحدًا يعبدون ربّاً واحداً ، ولهم أهداف واحدة .

وتمرُّ الأيام ، ويهاجر فريق من المؤمنين إلى الحبشة ...! ويقف جعفر بن أبي طالب رضي اللَّه عنه يجيب النجاشي في موقف صعب ، حين كانت قريش تكيد لهذه العصابة المؤمنة عند النجاشي . فما تكلم جعفر رضي اللَّه عنه إلَّا بالذي يؤمن به ، وبالذي تَعلَّمه ، فقال : « كنا قومًا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القويُّ منا الضعيف . فكنَّا على ذلك حتى بعث اللَّه إلينا رسولاً منَّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى اللَّه لنُوَحِّده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأَوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأَداء الأَمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكفّ عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد اللَّه وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ...»[١] .

(١) السيرة النبوية لابن هشام الطبعة الثانية ص ٣٣٦ الجزء الأول .

ما أعظم هذه الأهداف ...! ما أَكثر ما تعلموا من رسولهم محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وما أَعظم ما آمنوا به ، وما أَعظم ما حققوه في واقع الحياة البشرية ، حقائق ويقيناً ، وإيماناً وعلماً وممارسة . « أن نعبد اللّه وحده لا نشرك به شيئاً ...» ، « رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه ...» .

ويوم أُحد ... وقد امتدت السنون ... فما زاد المسلمون إلّا تعلقاً بأَهدافهم وإيماناً بها ، وسعياً لها . فهذا عَمْرو بن الجموح رضي اللّه عنه يقول لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حين أراد أولاده حبسه عن الخروج : « فواللّه ! إِنّي لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة »[1] .

قلوب معلقة هناك ... هناك بالجنَّة ... هدفها الأَعلى ، هدفها الأُسمى ، وغايتها الكبرى . هدف يحرك كل حياة المؤمنين ، يدير الشورى ، وينظم شئونهم .

وقبل ذلك يوم بدر ، قال عُميرُ بنُ الحُمام ، أخو بني سلمة ، وفي يده تمرات يأكلهن : بخ بخ ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنَّة إلّا أن يقتلني هؤلاء ؟ ثمَّ قذف التمرات من يده ، وأَخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل[2] .

مهما امتدت الأَيام ، ومهما تبدَّلت المواقف ، فمع كل مؤمن ، هدف واضح جليّ ، تعلقت به أَبصاره ، وشدَّت إليه حواسه . ويظل التذكير في كل موقف آيات تتلى ، وأَحاديث تذكر .

وفي الخندق ، يحفر المسلمون ، ويحفر سلمان رضي اللّه عنه ، ويحفر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو يقول : « اللهم لا عيش إلا عيشَ الآخرة »[3] .

---

(١) حياة الصحابة ج ١ ص ٤٩٢ .

(٢) السيرة لابن هشام ج ١ ، ٢ ص ٦٢٧ .

(٣) إمتاع الأسماع للمقريزي ج١ ص٢٢١ .

الدار الآخرة ... الجنة .... هناك تعلقت القلوب وإلى هناك شُدَّت الأَبصار .

وفي كل موطن يظلّ هذا الهدف يملأ قلوب المؤمنين، يسير في دمائهم، يحرِّك كلَّ طاقاتهم، لا يضعف ولا يبهت، يغذّي كل الأَهداف، ويُرَوِّي كلَّ الغايات، وينمي الإيمان، والسعي، والوعي .

وحين يقف المغيرة بن شعبة أمام رستم قبل موقعة القادسية، يقول وقد شعَّت الدنيا كلها بهدف الدعوة، وأَضاءتْ الآفاق بِنُورِه : « إِنَّا ليس طلبنا الدنيا وإِنَّما همنا وطلبنا الآخرة، وقد بعث اللَّه لنا رسولاً ....»[1] .

وربعي بن عامر ... يقول لرستم وحاشيته : « اللَّه ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأَرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه . فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه . ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نُفْضِي إلى موعود اللَّه . قالوا : وما موعود اللَّه ؟ قال : « الجنّة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقي » . ثمَّ سأله رستم : أسيِّدهم أنت ؟ قال : لا ولكنَّ المسلمين كالجسد الواحد، يجير أدناهم على أعلاهم »[2] .

ما أعظم الهدف، وما أَوضحه في صدور رجال الدعوة، وجنود الإسلام ....! مهما امتدت السنون، وتبدَّلت المواقف . في العذاب والصبر، في الجوع والعطش، في الهجرة، في الغزوة بعد الغزوة، أمام أعظم دول العالم آنذاك ....، أمام النعيم، أمام الموت ....، في كل موقف، هدف واحد أَبداً لا يتغير : الجنَّة، الدار الآخرة، عبادة اللَّه الواحد الأَحد . جيل عظيم دفعته مدرسة النبوّة، ليمتدَّ مع القرون، يحملون هدف الدعوة، هدف الحياة . أعظم هدف لأَعظم دعوة . والنماذج كثيرة،

(١) حياة الصحابة جـ ١ ص ٣٢٦، ٣٢٧ .

(٢) حياة الصحابة جـ ١ ص ٣٢٦، ٣٢٧ .

ولكننا سقنا قبسات من تاريخ ، لنلمس قوة الوضوح ، وعظمة جنودها ...! سقناها لنعتبر .... ولنتعلم ...!

إنها مدرسة عظيمة ، مدرسة النبوّة ، التي دفعت إلى البشرية أَجيالاً وأَجيالاً ، تحمل معها مشاعل الإيمان ، تضيء الدرب الطويل ، وأمامهم تظل الجنَّة والدار الآخرة ، هدف الخطوة ، والنظرة ، واللهفة ، تتسابق القلوب المؤمنة إليها ...! إنّها آيات بيّنات ظلَّت تقرع القلوب المغلقة حتى فتحتها ، فأنارتها ، وجلت ظلامها بنور الإيمان :

﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة : ١١)

نَعَمْ ....! « بأنَّ لهم الجنَّة » نعْمَ الجزاء من اللّه ربّ العالمين ...! إنَّها رحمة اللّه الواسعة ، إنَّها فضله ورحمته .

وتظلّ الدار الآخرة هي الهدف الأعلى ، والغاية الكبرى ، التي يضعها منهاج اللّه – قرآناً وسنّة – أمام المؤمن . مع كلِّ سورة من سور القرآن يُعْرَضُ هذا الهدف بأسلوب أو بآخر : بالترغيب في نعيم الجنَّة ، بالترهيب من عذاب النَّار ، بالوصف هنا وهناك ، بالساعة ، بيوم الحساب ، بالموت ، بالقبر ، بالبعث ....، بالعبودية للّه ، بالتوحيد ....!

﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ (المسد : ٣)

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴾ (الهمزة : ٥ ، ٦)

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ (القارعة : ٦ - ١١)

﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾
(العاديات : ٩ ، ١٠)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ (البينة ٧ ، ٨)

﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ۝ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ (الفجر : ٢٣ ، ٢٤)

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ (الغاشية : ١)

ويعظم هذا الهدف حتى يجعله القرآن الكريم هو ميدان المناقشة المشروع ، وساحة السباق الممدودة :

﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (المطففين : ٢٦)

لا تكاد تخلو سورة من هذا الأمر. ويعظم الهدف حتى يجعله القرآن الكريم هو الحياة الحقيقية ، هو الحياة فحسب ، كما سبق في سورة الفجر ، وكذلك في سورة العنكبوت :

﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ

﴿ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٦٤)

وتستمر الآيات الكريمة تقرع القلوب ، وتشد الأبصار إلى هذه الغاية الكبيرة ، وتربط كل عمل ابن آدم بها ، فهي إما جنَّة نعيم ، وإمَّا نار وجحيم . ويعرض القرآن الكريم هذه الحقيقة الكبرى مع عرضه لسائر القضايا . أَو على الأَصح فإنه حين يعرض أيَّ قضية أُخرى ، كالتشريع ، وقصص الغابرين ، ونبأ الغيب وغير ذلك ، فإنَّه يعرضها من خلال العقيدة والإيمان ، والجنَّة والنَّار ، والدار الآخرة ، والحساب ، والثواب والعقاب ...!

ويعرضها كذلك من خلال مقارنة بالغة مع الدنيا التي يتهافت الناس عليها ، ويركضون وراءها . يعرض المقارنة ويبيِّن هذه وخصائصها ، وتلك وخصَائصها وينذر ويبشر ، ويعظ ويذكر .

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (النساء : ١٣٤)

نعم ..! من كان يريد ثواب الدنيا من كانت الدنيا غايته ، هدفه ، أقصى أمانيه ، أبعد مراميه .... من كانت هذه هي غايته ، فليعلمْ أنَّه لن ينال من الدنيا شيئاً إلَّا بإذن اللَّه . فعند اللَّه ثواب الدنيا ، وعنده كذلك ثواب الآخرة لمن أراده .

ويؤكد القرآن الكريم هذا المعنى ، حتى تتأكَّد في قلوب المؤمنين أهداف ربَّانيَّة وغايات ربَّانيَّة . تأكيد وإلحاح ، وقرع وتذكير :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْأَخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا

﴿ وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران : ١٤٥)

هدفان مختلفان ، وغايتان متباينتان ....! ويرتبط الهدفان هنا بحقيقة ثابتة .... هي الموت . ومن يستطيع أن يفرَّ من الموت ؟ إنَّه حق وكتاب مؤجل . فمن كانت الدنيا هي غايته ، فلن يعطيه أَحد شيئاً منها إلا اللَّه ، فهو الذي يعطي من الدنيا من يشاء . ومن كانت الآخرة غايته ، فسيبلغها بمشيئة اللَّه ، فهو الذي يجزي . وسيجزي الشاكرين الذين يجعلون الدار الآخرة هي غايتهم ، هي هدفهم .

ويظل القرآن الكريم يؤكِّد هذا المعنى آية بعد آية ، في هذه السورة وفي تلك ، وفي هذا الموقف وفي ذاك . ويظل يربطه في كل مرَّة بقضيَّة من قضايا الحياة ، أو الكون ....! يربطها بكل قضايا الإنسان . يربطها أَوَّلاً بالعقيدة والإيمان . فهي جزء لا يتجزأ من عقيدة متكاملة متماسكة . يربطها بالإيمان باللَّه الواحد ، بالإيمان بالبعث ، بالملائكة والكتاب والنبيين . ثم يربطها بقضايا الإنسان في الحياة الدنيا : بالمال والكسب ، بالهمز واللمز ، بالنعيم في الدنيا ، والزكاة والصيام والعبادات كلها ، بذكر اللَّه ، بالابتلاء بالنعيم ، والابتلاء بالفقر ، بحب التراث والمال ، بالتواصي بالصبر ، بالحياة والموت ، بالتطفيف ، بالمكيال والميزان ، بتلاوة القرآن الكريم ، بالجهاد في سبيل اللَّه ، بإنفاق المال في سبيل اللَّه ، بالرحِم ، بالقربى ، بالجوار ، بالتعاون على البرِّ والتقوى ، بالعمل الصالح كلِّه ، بالأَحكام والتشريع ، بنبأ الغيب ، بالحب ، بالكلمة الطيبة ....! وعُدَّ من أَعمال الحياة الدنيا ما شئت ، وعُدَّ من قضايا الإنسان ما شئت ، تجدها كلها مرتبطة بهذه الغاية العظيمة ، والهدف الثابت المشرق : الدار الآخرة الجنَّة ، لقاء اللَّه رب العالمين . وإننا لا نستطيع أَن نورد الآيات جميعها هنا ، فإنَّها القرآن كله ، ولا نستطيع أن نعدد المواقف كلها والقضايا كلها ، فإنَّها الحياة كلها ، حتى تحوط هذه

الغاية العظيمة حياة ابن آدم كلها .

ثم يعرض القرآن الكريم هذا الهدف الثابت ، ويصوغه الصياغة الربَّانية ، وهو يقارن بين هدفين : الدنيا ومتاعها العاجل ، والدار الآخرة ، وذلك في سورة الإسراء :

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾

(الإسراء : ١٨ - ٢١)

هذه المقارنة القوية ، الحاسمة ، الفاصلة : « من كان يريد العاجلة ...» . هذا نمط من النَّاس له هدف خاص هو العاجلة . ونموذج آخر « ومن أراد الآخرة ....» ، نموذج آخر له هدف آخر هو الدار الآخرة . والنمط الأول ينال من العاجلة ، الدنيا الفانية ، بمقدار ما يريده اللَّه لمن يشاء منهم . ثم إذا هم يصلون جهنّم مذمومين مدحورين . أمَّا النموذج الثاني ، النموذج الرائع ، فلا يتحقَّق هدفه له إلَّا بشرطين اثنين مترابطين وهما :

وسعى لها سعيها ....
وهو مؤمن ...

فلا يبلغ إنسان الجنَّة إلا إذا سعى لها سعيها . ولن نجد تعبيراً أدقَّ ليشرح أو يفسّر هذا السعي . ولكن كتاب اللَّه يفصل تفصيلاً كاملاً حقيقة هذا

السعي . والشرط الآخر هو الإيمان . ولا ينفع السعي إذا لم يكن قائماً على الإيمان . فلا ينفع البذل والجود إذا كان عن عصبيَّة جاهلية ، ونزعة دنيوية . ولا تنفع الشجاعة ، ولا يجدي القتال ، إذا لم يكن سعياً للآخرة ، وتحقيقاً للإيمان . ولا ينفع الذكاء ، والقوة ، والمال ، والمنصب ،..... وكل ذلك لا يفيد إذا لم يكن سعياً للآخرة ، وتحقيقاً للإيمان ، وإخلاصاً للَّه سبحانه وتعالى ، وصدقاً في النية ....!

وتجمع آخر سورة الأنعام هذه المعاني جمعاً يربط القلوب باللَّه سبحانه وتعالى ، بالدار الآخرة ، يربط العمل كله صغيره وكبيره :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الأنعام : ١٦٢ - ١٦٥)

هكذا يحدد اللَّه سبحانه وتعالى الغاية الحقيقيَّة ، والهدف الحقيقي ، ويُبيِّن ذلك لرسوله صلى اللَّه عليه وسلم ليبلِّغه للنَّاس كافَّة ، للعصور كلها ، للأجيال كلها ، ليظل هذا الهدف الربّانيّ يُدَوّي ملء الزّمان ، دويّاً ، دويّاً ، يعلن الحق في صياغته الجامعة الربَّانية :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . جمعت كل العمل كله دِقّه وجلهُ ، ووجّهته وجهة واحدة ، إلى هناك ... إلى الدار

الآخرة .. إلى الله ربِّ العالمين، الرَّبِّ الواحد: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ الحقيقة الكونية الكبيرة، الحقيقة الثابتة، الحقيقة التي لا يستطيع أحد أن يتفلت منها أبداً.

كما ذكرنا سابقاً، فإنَّنا نورد هنا قبسات وملامح من آيات وأَحاديث. فالقرآن كله يركز على هذه الحقيقة، على هذه الغاية تركيزاً قويّاً، بإلحاح وتشديد وتفصيل، بأسلوب مباشر أو غير مباشر. وكذلك الأَحاديث الشريفة. آيات وأَحاديث، في ظلال الوحي وأَنداء النُّبوَّة، ربّت جيل الصحابة، وقرعت قلوبهم وآذانهم، وفتَّحت أبصارهم، على نحو مستمرّ دائم، ملح. فلا عجب أن أصبح كلّ مؤمن في مدرسة النبوَّة يعرف الهدف الواحد والغاية الواحدة، معرفة إيمان وتصديق، وعلم ويقين، وشعور وعاطفة، وتصوّر وأمل، وممارسة وعمل. ما أعظم الهدف ..! ما أعظم المدرسة ....! ما أعظم الجيل الذي دفعته إلى كلِّ العصور....!

ولنعش مع قبسات من الأَحاديث الشريفة لنرى عظمة الهدف، وجلاءه في النفوس، وارتباطه بالعقيدة، بالإيمان، بالعمل كله.

الرسول صلى اللَّه عليه وسلم مع أصحابه يعلِّمهم في المسجد، في ساحة الحرب، في الأَسواق، في البيت، في السفر والإِقامة، في الرضا والغضب، يعلِّمهم، ويشدّ أبصارهم إلى هذا الهدف. فهذا ابن عمر رضي اللَّه عنه يحدثنا عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم:

قال: أخذ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلَّم بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل». وكان ابن عمر رضي اللَّه عنه يقول وقد وعى الحديث وعرف الغاية: «إذا أَمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت

فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[1] .

درْسٌ فتدبُّرٌ ووعي، فإيمان وتصديق، فعمل ومبادرة وتطبيق. هذا هو الجيل الذي رباه رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم. وهذا الفهم لم يكن ليقعد بالصحابة رضي اللّٰه عنهم عن العمل. فقد شقّوا كلَّ دروب الحياة في سبيل اللّٰه لهذه الغاية، وطرقوا كلَّ أبواب الحياة في سبيل اللّٰه لهذه الغاية. فقاتلوا وجاهدوا وتاجروا، وتعلَّموا، ولم يزهدوا زُهد رهبانية، ولا قعدوا قعود الخاملين....!

وهذا معاذ بن جبل رضي اللّٰه عنه، يسأل الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم...... يسأله! فماذا يسأله....؟ إنَّه يسأله عن هدفه، عن غايته، عن هدف المؤمن وغاية المؤمن، عما يقرّب إلى هذا الهدف....! فلنسمع:

عن معاذ بن جبل رضي اللّٰه عنه قال: قلت: يا رسول اللّٰه أخبرني بعمل يدخلني الجنَّة ويباعدني عن النَّار؟ قال: «لقد سألت عن عظيم وإنَّه ليسير على من يسَّره اللّٰه تعالى عليه: تعبد اللّٰه ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجَّ البيت، ثم قال: ألا أَدلك على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماءُ النار، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثمَّ تلا ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾، حتى بلغ.... ﴿يعملون﴾، ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» قلت: بلى يا رسول اللّٰه. قال: «رأس الأَمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»، ثم قال: «ألا أُخبرك بمَلاك ذلك كله؟» قلت: بلى يا رسول اللّٰه، فأخذ بلسانه، وقال: «كف عليك هذا»، قلتُ: يا نبيّ اللّٰه، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال:

(١) رواه البخاري: كتاب الرقاق (٨١)، باب (٣)، حديث: ٦٤١٦ .

«ثكلتك أُمك يا معاذ، وهل يكبُّ الناس في النَّار على وجوههم -، أو قال: على مناخرهم - إلَّا حصائد ألسنتهم»[1].

(رواه الترمذي)[1] وقال: حسن صحيح

«**... لقد سألت عن عظيم ...**». هكذا كانت أول كلمات رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد سأل معاذ رضي الله عنه عن عظيم .... عن هدفه العظيم .... عن هدف الإيمان، وغاية الإحسان ..، عن هدف الدين وهدف الدعوة،... عن هدف الحياة ... عن الحقيقة العظيمة الكبيرة: «**أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار ...**»! لم يسأله كيف يُنمِّي أَمواله وثرواته الخاصة، ولا كيف يبلغ أَمجاد الدنيا الزائلة. سأله عن الحق .... عن الحقيقة التي لا باطل معها أبداً ... أبداً ...!

وجاءت إجابة الرسول صلى الله عليه وسلم، تربط هدف المؤمن بالإيمان والعمل كله:

تعبد الله ولا تشرك به شيئاً،

تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت،

الصوم جنَّة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل،

رأس الأَمر الإسلام.

وعموده الصلاة.

وذروة سنامه الجهاد.

ثمَّ كُفَّ عليك هذا ...

(١) أحمد: المسند ٥/ ٢٣١، الفتح ١٩/ ٢٥٨، سنن الترمذي: كتاب الإيمان (٤١). باب ما جاء في حرمة الصلاة (٨). حديث رقم (٢٦١٦).

فارتبط الهدف العظيم بالإيمان كله : تعبد اللّه ولا تشرك به شيئاً ، ثمَّ ارتبط بالعمل كله ابتداءً من الصلاة ... والصدقة ... والجهاد ... ثم الكلمة . هدف عظيم ، وغاية عظيمة ، أحاطت بالعمل كله فربطته ودفعته ووجهته . ما أعظمها من مدرسة ...! ما أشدَّ حاجتنا كلنا ... كلنا ... عَالِمُنَا وجاهلنا ، كبيرنا وصغيرنا ... إلى أن نعيد تدبّر هذا الحديث الشريف ، مرات ومرات ...! ما أشدَّ حاجتنا إلى أن نعود إلى مدرسة النبوَّة لنتعلم حرفاً حرفاً ، وكلمة كلمة ، وعملاً عملاً .

ورجل جاء يسأل كذلك ....:

عن أبي عبد اللّه جابر بن عبد اللّه الأَنصاري رضي اللّه عنهما : « أنَّ رجلاً سأل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : أرأيت إذا صليت الصلوات المكتوبات وصمت رمضان وأحللت الحلال ، وحرَّمت الحرام ولم أزد على ذلك شيئاً ، أأدخل الجنَّة ؟ قال : نعم » .

(رواه مسلم)[1]

هذا همُّه ، وهذه غايته ... الجنَّة ...! جاء الرجل يسأل . لقد جاء يسأل ويكاد سؤاله يوحي بأنَّ هذه القضيَّة هي أوَّل ما تعلَّمه في الإسلام : أَن تكون الجنَّة أكبر همه ، وغاية أمله ، وهدف سعيه . فجاء يسأل وكأَنه يعلم ، ولكنّه يطمئن ويَتَثَبَّتُ . وكأَنه لم يجد فيما تعلمه قضيَّة أَخطر من هذه القضيَّة ليسأل عنها ، ليَتَثَبَّتَ منها ، ليطمئن عليها ... !

وهكذا كانت هذه القضية همَّ المؤمنين جميعاً ، مهما اختلفت مستوياتهم ، أَو مسئولياتهم ، أَو أَماناتهم ، أَو درجاتهم ، أَو مبلغ علمهم ، أَو مقدار وسعهم . فمن هو هذا الرجل الذي لم يعرفنا الحديث عنه شيئاً ؟

(١) مسلم : كتاب الإيمان (١) . باب (٤) . حديث (١٥) .

إن الذي نظنُّه أنه رجلٌ من عامة المسلمين، نظنُّ ذلك من صيغة سؤاله وإجابة الرسول صلى اللّه عليه وسلم حيث أجاب صلى اللّه عليه وسلم على قدر وسع الرجل وطاقته، ومسؤليته وأَمانته. ولو كان وسعه أكبر من ذلك، لأجابه كما أجاب معاذ، رجل العلم والفقه ...! نقول ابتداء: من هذا الرجل في وسعه ومسئوليته، إلى معاذ رضي اللّه عنه في علمه وفقهه، كانت هذه القضية واضحة جليَّةً في صدور المؤمنين وهي تُعرَضُ عليهم جميعاً آياتٍ تتلى وأحاديث تُذَكَّر.

والحديث الجامع:

عن أبي عمرو، وقيل أبي عَمْرَةَ سفيان بن عبد اللّه – رضي اللّه عنه – قال: «قلت: يا رسول اللّه، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال صلى اللّه عليه وسلم: «قلْ: آمنت باللّه ثم استقم».

(رواه مسلم)[1]

ذلك لأن طريق الجنة صراط مستقيم ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (الأنعام: ١٥٣)

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «الدنيا سجن المؤمن وجنَّة الكافر». (رواه مسلم)[2]

أَحاديث وآيات تظل تلحُّ هذا الإلحاح حتى يثبت الهدف في النفوس، وتطمئن القلوب إلى غايتها. إدبارٌ عن الدنيا فإنها سجن وموت. وإقبال على الآخرة فإنها نجاة وحياة ... فهناك جنَّة المؤمن.

عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه قال: جلس رسول اللّه صلى اللّه

(١) مسلم: كتاب الإيمان (١)، باب (١٣). حديث (٣٨).
(٢) مسلم: كتاب الزهد والرقائق (٥٣). حديث (٢٩٥٦).

عليه وسلم على المنبر وجلسنا حوله ، فقال : « إنَّ مما أخاف عليكم بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » . (متفق عليه)[1]

تحذير وتنبيه ، وتوعية ووعظ ، لما قد يفتن المؤمن عن غايته .

فَعنه أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال : « إنَّ الدنيا حلوة خضرة ، وإنَّ اللَّه مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون . فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » . (رواه مسلم وابن ماجه)[2]

ويظلّ المنهاج الربَّاني يحدِّد هدف المؤمن ، هدف الحياة كلها ، بين ترغيب وترهيب ، وتعريف وتحديد ، وتحذير وتوعية ، حتى تستكمل الصورة كل أجزائها .....:

عن أنس رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النَّار يوم القيامة ، فيصبغ في النَّار صبغة ، ثمَّ يقال : يا ابن آدم ، هل رأيت خيراً قط ؟ هل مرَّ بك نعيم قط ؟ فيقول : لا واللَّه ، يا ربّ ! ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنَّة فيصبغ صبغة في الجنَّة ، فيقال له : يا ابن آدم هل رأَيت بؤساً قط ؟ هل مرَّ بك شدة قط ؟ فيقول : لا واللَّه ، ما مرَّ بي بؤس قط ، ولا رأيت شدَّة قط » .
(رواه مسلم)[3]

وعن المستورد بن شدَّاد رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « واللَّه ! ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أُصبعَهُ

---

(١) مسلم : كتاب الزكاة (١٢) ، باب (٤١) . حديث (١٠٥٢) .
(٢) مسلم : كتاب الذكر والدعاء (٤٨) . باب (٢٦) . حديث (٩٩/٢٧٤٢) . وابن ماجه : كتاب (٣١) . باب (١٩) . حديث (٤٠٤٨) .
(٣) مسلم : كتاب صفات المنافقين (٥٠) . باب (١٢) . حديث (٢٨٠٧) .

في اليَمّ فلينظرْ بم يرجع ». (رواه مسلم)[1]

هذه هي الدنيا ....! وكثير من الناس يتخذها هدفاً ، ويجعلها غاية ، ويحبها الحبَّ الكبير فتفتنه عن الحقيقة المشرقة ، والغاية الصادقة ، والنعيم المقيم ...! فيهلك في فتنته . إنَّ الدنيا متاع زائل ، مال ... ونساء .... ورياش ، وخيول ... وحرْث ....! وكله زائل .

خُلق الإنسان ليكون عبداً للّه الواحد الأَحد ، ربّ كل شيء . ولا يحق للإنسان أن يكون عبداً لغير اللّه أبداً . إنه يشقى عندئذ ويهلك :

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : « تعس عبد الدينار والدرهم ، والقطيفة والخميصة ، إن أُعطي رضي ، وإن لم يعط لم يرضَ »[2] .

نعم ...! تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة . تعسَ هذا العبد ، لأنه كان يجب أن يكون عبداً للّه الذي لا إله إلا هو ، فيكون بذلك هو سيد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة ، يجعلها كلها في طاعة اللّه ، في سبيل اللّه ، عن إيمان وعلم ، وعمل وبذل فيسعد عندئذ ولا يتعس .

وتظلُّ الجنَّة هدف المؤمن في كل أَحواله ، فهكذا تعلَّم في مدرسة النبوة ، وهذه هي الحقيقة التي تعلمها من منهاج اللّه – قرآناً وسنَّة –. فترى الرجل مع ختام صلاته ، يستجمع كلَّ قواه ، ويدفع كلَّ آماله ، ويجمع كل أَمانيه ، في كلمات قليلة تشدّه إِلى هدفه وغايته ، كلّ ذلك ببادرة منه ، على فطرة الإيمان ....! ففي سنن أبي داود أنّ النبيّ صلى اللّه عليه وسلم قال لرجل : **« كيف تقول في الصلاة ؟ » قال : أتشهّد ، وأقول :**

(١) مسلم : كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٥١) . باب (١٤) . حديث (٢٨٥٨) .

(٢) رواه البخاري . وصحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) (ط : ٣) ، حديث : (٢٩٥٩) .

« اللهم إني أسالك الجنّة ، وأعوذ بك من النار . أما إنّي لا أحسن دندنتك ودندنة معاذ » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « حولها ندندن »[1] .

وهكذا المؤمنون كلهم ، ينصبُّ دعاؤهم ، ورجاؤهم ، كيفما صاغوه ، ينصب في طلب الجنّة .... والسعي لها ... وبلوغها . إنَّها هدف وغاية ، وأمل ورجاء ، وشوق ودعاء ، وسعي وابتلاء . الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومعاذ بن جبل ، والمؤمنون كلهم ، يدندنون حولها .....! هدف واحد وغاية واحدة ، لأُمة واحدة ، لها دين واحد ، تعبد ربّاً واحداً لا تشرك به شيئاً .

وتمتد أدعية المؤمنين في كلِّ صيغها تحمل صدق الرجاء ، وقوة الأمل وشدَّة الشوق .... إلى الجنَّة .

هذا الرجاء ، وهذه الغاية ، كما ذكرنا مرتبطة بالإيمان والعقيدة . إنَّها ليست غاية مفلتة تائهة لا أصول لها . إنَّ أصولها التوحيد للَّه رب العالمين ، والعبوديَّة المطلقة الكاملة له من الإنسان . وهذه الغاية تتجاوز حدود الدنيا ، وتمتد إلى الدار الآخرة .

أمَّا في الدنيا ، فقد حدَّد القرآن ، وحدَّد منهاج اللَّه ، مهمَّة الإنسان ، التي خلقه اللَّه سبحانه وتعالى لأجلها . وهذه المهمة مرتبطة بالهدف الثابت ، والغاية المثلى ، والرجاء الأكبر ..... الجنة .

وفي كتاب اللَّه ، نجد أنَّ هذه المهمة قد عُرِضت على أربعة صيغ . كل صيغة تحمل معها ظلالها الممتدة ، وإيحاءاتها الواسعة .

الأولى : العبادة .

والثانية : الأمانة .

(١) رواه أبو داود .

والثالثة : الاستخلاف .

والرّابعة : العمارة .

وكلها تصبّ في معنى العبادة ، ولكنَّ كلَّ صيغة تحمل ظلّاً جديداً .....!

أما العبادة فقد نصّ عليها القرآن الكريم :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾
(الذاريات : ٥٦ - ٥٨)

وكذلك قوله تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة : ٢١)

فتصبح حياة الإنسان كلها عبادة للّٰه ، في كلّ حركة من حركاتها ، وسكنة من سكناتها . يصبح طلبه للرزق ، وسعيه في الخير ، وزواجه ، وتربيته لأولاده ، وعلاقاته مع الناس ، ووظيفته ، وخطوه ، ونومه ، وقيامه ، وسفره ، كل ذلك إذا صدق به النيّة وخضع لأحكام اللّٰه ، كل ذلك يصبح عبادة ، تحقّق الغاية التي خلق اللّٰه من أجلها في الأرض ، إذا استوفت صدق النيّة وسلامة التطبيق لمنهاج اللّٰه .

أما الأمانة :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ

ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴾

(الأحزاب : ٧٢ ، ٧٣)

لقد جعل اللّٰه الحياة على الأَرض أَمانة . ولو أراد سبحانه وتعالى خلاف ذلك لقضاه وأمضاه . ولكنّ كلمة اللّٰه سبقت ، وإرادته كانت على هذا النحو . وإرادة اللّٰه ومشيئته ، دائماً ، هي إرادة العلم والحكمة والعدل والحق . لقد أراد اللّٰه أن تكون الحياة على الأرض أمانة يحملها الإنسان . فأصبحت مهمة الإنسان إذن أن يؤدي الأَمانة ، ويحقّق العبادة . فمن أدّى الأمانة ، وصدق العبادة ، فإنّ اللّٰه يتوب عليه ويغفر له . وأما من نافق وأشرك فقد استحق العذاب من اللّٰه ، وكان ظلوماً جهولاً بتركه الأمانة التى حملها . وقد يختلف الناس في تحديد هذه الأَمانة . واللّٰه أعلم بحقيقة مراده ، ولكننا ، حين نحاول أن نربط آيات اللّٰه في قرآنه على تناسقها وتكاملها ، فإننا نرى أَنَّ أَقرب ظلّ من ظلال معنى الأمانة ، هي العبادة التي خُلق لها الإنسان لأَدائها ، وهي تطبيق منهاج اللّٰه ، على تكامله وتناسقه ، في واقع الحياة . فممارسة منهاج اللّٰه في واقع الحياة البشريّة هي الأمانة التي حملها الإنسان . ونؤكد ثانية أنّ هذا الاستدلال ظِلّ من الظلال ، وأَنّ اللّٰه أعلم بحقيقة مراده . ولكنه ظِلٌّ نستدلُّ عليه بسائر الآيات والأَحاديث . والآية الثانية من الآيتين السابقتين ، توحي كذلك بهذه الظلال . ذلك أَنّ حساب الناس يوم القيامة سيكون على أَساس الإيمان في القلوب ، والعلم الذي وعته الصدور ، على أساس منهاج اللّٰه :

﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (ق : ٤٥)

﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ

﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾
(الأحزاب : ٧٣)

وأما الاستخلاف :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾
(البقرة : ٣٠)

فهي مشيئة اللّه التي قضت أن يكون الإنسان خليفة في الأَرض. أمّا معنى هذا الاستخلاف فإنّ منهاج اللّه يوضحه ويضع كل تفاصيله.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾
(الأنعام : ١٦٥)

خلائف الأرض ....! ورفع بعضكم فوق بعض درجات ......! إنّها سنّة اللّه في هذه الحياة، وحكمته، ومشيئته، وإرادته، وهي مشيئة ماضية، نافذة، لا يعطلها أهل الفلسفة والجدل.

كذلك :

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾
(يونس : ١٤)

لننظر كيف تعملون ....! ثم يكون الحساب والجزاء :

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾
(الأحزاب : ٧٣)

وكذلك :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ (يونس : ٧٣)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾

(فاطر : ٣٩)

وهكذا ... تلتقي معان وظلال : العبادة ، والأمانة ، والاستخلاف ، وتصبّ كلها في مجرى واحد ، يحدّد مهمّة الإنسان في هذه الحياة الدنيا ، ليتحدّد من خلال عبادته ، وأدائه للأمانة ، وقيامه بشروط الاستخلاف ، ليتحدّد من خلال ذلك كله ، أهو إلى الجنّة أم إلى النّار ، بمشيئة ربّانيّة عادلة ، حكيمة ، لا تظلم أبدًا .

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ (يونس : ٤)

هناك ، إذن ، تنتهي الحياة الدنيا : إلى الله مرجعكم جميعاً ..... وتتحقّق الغاية : ليجزي الذين آمنوا .....

فالتقت كل التعابير ، والصياغة ، لتوحي بهذه الظلال ، ولتبيّن هذه المعاني ، ولتحدّد مهمّة الإنسان في الحياة الدنيا ، تحديداً مفصلاً ، لا يترك فرصة لمرتاب ، أو مضلّ ، أو منافق . وتتأكد الظلال من خلال هذه الآيات وكثير غيرها ، من أنّ مهمّة الإنسان في الحياة الدنيا هي ممارسة منهاج الله الذي أنزله على رسله وأنبيائه ، وخُتِمَ برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ،

خاتم الأَنبياء والمرسلين، ديناً قِيماً، كاملاً، مفصَّلاً، بيّناً، حقّاً كله، نقول: ممارسة منهاجِ اللّٰه في واقع الحياة ممارسة كاملة، كلٌّ قدرَ وسعه وطاقته، ومسئوليّتِه وأَمانته.

من هذه الآيات الكريمة يتضح لنا معنى «الاستخلاف» ومعنى «خلافة الأَرض» وذلك بأن يعمر الإنسان الأرض جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، وخلفاً بعد سلف، كما ذكر ابن كثير في تفسيره. ولا تتمُّ عمارة الأَرض كما يريدها اللّٰه سبحانه وتعالى إلا بممارسة منهاجه، وإِقامة دينه، كما سنفصل ذلك فيما بعد.

وتبيّن الآية الكريمة في سورة هود الصيغة الرابعة - العمارة - لمهمة الإنسان:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (هود: ٦١)

وقضى اللّٰه بحكمته ومشيئته، أَن يقوم الإِنسان بمهمته هذه، بمهمته التي خلق من أَجلها، والتي عبر عنها القرآن الكريم بهذه التعابير الربّانية الأَربعة: العبادة، الأَمانة، الاستخلاف، والعمارة. أَن يقوم بها من خلال ابتلاء وتمحيص، واختبار وتدقيق، حتى لا يبقى لأَحد حجّة، ولتقوم عليه الحجة ...:

﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ (الملك: ١، ٢)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ

دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴾ (الأنعام: ١٦٥)

﴿ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴾ (الإنسان: ٢)

﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٥)

﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾

(المائدة: ٤٨)

﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴾ (الكهف: ٧، ٨)

آيات بينات، تعرض الصورة الواضحة الجليّة. وما هذه الآيات إلا قبسات، ومنهاج اللَّه يعرض الابتلاء والتَّمْحِيص من كل جوانبه حتى يتكامل، ويستوفي جميع عناصره. والآية الكريمة من سورة المائدة تبين بجلاء أَنّ مهمة الإنسان أن يلتزم منهاج اللَّه الذي أَنزله على رسله وأنبيائه، حتى جاء محمد عليه الصلاة والسلام، وأُنزل عليه الكتاب بالحق مصدّقاً لما سبقه من الكتب ومهيْمِناً عليها، لأَنّه جاء بالكتاب الأَوفى الكامل،

وأصبح هذا المنهاج هو وحده الذي يجب أن يطبق : « **وأَن احكم بينهم بما أنزل اللّٰه ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ...** » وتمضي الآية الكريمة لتبين أن الابتلاء هو فيما آتاهم اللّٰه ... « **ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ....** » فهنا هو موضع الابتلاء ...، ممارسة منهاج اللّٰه ....! فاستبقوا الخيرات ....! فهذا هو موضوع الابتلاء، وهو ميدان المنافسة والسباق ... إلى كلمة الحق ودين الحق . فلا يحرف كتاب أُنزل ، ولا تبدل آيات من عند اللّٰه . ولو حافظ أهل الكتاب على ما أنزل إِليهم دون تحريف ، لوجدوا أَنّ دينهم يأمرهم أن يتبعوا محمداً صلى اللّٰه عليه وسلم ، وأَن يمارسوا منهاج اللّٰه الذي أنزله إِليه بالحق مصدقاً لما سبقه ومهيمناً عليه .

وتمضي مشيئة اللّٰه التي اقتضت أن يُبْتَلَى الإنسان في هذه الحياة الدنيا . والآية الأُولى ربطت الابتلاء بالموت والحياة ، والثانية بتفاوت الناس في درجاتهم وما رزقهم اللّٰه ، والثالثة بالشرّ والخير فتنة ، فما تركت شيئاً من أُمور الدنيا إِلا ربطته بسنّة الابتلاء ، والرابعة بممارسة منهاج اللّٰه ، والخامسة بالزينة التي جعلها اللّٰه على الأرض ليبلوهم أيهم أحسن عملاً ...! وتمضي الآيات الكريمة تفصّل سنّة اللّٰه في الابتلاء تفصيلاً واسعاً ...!

إِنّها عبادة وأَمانة واستخلاف ، إِنها تمضي من خلال ابتلاء وتمحيص ، وذلك كله يهدف إِلى أمر كبير وأكبر من كل أمر آخر ، أَمر خطير ... فجنّة ... أو نار .!

اللهمّ إِنا نسألك الجنّة ونعوذ بك من النار .....!

هذا هو الهدف العظيم ، وهذه هي الغاية الكبيرة ، للمؤمن في حياته ، وللقاء المؤمنين في نهجه ومسيرته . هدف عظيم يرتبط بحقيقة الحياة ، وسنن اللّٰه ، ورسالته ، وجوهر الإيمان . هدف عظيم ... الجنّة ... يرتبط

بحقيقة العبادة التي خلق اللّه الإنسان لأَجلها ، بحقيقة الأَمانة التي حملها الإنسان في الحياة الدنيا ، وبمسئولية الاستخلاف الذي أراده اللّه لآدم عليه السلام وذريته . إنه ارتباط عقيدة ودين ، وارتباط إيمان وعلم ، وارتباط نهج وعمل ....! إنه ارتباط تناسق وتكامل .

الجنّة ....! الدار الآخرة .....! لقاء اللّه ....! هي عقبى الصدق في العبادة ، والوفاء بالأمانة ، والقيام بالاستخلاف .

حين نعرض هذا التصور من خلال : آيات بينات ، وأَحاديث شريفة ، ونهج مدرسة النبوة ، وممارسة تلامذتها في الواقع البشريّ ، حين نعرض هذا ، نعني أننا نحتاج إلى إعداد المؤمن ، والأُمّة ، إعداداً واعياً مؤمناً ، ليكون هذا هو الهدف الثابت كما كان في مدرسة النبوّة . ليكون الهدفَ الأَوّل والأكبر ، والهدف الأوسع والأَثبت . إننا نحتاج إلى الجيل الذي يتعلق كله بالجنّة ، تعلق إيمان ويقين ، وعاطفة وشعور ، وفكر وتصور ، وذكر وعلم ، وممارسة وعمل ، وجهاد وبذل . إننا نريد أن يكون هذا الهدف واضحًا كل الوضوح ، لا يداخله شك أو ضعف ، يظل مع العمر كله ، مع المواقف كلّها ....!

واللّه سبحانه وتعالى هو الذي يقذف الإيمان في قلوب من يشاء من عباده ، وهو الذي يثبّتها على الحق واليقين ، والهدف المبين . ولكنّ هذا لا يتعارض مع مسئولية الإنسان نفسه في الدعوة ، والتربية ، والإعداد ، والمراقبة ، والتدريب . إنها مسئولية تمثل جزءاً من العبادة والأَمانة والاستخلاف ....!

ومع كل عصر ، تظلّ مسئولية المؤمنين أَنفسهم ، أَن يضعوا القواعد النامية المتجدّدة ، للدعوة ، والإعداد ، والتدريب ، حتى يكون هذا الهدف جليّاً للأَبصار ، نقيّاً في القلوب ، يقيناً في النفوس ، يحمل معه قوة الحوافز ،

وعزيمة المبادرة، وجمال الصبر، وحلاوة الرجاء، في لقاء المؤمنين، في درب طويل... إلى الجنّة ...! ذلك لمن يريد له اللّٰه الهداية والنّور.

وهذه القواعد التي يضعها المؤمنون مع كل عصر، لتكون نامية متجدّدة، يجب أَن تنبع من منهاج اللّٰه قرآناً وسنّة، لتملأَ حاجة الواقع البشريّ في هذا العصر أَو ذاك، وتلبّي متطلباته المتجددة، حين نفهم الواقع البشريّ دائمًا من خلال منهاج اللّٰه، فمنهاج اللّٰه هو المنهاج الوحيد الذي يلبي حاجة العصور كلها.

ووسائل الإعداد والتدريب، والتربية والمراقبة، لتثبيت هذا الهدف في القلوب، تجري كلها جرياً ليّناً هادئاً، ثابتاً مطمئناً، مع آياتٍ، وأَحاديث، وسيرةٍ، ونماذج، وقدوة. ولكنها لا تتحول إِلى فلسفة تديرها الأَرائك، وجدل تموج به الندوات. إِنّها إِيمان ويقين يقطع الفلسفة والجدل. وإِنّها علم وعمل، وجهد وجهاد، يقطع اللهو والكسل. إِنها ميدان عمل وجهاد، ميدان ممتدّ إِلى يوم القيامة.

إِنّ هذا الهدف الثابت للقاء المؤمنين، يحمل معه الغذاء والريّ لسائر الأَهداف الثابتة والأَهداف المرحلية. وتظلّ هذه الأَهداف مرتبطة به، متصلة به، حتى تظلّ أهدافًا حيّة، عاملة، نامية. فإذا انقطع الارتباط، انقطع الغذاء، وتوقّف الرّيّ، وتتحول إِلى اصفرار بعد خضرة، وجفاف بعد بَلال، فتذبل وتموت وتسقط، أو تتحول إِلى شعارات خادعة، ورايات كاذبة، ويصبح ضجيجها هياج فتنة وموجة ضلال.

إِنّ هذا الهدف الرئيس الهدف الثابت، الهدف الأُسمى، الذي يتجه إِليه لقاء المؤمنين، إِلى الجنّة، إِلى الدّار الآخرة، إِن هذا الهدف بكل خصائصه الإِيمانية، يحدّد مع مسيرة لقاء المؤمنين، ويوفّر مع كل خطوة أُمورًا هامّة:

أولاً: يحدّد سائر الأَهداف الثابتة، والمرحليّة، لتظلّ مرتبطة به.

ثانياً: يمدّ هذه الأَهداف بالغذاء والريّ، والقوة والحياة.

ثالثاً: يوفّر للمؤمن، وللجماعة، وللأُمّة، وللإنسانية، جميع الحوافز، والدوافع، والمبادرات.

رابعاً: يجمع الجهود كلها، ويصبُّها في مجرى واحد، حيث تلتقي على تناسق وتكامل، وعلى قوة وتعاون. فلا تتبعثر الجهود، ولا تتمزّق.

إنّ هذا الهدف، هدف ربّانيّ، حدده اللّه رب العالمين، وبيّنه، وفصّله، ورسم نهجه وسبيله، حتى لا تكون للناس على اللّه حجة أبداً.

إنّ هذا الهدف، هدف ربّانيّ، لم يحدده أحد من البشر، ولا جماعة من الجماعات، ولا سلطان من السلاطين. إنّه هدف ربّانيّ يحمل خصائص ربّانيّة، لتتَّجِهَ البشريّة كلها إليه، لتتجه الإنسانية كلها إليه. فهناك، ولأجله، تبذل الجهود، وتندفع الخُطى، ويحتدم السّباق، ويعظم التنافس، من أَجل هذا الهدف العظيم، الهدف الربّانيّ .....! الهدف الأسمى.

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ (المطففين: ٢٦)

إنّ هذا الهدف الربّانيّ، يحمل هذه الخصائص كلها، ليظل هو الشغل الشاغل للمؤمن، هو الذي يملأ قلبه، ويحرّك عزيمته، ويدفع خطوَه، ويجري في دمه، وتخفق به أضلاعه وجوارحه. تظلّ أبصاره معلّقة هناك .... هناك .... في الجنّة، في جميع حركاته وسكناته، في قيامه وقعوده وعلى جنبه، ليرسم له نهجه، ويندّي له رجاءه، ويهيج له عاطفته.

وخيرُ ما نؤكد به هذه الصورة، هو أَن نعيش مع آيات بيّنات من سورة القصص، وهي تعرض لنا حقيقة هذا الهدف الربّاني العظيم، وتقارن هدفًا

بهدف، وغاية بغاية، ومسعى بمسعى، وجزاء بجزاء. نعيش مع هذه الآيات، ونحن نعلم أنها قبسات من قرآن، والقرآن كله، يعرض هذا الهدف، هذه الحقيقة، لتثبت في النفوس، وتغرس في القلوب:

﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

(القصص: ٧٦ - ٨٣)

مع كل كلمة لا بدّ من وقفة تأمل وتدبّر ، ومع كل آية لا بد من وقفة وخشوع ، ومع الآيات كلّها صورة جليّة واضحة ....، لهدف جليّ واضح ... الدار الآخرة .

..... لا تفرح إِنّ اللّه لا يحب الفرحين .

وابتغ فيما آتاك اللّه الدار الآخرة ....

قال إنّما أوتيته على علم عندي ....

قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ....

وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب اللّه خير لمن آمن وعمل صالحاً .... فخسفنا به وبداره الأرض .....

وأصبح الذين تمنّوا مكانه بالأَمس .....

(تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأَرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) .

وتصبح الجنَّة هنا ثواباً من عند اللّه :

(....ويلكم ثواب اللّه خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقّاها إِلّا الصابرون) .

والدار الآخرة يجعلها اللّه للذين لا يريدون علوّاً في الأَرض ولا فساداً ، وتكون هي العاقبة للذين اتقوا ....!

اللهم إنا نسألك الجنّة ونعوذ بك من النار ....!

ومع كل سورة من سور القرآن الكريم ، يكاد يبرز هذا الهدف بروزاً

قوياً: هدف الدعوة الإسلامية، هدف لقاء المؤمنين، هدف الجهاد في سبيل اللّه، هدف العمل الصالح كله، حتى لا يكاد يذكر العمل الصالح إلّا مقترناً بالجنّة ونعيمها.

ويؤكّد القرآن الكريم هذا الهدف، مع كل عرض، بإيحاءات جديدة، وظلال جديدة، حتى يستوفي عرضه من كل جوانبه، من كل زواياه، من كل نواحيه، فإذا هي صورة مشرقة، متكاملة، متناسقة، متماسكة، صورة مشرقة لهدف مشرق.

وفي سورة الصافات يأتي العرض لهذا الهدف العظيم، بأسلوب الحضّ والإثارة، والدفع والترغيب، لينطلق المؤمن بقوة وعزيمة، إلى هدفه العظيم. ولنستمع إلى الآيات في سورة الصافات لتعرض الهدف ذاته، من زاوية جديدة، وبأسلوب جديد:

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝٤١ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ۝٤٢ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٤٣ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (الصافات: ٣٩، ٤٤)

ثم تمضي الآيات الكريمة تصف الجنّة ونعيمها حتى تختم ذلك بالآيات التالية:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾
(الصافات: ٦٠، ٦١)

إذن هذا هو الهدف. إنّ هذا لهو الفوز العظيم. إنّه الفوز الذي يستحق أن يعمل العاملون لبلوغه. (**لمثل هذا فليعمل العاملون**).

وتأتي هذه الحقيقة العظيمة بعد أن عرضت الآيات السابقة نعيم أهل الجنّة، وعذاب أهل النار، بتصوير مليء بالحركة والإثارة، واللهفة والخشية، والفرحة بالنجاة:

﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾
(الصافات: ٥٦، ٥٧)

ويعرض القرآن الكريم هذا الهدف بأساليب متعدّدة، كما ذكرنا، حتى تستكمل الصورة كل عناصرها، وحتى تبلغ أعظم مداها في تأثيرها على النفوس التي أراد الله لها الهداية والنجاة. ومما يزيد هذا الهدف وضوحاً، ويزيده عمقاً في قلب المؤمن، ما يعرضه القرآن الكريم من وصف للنار وعذاب أهلها، بالمقابلة لوصف الجنّة ونعيمها.

ونعرض هذا الهدف هنا، ليكون الهدف الحقيقيّ الأوّل للمؤمن. ليملأ قلبه وفكره، وعاطفته. ليكون الهدف الذي ينشأ عليه، مع سائر أهداف لقاء المؤمنين مترابطة، متناسقة فيما بينها. ينشأ عليها المؤمن منذ طفولته نشأة يرعاها الإيمان ويغذيها الإحسان، ويحميها القرآن، آيات بيّنات تملأ الصدور، وتجري في العروق.

إننا لا نعرضه هنا، ليكون هتافاً تبحّ به الحناجر، أو تُملأ به المجالس، أو تزيّن به الكتب. ولا نعرضه ليكون شعاراً يتحرك به اللسان، ويستظل به كل وسنان، ويحتمي به كلّ ضعيف أو متعب. إننا نعرضه مع سائر الأهداف لتكون الأهداف حقيقة التربية والإعداد، وشغل القلب والفؤاد، ومصابيح مع كلّ زناد ومشاعل تضيء الدرب والوهاد. ولتكون بعد ذلك صرخة الميدان، ووثبة الفرسان، وخفقة الجنان، وفرحة الإيمان، ولحن قصيد، وزغردة نشيد ....!

ذلك لأنّ الجيل الذي ربّته النبوّة، في رعاية الوحي، نشأ وهذا الهدف

العظيم يشدّ أبصاره، ويملأ قلبه، ويجري مع دمه في عروقه. لقد تعاونت كلّ وسائل البناء والإعداد على إبراز الهدف إلى مكانه اللائق، وموقعه الحقيقي. لقد ظلّت الآيات تقرع الآذان والقلوب، وظلت مجالس الرسول صلى اللّه عليه وسلم تغذي الرغبة إلى الجنّة، والرهبة من النار. وأخذ الأدب الإسلامي آنذاك ينظم اللحن، ويرجع الأنشودة، إعلاءً لهذا الهدف. لقد أصبح هذا الهدف محور الشعر، وطرب الشاعر في الميدان، وعلى أبواب الجنّة. فتكاتفت الوسائل كلها لتثبّت هذا الهدف في القلوب، وتنميه في النفوس، من خلال إيمان ويقين، وعقيدة ونهج، لا ينفصل عنها، ولكن تتماسك كل أجزائها تماسك تناسق وتوثيق: الإيمان والعقيدة، الدعوة، التربية والبناء، السياسة، الاقتصاد، الأدب بكل ميادينه، سائر الأنشطة والمجالات .....!

فاسمع إلى خبيب بن عدي الأَنصاريّ، وهو مصلوب، والرماح تندفع لتدق جسده، فاستمع إليه، وهو يرفع نشيد الجنّة:

لقد جَمَّعَ الأَحزَابُ حَوْلي وأَلَّبُوا ... قَبَائِلهم واسْتَجمعوا كُلَّ مَجمعِ
فَوَاللّه ما أَرجُو إِذا مِتُّ مُسْلمًا ... على أَيّ جَنْبٍ كان في اللّه مَضْجَعي
فلستُ بمبدٍ للعدوِّ تخشُّعاً ... ولا جزَعاً إنّي إلى اللّه مرجعي

نعم، إلى اللّه مرجعه ....، إلى الجنّة... إن شاء اللّه ....!

وعمير بن الحمام، يلقي بالتمرات من يده، وينشد:

ركضًا إلى اللّه بغير زاد ... إلَّا التقى وعمل المعاد
والصبر في اللّه على الجهادِ ... وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبرّ والرّشاد

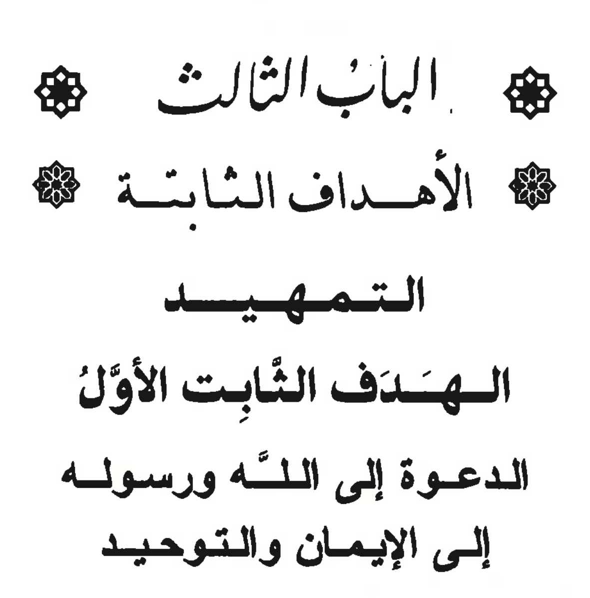
واسمع النغمة الحلوة، واللحن الخالد، من جعفر بن أَبي طالب، في

غزوة مؤتة ، بين الدماء ، في طريقه إلى الجنّة :

يا حبّذا الجنّة واقترابها طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها
علي إنّ لاقيتها ضرابها

ويظلّ نشيد المؤمنين إلى الجنّة ، مدوياً أبد الدهر ، مع قافلة الإيمان وموكب النور : آيات تُتلى ، وأَحاديث تُذَكّر ، ولحناً عبقرياً في أَدب وقصيد .

* * *



الباب الثالث

الأهداف الثابتة

التمهيد

الهَدَف الثَّابِت الأوَّلُ

الدعوة إلى اللَّه ورسوله إلى الإيمان والتوحيد

• تمهيـــد •

إنّ الهدف الأسمى، الهدف الأكبر.. الجنّة، جعل اللّه بمشيئته سبيله عن طريق العبادة والأمانة والاستخلاف، لتتحقق هذه المعاني كلها في حياة المؤمن، عن طريق الابتلاء والتمحيص، كما عرضنا سابقاً. وهذا الهدف الأول، هو الذي يغذي الطريق كله بالرّيّ، ويمدّه بالقوّة. وهو كذلك يعين على تحديد الأهداف الثابتة والمرحليّة، على الطريق الطويل، لمسيرة لقاء المؤمنين، لتظلّ هذه الأهداف مرتبطة بالهدف الأول والغاية الكبيرة.

لا بدّ إذن للقاء المؤمنين من أهداف ثابتة مشرقة، تقوده على دربه الطويل إلى الهدف الأول، إلى هدفه العظيم، إلى غاية حياته، وجوهر وجوده، إلى الجنّة.

وأهداف الفرد، أو الأفراد، قد تلتقي مع أهداف لقاء المؤمنين، أو مع بعضها. ذلك لأن وجود أفراد هنا وهناك على إيمان، ودرجة من العلم، أمر نراه في واقع حياة المؤمنين، على الدرب الطويل. إلّا أننا لا نجده أبداً في حياة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، أو في حياة الخلفاء الراشدين. قد نجده في عصور تلت، أو في واقعنا اليوم.

ومن العبث أن تلمّ جميع الأفراد من هنا وهناك، ما دامت خصائص لقاء المؤمنين غير مستقرّة، وما دامت أهدافه غير جليّة. فإذا صدقت الخصائص الربّانيّة للقاء المؤمنين، وإذا أشرقتْ أهدافه الربّانيّة، فعندئذ تُشَدُّ الأبصار، وتهفو القلوب وتجتمع كلها على هدف واحد، وغاية واحدة، ودرب واحد. فتتشابك الأيدي، وتتحد السواعد، وتصبّ الجهود كلها

في مجرى واحد ، مجرى الخير والبركة ، مجرى الإيمان والصدق .

إذن ، يجب أَن تتضح الأَهداف كلُّها ، لتكون مرتبطة بالعقيدة ، حتى يهرع الأَفراد من هنا وهناك ، إلى موكب النور ، ولقاء الخير ، لقاء المؤمنين ، على الإيمان والعهد ، وعلى خصائص متميّزة تتحقق في واقع الحياة ممارسة صادقة ، ورابطة فريدة .

ومع هذا كله ، حين تبرز خصائص اللقاء ، وتشرق أَهداف الأُمّة ، يَظل المؤمنون يصبُّون جهودهم البشريّة ، من خلال تلك الخصائص ، متجهة إلى تلك الأَهداف ، على درب واحد . ولكنها تظل جهوداً بشريّة تحمل خصائص الجهد البشريّ ، وتمضي على سنن اللّه الثابتة من خلال ابتلاء وتمحيص . فسيقع الخلاف لأَنّ الخلاف بين الناس سنّة اللّه في الأرض[1] . ولكنّ الخلاف لن يتحوّل إلى شقاق وفتنة ، إذا صدق الإيمان والعلم ، وعلا على الشهوة والهوى . وسيقع الناس في أخطاء ولكنّ الأخطاء تصبح دروسًا تزيد الخبرة والمران ، وتصحح المسيرة[2] ....! ويصحح المؤمن خطأه ، ويرفع خلافه .

ومع كل مرحلة من مراحل مسيرة لقاء المؤمنين ، ستبرز الحاجة إلى تحديد الأَهداف الجديدة ، تحديداً إيمانيّاً ، على ضوء الواقع الجديد .

إننا هنا نحدد من الأَهداف ، ما نراه في هذه المرحلة ، على أساس من منهاج اللّه ، والواقع البشريّ . ولكننا نحددها في خطوطها الواسعة ، وتبقى دائماً هي مهمة الأَجيال لتضع التفاصيل والدقائق ، بالقدر الذي يحمي المسيرة ، ويصون الجهود .

---

(١) يراجع باب « الاختلاف » في كتابنا الشورى وممارستها الإيمانية - ط ٣ .

(٢) يراجع باب « المؤمنون بين الخطأ والصواب » في المرجع السابق .

إنّ الهدف المبيّن في الباب السابق هو الهدف الأسمى والغاية الكبرى. إنّه الهدف الذي يربط الحياة الدنيا بالآخرة. وسنأتي الآن على أهداف ثابتة، يسعى إليها المؤمن ولو كان فرداً، والجماعة والأُمّة، لأنّها تمثل في لقاء المؤمنين، وفي دين الله، درباً منيراً إلى الجنّة، طريقاً واضحاً، صراطاً مستقيماً. إنها أهداف ثابتة ممتدّة، وأهداف مشرقة، ولكنها كُلُّها مرتبطة بنهج وخطة، بصراط مستقيم.

إنّ التخلي عن هذه الأَهداف أو عن بعضها يجعل الطريق إلى الجنّة مضطرباً، تحفّه المخاطر المُهلكة، وتقف فيه العوائق الشاهقة، ويبهت النور على الدرب، كلما تخلّى المؤمن عن هدف من هذه الأَهداف. فهي مشاعل الدرب ومنارات الطريق.

لا يعقل أَن ينهض لقاء المؤمنين، أَو أن يمضي، ليكوّن أُمّة واحدة كما أرادها الله، دون أَن تكون هنالك رابطة خاصة متميزة لهذا اللقاء المتميز، والأُمّة المتميزة، رابطة تتحقّق عمليّاً في الواقع البشريّ، ودون أن تكون هنالك خصائص متميّزة كذلك لهذا اللقاء المتميز والأُمّة المتميزة، ودون أَن تكون هنالك عقيدة وإيمان يجمع ذلك كله، ودون أَن يكون هنالك عهد نابع من العقيدة والإيمان، حافظ للرابطة والخصائص، ودون أن تكون هنالك أهداف متميّزة، أهداف ترسم الدرب، وتنير السبيل، وذلك كله: الرابطة والخصائص، والإيمان، والعهد، والأَهداف، وذلك كله يكون في جوهر العقيدة ....!

* * *

الفصل الأول

الهدف الثابت الأول

الدعوة إِلى اللّه ورسوله صلى اللّه عليه وسلم

إِلى الإِيمان والتوحيد

إن لفظة «الدّعوة» تحمل ظلالاً كثيرة ....! وعندما نتتبّع معانيها وظلالها في كتاب اللّه وسنّة نبيّه ، وفي سيرة محمد صلى اللّه عليه وسلم ، فإننا نجد أن هذه المعاني والظلال تكاد تجمع العمل الإِسلامي كله . إِنها تجمع البلاغ والبيان ، والجمع والبناء ، والتربية والتكوين ، والجهاد ... إِلى غير ذلك من مسئوليات العمل الإسلاميّ ، أو الدّعوة الإسلاميّة .

ويمكن كذلك أن نحصر معنى «الدعوة» في أمر البلاغ والتبيين ، وما يرتبط بذلك من عمل مباشر .

وعندما ندرس «الدَّعوة» كهدف ثابت من أهداف لقاء المؤمنين ، كهدف مع جملة أهداف أخرى ، ترتبط كلها فيما بينها ، فإنّها ، بعد هذا الارتباط ، تظل تلقي الشيء الكثير من ظلالها ومعانيها على سائر الأهداف . والأهداف جميعها تظلّ دائمًا مرتبطة بالهدف الأسمى .... الهدف الأكبر .... الجنّة .

ونعتذر للقارئ عن هذا التكرار . فإنه تكرار متعمّد مقصود . ذلك لأن النسيان طال علينا كلنا أمداً طويلاً ، فلا بدّ من قرع قويّ وتكرار شديد ، عسى اللّه أن يرفع عنّا الغفلة ، ويَهَبَ الأُمّةَ صِدق الصحوة ....!

وفي هذا الفصل ، فإننا نودّ أن نحصر لفظة الدّعوة بعمل محدّد

واضح، ليكون هدفاً محدّداً واضحاً، يرتبط ويتداخل مع غيره ارتباط تناسق وتكامل. والمعنى هو البلاغ والتبيين، وتزيين الإيمان للقلوب، وتألفها عليه، وجمعها في أفيائه وأندائه.

هذا المعنى هو المعنى الأول الذي نقصده. هو المعنى التطبيقي العملي الأول.

ولكن هذا لا يمنع أن ترد لفظة الدعوة بمعناها الشامل في بعض الجمل والفقرات، لضرورة يقتضيها نصّ، أو حال.

لذلك نود أن نلفت نظر القارئ الكريم إلى الانتباه إلى معنى لفظة الدعوة حين ترد هنا أو هناك. وفي جميع الحالات فإنها تمتد من معناها الضيّق إلى أُفقها الواسع.

إنّ دعوة الناس إلى الإيمان باللّه ورسوله صلى اللّه عليه وسلم، إلى سائر قواعد الإيمان كما بيّنها وحدّدها منهاج اللّه، إنّ الدعوة إلى هذا الأمر، تُمثل الهدف الكبير في الحياة الدنيا، تُمثل هدف الفرد المؤمن، هدف الجماعة، هدف الأُمّة كلها. ولا هدف للمؤمن في واقع الحياة الدنيا أكبر، ولا أوَسع، ولا أشمل من هذا الهدف. فهو مرتبط مباشرة بالهدف الأول، بالهدف الأسمى، بالهدف الثابت، الهدف الذي عرضناه في الفصل السابق ألا وهو الجنّة. إنّ الدّعوة إلى اللّه ورسوله صلى اللّه عليه وسلم، إلى كتابه وسنّة نبيه صلى اللّه عليه وسلم، إلى منهاج اللّه، يمثل الطريق الممتدّ إلى الجنّة.

عندما نحدّد الدعوة على أنها الهدف الكبير في واقع حياة المؤمنين، لممارسته في الحياة الدنيا ممارسة إيمانيّة، عندما نقول هذا، يجب علينا أن نبيّن ثلاثة أُمور:

إلى ماذا ندعو ....؟

من ندعو ....؟

كيف ندعو............؟

١ - إلى ماذا ندعو :

ولقد سبق أن عرضنا في كتابنا **«لقاء المؤمنين» الجزء الأول**، موجزاً لعناصر الإيمان مع البيّنة من الكتاب والسنّة، عرضنا موجزاً لما ندعو الناس إليه إن اللّه سبحانه وتعالى حدّد في منهاجه الربّانيّ كلّ ما يجب أَن ندعو إليه الناس . ولا نستطيع أن نضيف هنا شيئاً على ماسبق أَن أَوجزنا، إلا أننا نود أن نؤكد أنّ نجاح الدعوة الإسلاميّة يتطلب التجرّد الكامل من أيّ دعوة عصبية، أو رابطة جاهليّة، أَو تكتل يمزّق رابطة الإيمان، ويوهن عرى الإسلام . يجب أن يتضح في ذهن الداعية المؤمن أَنه يدعو الناس إلى الإيمان، إلى اللّه ورسوله صلى اللّه عليه وسلم، إلى أعظم أمر في هذا الوجود، فلا يفسد عمله بهوى مضلّ، أَو عصبيّة ممزّقة . إذا لم تتضح هذه الحقيقة في أَذهان الدعاة كلّهم، فإنّ خصائص لقاء المؤمنين تضطرب، وقد لا نصحو إلّا على تكتلات متعددة، وأحزاب متباينة، وعصبيات جاهلة، تحاول كلها أَن يسحق بعضها بعضاً ...! أو تثور الفتنة بعد الفتنة، ويعلو هرج بعد هرج، ويتحجّر الناس على تكتلات قطعت بينها كلّ الحبال . وتشقُّها العصبيّات الإقليمية والقومية على صورة أعمق وأعنف مما هي بينها وبين غيرها .

يجب أَن يحمل المؤمن الداعية في قلبه : **رابطة لقاء المؤمنين** أُخوة الإيمان، فلا يقطعها بظلم وعدوان، **وخصائص لقاء المؤمنين**، فلا تتبدَّد في

عواصف وهوى، وليأت من الأُمر ما يطيق، وليعرف حدّه فلا يتجاوزه، وليعرف واجبه فليؤدّه[1].

٢ - من ندعو:

والمؤمن الداعية يبدأ أولاً بنفسه، قبل أَن يبدأ بغيره. إنه يبدأ بنفسه رعاية وتدريباً ومحاسبة، ليزداد بإذن اللَّه إيماناً وتقوى، ويزداد علماً ونوراً ويزداد قوة وعزماً، ويزداد خبرة ومراناً. فينهى نفسه قبل أَن ينهى الناس، ويدعو نفسه قبل أَن يدعو الناس، ويلجم أهواءه، ويحبس شهواته، لتذوب كلها في نور اليقين، وقوة الصدق، وجمال السعي، وسماحة الاطمئنان إلى وعد اللَّه.

وهو يدعو الناس كلهم، وهو على ثقة واطمئنان إلى أنه على حق، وأنه يدعو إلى خير، وأنه على صراط مستقيم. يدعو الناس كلهم على نهج مدروس، وخط واعٍ، حتى تبلغ الدعوة الناس كافّة، دون أن تأخذه الغفلة والارتجال.

﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان: ١)

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

(الأعراف: ١٥٨)

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ: ٢٨)

أما كيف ندعو الناس فهذا موضوع له دراساته الخاصة به في كتب أُخرى من هذه «السلسلة لكتب الدعوة الإسلامية»[2].

(١) تراجع رابطة لقاء المؤمنين وخصائصه في لقاء المؤمنين الجزء الأوّل.

(٢) يراجع كتاب منهج المؤمن بين العلم والتطبيق (ط: ٥)، نهج الدعوة وخطة التربية والبناء - (ط: ٢)، التوحيد وواقعنا المعاصر - (ط: ٣) - للمؤلف.

إننا نعرض الدعوة في هذا الفصل على أنها هدف ثابت في لقاء المؤمنين، ليعي المؤمن دوره في الحياة الدنيا، وليعي دوره ونهجه وأهدافه. وحتى نوضح الدعوة كهدف ثابت نحاول الآن أن نعرض أهم خصائص هذا الهدف.

٣ - خصائص الدّعوة :

أ - الدعوة جهد بشريّ يرعاه الله ما استمسك الجهد بخصائصه الإيمانية :

ومن أهمّ خصائس هذا الجهد :

(أ - ١) إنه نهج واع وصراط مستقيم :

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف : ١٠٨)

فهو سبيل إلى الجنّة، وهو صراط مستقيم، يمضي عليه المؤمنون على بصيرة حين يَعي الدعاةُ منهاج الله إيماناً وعلماً، وحين يعون الواقع الذي يدعون فيه وحين يدرسون الناس فيفهمونهم، ويعرفون أطيب المداخل إلى نفوسهم. وتكون الدعوة على بصيرة حين تمضي على خطة مدروسة، ونهج بيّن، يقوم على أساس من منهاج الله ومن حقيقة الواقع الذي تعمل فيه. فالدعوة لا تقف عند حدود الوعظ والإرشاد وتنتهي، ولا هي خطبة منمقة، ولا هي كتاب مزخرف. إنّ الدعوة عمل متكامل، متعدد الميادين، واسع الآفاق، ....! إنّه جهد وبذل ومعاناة، إنه إقامة وترحال، وإنفاق وسخاء، ودراسة وعلم. إنه خطة متكاملة تقوم على المنهاج الربّانيّ والواقع البشريّ. وبقدر ما تتوافر عناصر : الإيمان، والعلم، والموهبة، والخبرة .... بقدر ما تتوافر هذه كلها مصهورة في بوتقة الجدّ والصدق مع الله، بقدر ما يتوافر هذا، تتوافر للخطة دقّتها، وسلامتها، وتكاملها.

إنّ الدعوة هي جهد بشريّ. جهد بشريّ يباركه اللّه. إنّه لون من ألَوان الممارسة الإيمانية، كما عرضناها في كتابنا الشورى وممارستها الإيمانية الطبعة الثانية ولكنها أوسع ممارسة، وأشمل جهداً.

(أ - ٢) نهج ماضٍ إلى يوم القيامة:

والدعوة أمر ماضٍ إلى يوم القيامة، لا تتوقف ولا تتعطل. هكذا أرادها اللّه، حتى تبلغ الناس جميعاً، والأَجيال كلها، والعصور كلها. وامتداد الدعوة ماضٍ لا يعطله شيء، إلا وهن الدعاة، وعجز العاملين. إنّها لا تتعطل بوفاة قائد، أو وفاة زعيم، حتى ولو كانت القيادة نبوّة، على عظمة النبوّة. فالنبوّة ختمت، والوحي توقف، ولكنّ الدعوة ستمضي بإذن اللّه:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٤)

ويجب أَن تمضي الدعوة دون توقف، في جميع الظروف والأَحوال، ومن خلال المحنة والفرج، والشدّة والرخاء، والنعمة والبلاء. والدعوة تمضي في الأرض كلها، وهي هدف الحياة الدنيا للقاء المؤمنين، ليمارسوا فيها العبادة، ويؤدوا الأمانة، ويوفوا بالاستخلاف، ويُمحّصوا من خلال شدة وابتلاء.

وتمضي الدعوة في الأَرض، مهما كان حال المؤمنين. ستمضي الدعوة، لأَنها هدف في الحياة الدنيا، ورسالة المؤمن، وبلاغ العامل. ستمضي، سواء أجمع المؤمنين حكم وسلطان، أم التفّوا حول دولة ونظام، أم فرّقتهم محنة، أم أصابهم بلاء. إنّها تمضي في كل حال. وكلما جمعت

المؤمنين قوة ، أو عزُّوا بنعمة من اللّه ، فإنّ ذلك كله يصبح قوة للدعوة ، ونعمة لها وعزّاً . وهي نفسها قوة مع قوة ، وعزّة مع عزّة ، ونعيم سابغ ، وفضل من اللّه . وتمضي الدعوة الصادقة .... ويمضي لقاء المؤمنين ....!

(أ - ٣) مهمات الدعوة الكبرى :

وتمضي الدعوة في الأَرض لتبلغ رسالة اللّه بلاغاً أَميناً ، وتمضي لتبني وتربّيَ وتدرّب ، فهي مدرسة الإيمان ، وجامعة القرآن . تظل تمدّ لقاء المؤمنين والبشريّة كلها بأفواج الخير ، وفيض البركة ، وأجيال الإيمان . ولذلك نستطيع أن نضع مهمة الدعوة ، للإيضاح ، بثلاث خطوات كبرى ، أو حلقات كبرى : **الدعوة والبلاغ ، والجمع والتوجيه ، والبناء والإعداد والتدريب** . ثم تمضي الدعوة على نهجها الذي يجمع ذلك كله تمضي على صراط مستقيم إلى أهداف مشرقة ... على درب منير ...! ويشترك في الدعوة ، في لقاء المؤمنين ، كلُّ جهدٍ مؤمن ، على تنسيق قويّ ، وربط متين ، حتى تصب الجهود كلها في مجرى واحد يجمعها ، وينسقها ، ويربطها ، ويقويها ، فلا تتفتت جهوداً شتى ، في مسارب شتى ، على ضعف وهوان ، وذلة وخذلان .

ب - الدعوة هدف ربّانيّ يبيّنه منهاج اللّه :

وإننا نعرض الدعوة هنا من حيث إنَّها الهدف الثابت الأَول للقاء المؤمنين هدف عظيم . يمثل أعظم هدف في الحياة الدنيا ، مرتبطاً بالهدف الأول وهو الجنَّة ، ويمثل الطريق إليها . إنه هدف ثابت ، ينمو ويقوى ، ويشتد إشراقه ، كلما صدق الإيمان ، وقوي العلم ، ونمت الخبرة ، وصحّت الموهبة والعزيمة .

إننا لا نعرض موضوع الدعوة هنا لنبينّ تفاصيل خطتها ، ومبناها ،

ووسائلها . إننا نعرضها هنا هدفاً رئيساً من أهداف لقاء المؤمنين ، نعرضه لنبيّن أنه هدف ربّانيٌ حدده اللّه ، وغاية رسمها رب العالمين . أما سائر التفاصيل فإنّها تؤخذ من منهاج اللّه قرآناً وسنّة على ضوء الواقع البشريّ الذي تعمل فيه ، وعلى الطاقة البشرية أن تضع خطتها التفصيلية .

(ب – ١) حكمة وموعظة حسنة ، وعقاب بالمثل أو صبر ، وتقوى وإحسان :

ولنستمع إلى آيات اللّه لتبيّن لنا هذا الهدف ، وتوضح لنا الغاية ، وترسم لنا السبيل والنهج .وإننا نأخذ من كتاب اللّه قبسات وملامح :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (النحل: ١٢٥ – ١٢٨)

وتظلّ هذه الآيات ترسم للدعوة إلى اللّه سبيلاً ربّانياً ، سبيلاً ممتدّاً إلى يوم القيامة . وكل آية ترسي قاعدة من قواعد الدعوة لتتماسك القواعد كلها . ويستمر منهاج اللّه يرسي سائر قواعد الدعوة حتى تتماسك كلها وتتكامل .

ادع إلى سبيل ربك ...! مهمّة ماضية لا تتوقف . والدعوة إلى سبيل اللّه هي الدعوة إلى كل ما جاء في منهاج اللّه قرآناً وسنّة . وتظلّ الدعوة بالحكمة ، ولن تكون بغير الحكمة ، وتظلّ الدعوة تقدم الموعظة الحسنة .

فإنّها دعوة الخير، فلن تقدم موعظة سيئة. وستظلّ تعفو ما دام العفو هو من الحكمة والخير. وستظل تصبر، لأن الصبر من الإيمان، ولأنه نعمة من اللّه واسعة، ولأن خيره كثير، ولأنه ضرورة من ضرورات الدعوة. وسيجد الداعية أمامه المكر والكيد، والخديعة والظلم، ولكنه لن يحزن ولن يكون في ضيق من ذلك، وقد شرح اللّه صدره، ووسع عليه بالصبر، والقوة، والحكمة، وحسن الرجاء باللّه، يضيء ذلك كله له الدرب ما دام تقيّاً ومحسناً. وهذا كله لا يتعارض مع حاجة الدعوة إلى اللّه إلى أن تشهر السيف أحياناً وتخوض الحرب وتجاهد في سبيل اللّه. والجهاد في سبيل اللّه صورة من صور الدعوة، ماضية إلى يوم القيامة لا تتوقف. الجهاد في سبيل اللّه بكل وسيلة ممكنة واجب شرعي لا يتعطل أبداً. الجهاد في سبيل اللّه على خصائصه القرآنية فرض شرعي لا ينقطع أبداً. وللجهاد خصائص إيمانية، وقواعد قرآنية، لا نستطيع عرضها هنا وسنشير إليها قريباً.

(ب - ٢) دعوة إلى الخير وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر:

وفي سورة آل عمران، السورة التي تتحدث عن غزوة أحد، عن القتال، عن الحرب، السورة التي تتحدث عن العقيدة والإيمان، عن الإسلام، عن أهل الكتاب والمشركين... من خلال ذلك كله ترسم نهجاً للدعوة، وتحدد هدفاً، وتشرح غاية:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٤)

والآيات التي قبلها والتي بعدها، مع هذه الآية تساعد على جلاء الدرب ومعرفة الخصائص. فالدعوة إلى اللّه هي دعوة الخير، فليس فيها شرٌّ

أبداً . وهي دعوة الأَمر بالمعروف والنهي عن المنكر . هي الدعوة التي تقود إلى الفلاح ... إلى الجنّة . إنّ هذه الآية الكريمة تأمر بالدعوة إلى اللّه مع كل ما يضعه أهل الكتاب والمشركون من عقبات أمام الدعوة ، ومن صد عن سبيل اللّه ، ومن فتن يُثيرونَها ، يريدون بها أن يمزّقوا صفَّ المؤمنين ، ويدفعوهم إلى الكفر والضلالة .

(ب – ٣) الاستقامة على النهج ، والعدل ، والعمل ، هي الحجة القاطعة :

وتمضي الآيات الكريمة ترسم من صور الدعوة ، وتحدد هذا الواجب ، وتبينّ هذا الهدف :

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (الشورى : ١٥)

نعم .... فلذلك فادع ....! إنّه أمر من اللّه رب العالمين . إنّه ليس أمراً من أَحد من البشر . إنّه أمر اللّه ، ونداء اللّه ... إلى رسوله صلى اللّه وعليه وسلم ، وإلى المؤمنين . إنه أمر ربّانيّ ، يحدِّد هدفاً ربانيّاً .... الدعوة إلى اللّه ورسوله صلى اللّه عليه وسلم . وترسم هذه الآيات الكريمة أجواء الدعوة ، وما فيها من أهواء مضطربة عند المشركين وأهل الكتاب ، وما يثيرونه من جدل ولجاج . إنه خطاب رائع لقطع دابر الجدل الميّت : « **لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، اللّه يجمع بيننا ، وإليه المصير** » . ذلك كله عندما يثور الجدل ليصبح صدّاً عن سبيل اللّه ، عندما يتمسك الكافرون بعناد الشرك والضلال ....!

(ب - ٤) من خلق الدعاة :

وتمضي الآيات ترسم وتبيّن وتحدد :

﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

(الشورى : ٣٥ - ٤٣)

في هذه الآيات الكريمة من سورة الشورى نَرَى أهم صفات الدعاة العاملين . وتبتدئ الآيات ببيان أنّ ما في الحياة الدنيا متاع ، حتى لا يصد الرِّياش والرزق عن الدعوة ، ولا يفتن عن النهج . والرجال الذين يمضون دون أن تفتنهم الدنيا هم رجال آمنوا بالله وتوكلوا على الله ، واجتنبوا كبائر الإثم والفواحش ... إلى سائر الصفات التي تعدِّدها الآيات الكريمة ، ومن بينها الشورى . وهذه آيات مكّية في سورة مكّية ، عرضت الشورى مع سائر صفات المؤمنين العاملين ، مع أوّل خطوات الدعوة ، وهي تجاهد

جهادها المبرور في مكة.

وهذه الصفات وغيرها مما هو معروض في منهاج الله، تحتاج إلى الجهد الأمين لممارستها، وتظلّ المسئوليّة هي مسئولية الدعاة أنفسهم، كي ينهضوا إلى هذه الأمانة، ويمارسوا هذه الصفات ممارسة إيمانية، في الواقع البشريّ المتجدّد.

(ب – ٥) الدعوة هدف ثابت يرتبط بالهدف الأكبر – التوحيد والجنة:

وتمضي الآيات في سورة القصص لتؤكد الغاية وتثبت الهدف:

﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

(القصص: ٨٧، ٨٨)

فحددت هذه الآية الكريمة محور الدعوة كلها، وربطت هذا الهدف بالهدف الأسمى والغاية الكبرى: **(ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون).**

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الحج: ٦٧، ٦٨)

ذلك حتى لا تكون مناسك أهل الكتاب باباً لمنازعة الرسول صلى الله وعليه وسلم، أو منازعة الإسلام في الأمر، أو حجّة لتعطيل الدعوة بل: «**وادع إلى ربك** .....». ثم تؤكد الآية الهدف الصادق والغاية الصادقة:

« **إنك لعلى هدى مستقيم** » . فإن أصبح جدلهم صدّاً عن سبيل اللّه فقل لهم : « **اللّه أعلم بما تعملون** » .

وفي سورة فصلت :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (فصلت : ٣٣- ٣٥)

هذه هي الدعوة إلى اللّه ، فإنها أحسن القول ، وإنها أَحسن العمل : الدعوة إلى اللّه ، العمل الصالح ، الإسلام . ثمّ هي أخلاق الدعاة : « **ادفع بالتي هي أحسن** » . وإن طريق الدعوة طريق صعاب ، ودرب جهاد ، وعمل متصل ، فإنه يحتاج إلى الصبر : « **وما يلقّاها إلا الذين صبروا ما يلقاها إلا ذو حظ عظيم** » . نعم .... إن أَجر هذا العمل ، وغاية هذا الجهد ، يتجاوز الدنيا كلها ، ولا يستطيع أن يبلغه إلا ذو حظ عظيم . ذلك أَنّ الجزاء هو الهدف الثابت الذي يسعى إليه المؤمن ... ألا هو الجنّة . « **فمن زحزح عن النّار وأُدخل الجنّة فقد فاز ....** » .

(ب - ٦) الدعوة هدف ثابت يرتبط بغيره من الأهداف الثابتة :

ويستكمل هذا الهدف خصائصه ، هدف الدعوة إلى اللّه ورسوله صلى اللّه وعليه وسلم ، عندما يرتبط بالصورة الإيمانية الرائعة : « **لتكون كلمة اللّه هي العليا** » . إن هذا الجهد كله في درب الدعوة ، يهدف ، كشرط أساسيّ ، لأَن تكون كلمة اللّه هي العليا . إن الدعوة إلى اللّه هدف

من أَهداف لقاء المؤمنين، نابع من حقيقة وجود اللقاء! الصدق بالعبادة، والوفاء بالأمانة، والقيام بالاستخلاف. فإذا مضى لقاء المؤمنين، ليحقق هذه الأسس بالدعوة إلى اللّه، فإنّ هذا يعني أَنْ تكون كلمة اللّه هي العليا في واقع الناس، في الواقع البشريّ، في كل حياة الإنسان. فتصدق العبودية حين يصبح الإنسان يؤمن بأنّه عبدٌ للّه الواحد الأحد، يخضع لمنهاج اللّه في كل أموره.

إن كلمة اللّه هي العليا دائماً. وإنما الذي نعنيه هنا أن يقوم الإنسان نفسه بدوره الذي خلق لأَجله، ليحقق في واقعه هو عبوديته الكاملة للّه، وخضوعه الكامل لمنهاج اللّه، حتى يصبح منهاج اللّه هو الذي ينظم حياته كلها. وهو في سبيل ذلك يمتحن ويبتلى ويمحص.

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٤٠)

وانظر كيف أتت (**كلمةُ اللّه هي العليا**)، «**كلمةُ اللّه**» بالرفع لا بالنصب كسابقتها، وتتضح لنا الصورة التي عرضناها كذلك من حديث رسول اللّه صلى اللّه وعليه وسلم عن القتال:

عن أبي موسى، قال: سئل رسول اللّه صلى اللّه وعليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حميّة، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل اللّه؟ فقال

رسول اللّٰه صلى اللّٰه وعليه وسلم : **« من قاتل لتكون كلمة اللّٰه هي العليا فهو في سبيل اللّٰه »** . (رواه الشيخان والترمذي وأبو داود والنسائي)[1]

وهكذا تصبح الدعوة إلى اللّٰه ورسوله صلى اللّٰه وعليه وسلم مرتبطة بأن تكون كلمة اللّٰه هي العليا ارتباط إيمان وعلم وجهاد .وكذلك يرتبط بسائر الأهداف الثابتة .

جـ- الدعوة أعلى هدف ثابت في الحياة الدنيا :

وتأتي أحاديث رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم لتضع هذا الهدف في مكانه الحقيقي ، يشدُّ المؤمنين إليه على طريق الجنّة ، كأعلى هدف في الحياة الدنيا .

فلما قال أبو طالب للنبيّ صلى اللّٰه عليه وسلم : **« يا ابن أخي ! إنّ قومك قد جاؤوني وقالوا كذا وكذا ، فأبق عليّ وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأَمر ما لا أطيق أنا ولا أنت ، فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك »** . فظنّ رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم أَنْ قد بدا لعمه فيه ، وأنّه خاذله ومسلمه ، وضعف عن القيام معه ، فقال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم :

« يا عمّ ! واللّٰه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره اللّٰه أَو أَهلك في طلبه »[2] .

وفي حديث آخر أخرجه ابن إسحق عن طريق الزهري ، وفيه : **« فما تظنّ**

---

(١) البخاري (فتح الباري) : كتاب الجهاد (٥٦) . باب (١٥) . حديث (٢٨١٠) ، مسلم : كتاب الإمارة (٣٣) . باب (٤٢) . حديث (١٩٠٤) ، الترمذي : كتاب فضائل الجهاد (٢٣) . باب (١٦) .حديث (١٦٤٦) ، أبو داود : كتاب الجهاد (٩) . باب (٢٦) . حديث (٢٥١٧) ، النسائي : كتاب الجهاد (٢٥) . باب (٢١) . حديث (٣١٣٦) .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام - (ط : ٢) (ج : ١) ، (ص : ٢٦٦) .

قريش فواللّه لا أزال أجاهد على هذا الذي بعثني اللّه به حتى يظهره اللّه أو تنفرد هذه السالفة » .

عزيمة وتصميم ، وهدف واضح جليّ لا تراجع عنه ، وغاية مشرقة ، لا شيء من متاع الدنيا يرد الخطوة ، أو يوهن العزيمة ، حتى لو حملوا إلى الرسول صلى اللّه عليه وسلم الشمس إلى يمينه والقمر إلى يساره . إنها عزيمة وتصميم إلى هذا الهدف الكبير ، مع اللحظات الأولى لانطلاق الدعوة ، ماضية مع الدهر ، لا تفتر ولا تضعف ، في قلوب الصادقين العاملين .

د – الدعوة هي سيرة الرسول صلى اللّه عليه وسلم :

وتظل الدعوة إلى هذا الدين هي عمل الرسول صلى اللّه عليه وسلم حياته كلها ، منذ ابتعث ، من خلال الصبر ، والهجرة ، والسرايا ، والقتال ، والمعاهدات ، وجميع أوجه النشاط والعمل . فهي الغاية البارزة في كل موقف ، وهي الهدف المشرق مع كل خطوة .

فقد انطلق الرسول صلى اللّه عليه وسلم يدعو الأفراد في مكة ، العظماء والبسطاء ، جميع الناس . وكانت سورة « **عبس** » تصحح موقفاً ، وتصحح خطوة ، وترسي قواعد الدعوة على صراط مستقيم :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ (عبس : ١– ١٢)

« **كلا إنَّها تذكرة** » . إنها الدعوة إلى اللّه ورسوله صلى اللّه عليه وسلم

والدار الآخرة ، إلى كل قواعد الإيمان والإسلام .

والدعوة إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ليست مهمة حدَّدها إنسان أَو جماعة أَو بشر . إنها أمر الله ونداؤه كما سبق أن ذكرنا . فالله سبحانه وتعالى يبين في منهاجه الكريم - قرآناً وسنَّة - أُسس الدعوة ، وقواعد العمل :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ (المدثر : ١ - ٧)

قم فأَنذر . هذه هي الدعوة . أَوْجَزَتْها هذه الآية ، وفصَّلها القرآن الكريم تفصيلاً . وهنا في هذه السورة بعض القواعد والتفاصيل : تكبير للَّه ، وطهر ، وهجر للرجز ، وصبر للَّه ......! فمن يدع الجدل وينهض إلى ذلك ؟

وهذا الهدف ، كما نراه ، يحمل الخصائص الإيمانية لأَهداف لقاء المؤمنين . فهو هدف ممتدّ . هو دعوة للنّاس كافة ، للبشريّة كلها ، للأَجيال والأَزمان :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ : ٢٨)

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف : ١٥٨)

والدعوة إلى الله، وهي أمر من عند الله، ينهض لها المؤمن في كلّ حالاته، ويختار لها الأسلوب الأقوم على ضوء واقعه. ولكنها لا تتعطل أبداً، حتى في القتال تظلّ الدعوة هي الهدف الأول. ففي غزوة خيبر، عندما وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً إليها، قال: « **انفذ على رِسْلك حتى تَنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقّ الله تعالى فيه. فوالله لئن يهديَ الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم** ». (رواه البخاري)[1]

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ ابن جبل رضي الله عنه، حين بعثه إلى اليمن: « **إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أَنَّ الله فرض عليهم خمس صلوات كلَّ يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أنَّ الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ على فقرائهم. فإن هم أَطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم. واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب** ». (أخرجه البخاري)[2]

فالدعوة إذن هي مهمَّة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي المهمة التي بُعث لأَجلها، وهي مهمة الرسل قبله.

﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٤٦، ٤٧)

(١) البخاري: كتاب المغازي (٦٤). باب (٣٨).

(٢) البخاري (فتح الباري): كتاب الزكاة (٢٤). باب (١). حديث (١٣٩٥)، مسلم: كتاب الإيمان (١). باب (٧). حديث (١٩)، أبو داود: كتاب الزكاة (٣). حديث (١٥٨٤).

﴿ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ (الأنعام: ١٩)

فكانت حياته صلى اللّٰه عليه وسلم هي الدعوة، وكانت سيرته تعرض أساليب الدعوة ونهجها، على أساس من منهاج اللّٰه الذي يتنزَّل، والواقع الذي تمرُّ به الدعوة.

﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣)

هـ- الدعوة مهمّة الأنبياء والرسل جميعاً:

وجميع الأنبياء والرسل عليهم صلوات اللّٰه بعثوا ليبلّغوا أقوامهم رسالة اللّٰه، ويدعوهم إلى عبادة اللّٰه الواحد الأحد، يدعوهم إلى دين اللّٰه، إلى الإسلام.

﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ (الأعراف: ٥٩)

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف: ٦٥)

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾
(الأعراف : ٧٣)

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

(الأعراف : ٨٥)

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾
(الأعراف : ١٠٣)

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

(النساء : ١٦٣- ١٦٥)

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ

﴿ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾
(النحل: ٣٦)

فالدعوة إِذن هي مهمَّة الأَنبياء والرسل كلهم عبر تاريخ البشريَّة، يدعون إِلى ربّ واحد، ودين واحد هو دين الإسلام. وخُتم الأَنبياء بمحمد صلى اللّه عليه وسلم، وختمت به الرسالة السماويَّة، وانقطع الوحي، وتمَّ الدين. والحمد للّه رب العالمين.

ونهض الرسول صلى اللّه عليه وسلم إِلى الدعوة، نهض إِلى دعوة الناس إِلى اللّه ورسوله. نهض إِلى ذلك بعزم وقوة، يمضي على ضوء الآيات التي تتنزل، والوحي الكريم. نهض يَشَقُّ طريقه على ضوء الواقع، بكل ما فيه من عنف المقاومة، ووحشيَّة الإيذاء، وشدة المكر والكيد. مضت الدعوة، وطاقة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، ثم طاقة من آمن معه، تشقُّ الطريق على نهج مدروس، وخطة واعية. ويقوم النهج وتمضي الخطة على القاعدتين الرئيستين: منهاج اللّه الذي يتنزَّل به الوحي الكريم، وحقيقة الواقع البشريِّ الذي تمر فيه. ذلك كله في رعاية اللّه، وأنداء الرحمة ....!

وهكذا ظلت الدعوة هي الهدف العظيم للنبوَّة، وجنودهم المؤمنين. إِنه هدف عظيم تنزَّل الوحي لأَجله، وبعث الأنبياء لأجله، وأُنزلت الكتب السماوية لأَجله كذلك. إِنَّه هدف لقاء المؤمنين على مدار التاريخ.

وبعد محمد صلى اللّه عليه وسلم، ظلت الدعوة هدف الجماعة المؤمنة التي ربَّاها، وغاية الجيل المؤمن الذي أَعده، وظلَّت هدف لقاء المؤمنين إِلى يومنا هذا، وستظل كذلك أبد الدهر، لا تتعطل، ولا تتوقف أبداً. وظلت هي هدف الأُمة الإسلامية، وهي مهمتها:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (آل عمران: ١١٠)

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

(البقرة: ١٤٣)

وضح إذن أَنَّ الدَّعوة إلى اللَّه ورسوله صلى اللَّه عليه وسلم هي الهدف العظيم للقاء المؤمنين. هدف حدده اللَّه سبحانه وتعالى في القرآن والسنَّة، في المنهاج الرباني. هدف يحمل معه البلاغ والتبيين، والجمع والتوجيه. والبناء والإعداد والتدريب.

هدف ماض منذ آدم عليه السلام، إلى أن تقوم الساعة. ولأجل هذه الغاية نزل الوحي، وبُعِثَ الأنبياء، وَأُنزِلت الكتب السماوية.

و- الدعوة تمضي على نهج، ملامح هذا النهج في عهد النبوَّة:

والدعوة إلى اللَّه ورسوله صلى اللَّه عليه وسلم، وهي جهد بشريّ، تستفيد بصورة إيجابية مؤمنة، واعية، من حقائق الواقع البشريّ، لتضع خطتها ونهجها كما ذكرنا على أساس من منهاج اللَّه.

ولذلك نرى أنَّ الدعوة التي قادها الرسول صلى اللَّه عليه وسلم، مضت

على هذا النحو من الوعي الدقيق. ولا نستطيع هنا أنْ نفصل في خطة الدعوة، فليس هذا مكانها، ولكننا نشير إلى لمحات ضروريَّة لتأكيد هذه الصورة الإيمانية، التي فقدها المسلمون في عصور كثيرة تلت ذلك، حتى يومنا هذا.

(و- ١) الدعوة مراحل تراعي الواقع، في رعاية الله، دون وهن أو انحراف:

لقد مضت الدعوة منذ ابتدأت البعثة والرسول صلى الله عليه وسلم لا يجهر بها قرابة ثلاث سنوات. ثم أمره الله سبحانه وتعالى أن يجهر بالدعوة إلى الناس، كما أمره أن ينذر عشيرته الأقربين. وبدأت المحنة، وأخذ البلاء يشتد، حتى بلغ أوجه حين حوصر المؤمنون وبنو هاشم في شعب أبي طالب، مدة ثلاث سنوات، قاطعتهم قريش خلالها ومنعت التعامل معهم، وتعاقدوا على ذلك في صحيفة كتبوها. وكان قبل ذلك تعذيب المستضعفين من المسلمين، تعذيباً شديداً. ولقي رسول الله صلى الله عليه وسلم من قومه أذى كثيراً. وكانت الهجرة الأُولى إلى الحبشة، ثمَّ الهجرة الثانية، واشتد الإيذاء والعدوان على المسلمين وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاة أبي طالب عم الرسول، وخديجة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم. لا نعرض هنا تفاصيل الأذى، والعذاب، والكيد، وإنما نعرض خطوطاً عامة.

(و- ٢) تشتد دقة النهج مع شدة البلاء دون وهن أو مساومة:

من خلال هذا التعذيب والأَذى والكيد، مضت الدعوة، وبلَّغ الرسول صلى الله عليه وسلم رسالة ربّه، شاقاً طريقه أمام الصعاب الهائلة، والصخور الصلدة، في ذلك المجتمع الكافر. لا يثنيه تهديد، أو وعيد، أو

رهبة . ولا يثني المسلمين كذلك تهديد أو وعيد أو رهبة . ومضى الجميع يدعون ويبلغون ، ويجمعون ويوجهون ، ويبنون ويربّون ، دون أيّ توان أو استرخاء . فقد حمل الدعوة مع النبوّة كواهل رجال ، وعزائم أبطال ، ويقين إيمان . وكلما اشتد الكيد والأذى ، اشتد المسلمون في دقة التخطيط ، والإصرار على النّفاذ لبلاغ الناس ، ودعوة العباد . وكانت الدعوة تتم بالاتصال المباشر عن وعي ، وعلم وحسن تقدير . وكانت الهجرة إلى الحبشة باباً من أبواب النجاة من الأذى ، وباباً من أبواب الدعوة ، وباباً من أبواب النَّهج .

وكان البلاغ ، وكانت الدعوة ، في محورها الرئيس آيات تتلى ، وأَحاديث تُبَلَّغ . فحين كان يدعو رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أحداً من الناس ، فإنما كان يبلّغه الآيات التي تتنزل ، والوحيَ الذي يأتيه . فلم يكن هنالك بين الناس إلا رسالة اللّه ، بكلّ صفائها ونقائها ، وبكلّ وضوحها وبيانها . وكان هنالك كذلك عظمة ممارسة المسلمين لهذه الرسالة التي تتنزّل ، في الواقع البشريّ الذي يدعون فيه . فالناس إذن ، كانوا يسمعون رسالة الحقّ ، ودعوة اللّه ، وكانوا يرون الممارسة الإيمانية في الواقع البشريّ ، إيماناً وعلماً ، وموهبة ، ومعاناة ، وبذلاً وصدقاً . وبمقدار ما كان البيان عظيماً ، كانت الممارسة كذلك عظيمة . كانت ممارسة تُبرز يقين الإيمان وصلابته ، وقوّة العلم ونهجه وخطته ، ونبوغ الموهبة التي أرادها اللّه لهذه الدعوة ، يجمع ذلك كله النبيّ الخاتم ، والصحابة الأبرار ، يشقُّون الطريق أمام صخور صلاد ، وصبر وجهاد .

(و- ٣) وُضُوحُ الهدف وسلامة النهج ينقذان من الوهن والمساومة ، على ثبات ، ويمهدان لوثبة النصر :

وكلما اشتد الإيذاء ، أو تفنّنت قريش بالاعتداء ، نهض المسلمون إلى

خطة أقوى، ونهج أوعى، يضعونه على أساس من منهاج اللَّه، وفهمهم للواقع البشريّ. واللَّه سبحانه وتعالى يرعى هذه الجهود المؤمنة، والنفوس الصابرة، فتمضي سنن اللَّه التي لا تتبدّل، حتى يتهيّأ النصر للمؤمنين، من خلال جهد بشريّ يمضي على سنن اللَّه الثابتة، في رعاية الوحي، وحماية الرحمن. وما استطاعت قريش أن تنجح في أيِّ محاولة استدراج، أو استفزاز، يستغلونها لاستئصال شأفة الإسلام. فمكر الكافرين كان يَرُدُّهُ نهج الإيمان، وبركة الرحمن، وصبر الجنود في الميدان.

ففي عام الحزن، العام الذي توفي فيه أبو طالب، وذهبت فيه الحماية التي كان يوفرها لابن أخيه، وتوفّيت خديجة رضي اللَّه عنها فذهب الحنان، وذهبت وزارة الصدق الذي كانت تسديه، في هذا العام، مع شدة الحزن، وعظم البلاء، وتتابع المصائب، واشتداد الأذى، مع هذا كله، اشتد الرسول صلى اللَّه عليه وسلم في دعوته، وفي محاولاته، وفي خطته. فخرج إلى الطائف وحده منفرداً، يلتمس النصرة من ثقيف. فنال الأذى الشديد. فمضى يشتدّ الرسول صلى اللَّه عليه وسلم في دعوته، ويحكم خطته، ويستفيد من الواقع الذي يعمل فيه أصدق استفادة، وأطهر خطوة. فعرض نفسه على القبائل في المواسم وغيرها، وفي سوق ذي المجاز وغيره. عرض الدعوة على القبائل في موسم الحجّ بمنى، وعرضها على الأوس والخزرج. وكان بعد ذلك أمر بيعة العقبة الأولى والثانية. وامتدّ الإسلام ووثب وثبة عظيمة جدّاً، من خلال أشد المصائب والكيد والأحزان. وامتدّ الإسلام خارج مكة، فملأ المدينة ودخل بيوتها. وكان مصعب بن عمير رضي اللَّه عنه رسول النبوّة إلى المدينة مع رجال العقبة الأولى. ونزل على أسعد بن زرارة.

ماذا فعل مصعب رضي اللَّه عنه بالمدينة؟ فعل ما أمره رسول اللَّه صلى اللَّه

عليه وسلم من أَن يُقرئَهم القرآن وَيعلّمهم الإسلام . فَبَلَّغ الناس هناك قرآناً يتنزّل من عند اللَّه على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، وأحاديث نبوّة تعلمها من النبيّ القائد .

(و- ٤) الوثبة الكبرى :

ثم وثب الإسلام وثبته الكبيرة ، وانطلقت الدعوة انطلاقها العظيم ، بهجرة الرسول صلى اللَّه عليه وسلم إِلى المدينة . وكانت الهجرة مرحلة جديدة في الدعوة مرحلة تدخل في خطة الدعوة كلها ، مرحلة محكمة قويّة قدّر اللَّه أسبابها وبركتها على سننه الثابتة ، واللَّه يرعى الجهد البشريّ الصادق الطاهر ، ويُباركه .

(و- ٥) متابعة النهج والمراحل في رعاية اللَّه :

ومضت الدعوة في المدينة المنوّرة ، تتابع الجهد الميمون في نهج الدعوة وخطتها . تنفي الارتجال والغفلة ، وتزيح الكسل والاسترخاء . فكان تنظيم العلاقات في المدينة بين جميع فئاتها في كتاب كتبه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، رسم فيه النهج القرآنيّ في العلاقات . فكان أول ما كان فيه : **أَنّ المسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أُمّة واحدة من دون الناس** . ومضت بعد ذلك سائر القواعد والأُسس .

ثمّ كانت السرايا والغزوات ، وكان التدريب والإعداد وكان النشاط في كلّ ساحة وميدان . كان اليهود في المدينة يكادون يسيطرون على أعمال التجارة وكثير غيرها . وخلال سنوات قليلة تُصبح التجارة في يد المسلمين ، وتنتقل سائر الأمور إِلى الأيدي المؤمنة ، على خطة مدروسة ، ونهج مؤمن . خلال فترة قصيرة سيطر المؤمنون على جميع أمور المدينة : الاجتماعية ، والتربوية ، والفكرية ، والاقتصادية ، والتجارية ، والسياسية ،

والإعلام، والتشريع والأحكام، والقوة العسكريّة، وبناء الأجهزة اللازمة، وميادين النشاط الضرورية. كلّ ذلك كان يتم على نهج مدروس، يدفعه الإيمان، وترفعه قواعد منهاج اللّه، وترسمه المواهب والكفاءات، وتمضي به النفوس الباذلة، والقلوب المتفتحة، والطاقة البشريّة الطاهرة التي تتنافس الآخرة لا الدنيا.

(و - ٦) أهمية الإعداد والوعي في التنسيق بين دور الفرد والأمّة:

ونضرب مثلاً واحداً على وعي المؤمنين، للنهج المرسوم، والواقع البشريّ، والخطوة اللازمة لنصرة الدعوة في هذا الموقف أو ذاك، ولدور الفرد في نصرة الأُمة ومضيّ الدعوة.

فعندما آخى الرسول صلى اللّه عليه وسلم بين الصحابة اثنين اثنين، وعندما قدم المدينة عبد الرحمن بن عوف، آخى الرسول صلى اللّه عليه وسلم بينه وبين سعد ابن الربيع الأنصاريّ. فقال له سعد: أي أخي! أنا أَكثر أهل المدينة مالاً. فانظر شطر مالي فخذه. وتحتي امرأتان فانظر أَيّتهما أَعجب إِليك حتى أُطلقها. فقال عبد الرحمن بن عوف: بارك اللّه لك في أهلك ومالك! دلّوني على السوق. فدلّوه فذهب فاشترى وباع فربح فجاء بشيء من أقط وسمن. ثمّ لبث ما شاء اللّه أن يلبث فجاء وعليه ردع زعفران[1]. فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: مَهْيَمْ؟ فقال: يا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تزوجت امرأة. قال: ما أصدقتها؟ قال: وزن نواة من ذهب. قال: أولمْ ولو بشاة. قال عبد الرحمن رضي اللّه عنه: فلقد رأيتني ولو رفعت حجراً لرجوت أَن أُصيب ذهباً وفضّة[2].

---

(١) الرّدع: الزعفران أو لطخ منه.

(٢) أخرجه الشيخان. وأحمد: الفتح الرباني: ١٦/ ٢٠٤.

بالإضافة إلى هذا النهج الكريم من عبد الرحمن بن عوف رضي اللَّه عنه ، حين عزم على دفع موهبته ، ووضع طاقته ، ليخفف عن سعد بن الربيع ، أخيه في الإسلام ، بالإضافة إلى هذا التصور الكريم بكل ظلاله وآفاقه ، فهنالك صورة أخرى تهمنا أيضاً في مسيرة الدعوة الإسلامية . فعبد الرحمن بن عوف لم يأت المدينة بنيّة التجارة وجمع المال . وإنما جاء مهاجراً إلى اللَّه ورسوله صلى اللَّه عليه وسلم وداعية إلى الإسلام . فنزل سوق المدينة إذن بهذه النيّة وبهذه العزيمة . لم ينزل السوق تاجراً مثل سائر التجار ، وإنما نزل تاجراً داعياً إلى اللَّه ورسوله صلى اللَّه عليه وسلم ، وجنديّاً من جنود الدعوة ، وضع طاقته ، وموهبته ، في مكانها المناسب ، لتكون كلمة اللَّه هي العليا . نزل إلى ميدان من ميادين الدعوة ، مجاهداً ، داعياً ، ليجمع قوة من القوى ، وسبباً من الأسباب إلى الدعوة . وبمثل هذه النيّة والعزيمة كانت تعمل سائر مواهب الدعوة في ميادينها المختلفة ، فتجتمع كلها في مجرى الخير والبركة والنور ، فخاض الإسلام إذن مع أول وصوله المدينة ، مختلف الميادين ، جولات قوة ، وموهبة ، وإيمان ، وعلم . فلا عجب أن يكون الميدان الاقتصادي إذن هو أحد هذه الميادين التي حقق الإسلام فيها النصر ، كما حققه في غيرها . وأخذت قواعد المال في الإسلام تسود في المجتمع ، يدفع ذلك قوى كثيرة ومن أهمها ، صدق ممارسة رجال الدعوة لها في الواقع البشريّ .

ولعلّ اليهود قالت : « **وقالت اليهود يد اللَّه مغلولة غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا ......** »[1] ، بعد أن شعرت اليهود بالفشل الاقتصاديّ الذي أصابهم في المدينة ، مع سائر الهزائم العسكرية ، والنفسيّة ، والاجتماعية ، والسياسية . نقول هذا على أساس أنه ظلّ من ظلال الآية يُبيِّنُ رحمة اللَّه

(١) (المائدة : ٦٤) .

بالمؤمنين وما منّ عليهم به من فتوح اقتصادية حطمت اقتصاد اليهود ، مع سائر الفتوح العسكرية والسياسية والأدبية وغيرها .

وعبد الرحمن بن عوف لم يثنه المال الوفير ، ولم تثنه التجارة ، عن هدفه المشرق الذي جاء له . وإنّما تابع مسيرته على درب الدعوة وأبصاره معلقة بالجنّة وقلبه مشغول بأهداف الدعوة . ووضع طاقته ، وماله ، وتجارته ، في طاعة اللّه : قوة للدعوة ، وقوة للمؤمنين . ومضى على صراط مستقيم ، مع قافلة الإيمان ، وموكب النور . صراط مستقيم وأهداف مشرقة ، كأنّها المصابيح ، أو المنارات على درب طويل .

(و- ٧) وضوح الهدف ضروري لمتابعة النهج :

وظلت الدّعوة إلى اللّه ورسوله صلى اللّه عليه وسلم هدفاً مشرقاً للجماعة المؤمنة ، والنبوّة القائدة . ظلت هي الهدف المشرق ، وقد أعزّ اللّه الإسلام فكثر جنوده ، وقام سلطانه ، وأصبحت كلمة اللّه هي العليا ، ومنهاج اللّه هو الذي يحكم . ومع هذا السلطان ، انطلقت الدعوة في مسيرتها . فالرسول صلى اللّه عليه وسلم يدعو ، وهو يرسل من أصحابه الأفراد هنا وهناك ، ليدعوا إلى اللّه ورسوله . وبعث السرايا للدعوة كذلك . فبعث عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل للدعوة ، وبعث عمرو بن العاص إلى « يليّ » يستنفرهم إلى الإسلام ، وبعث خالد بن الوليد إلى اليمن وإلى نجران . وبعث كثيرين غيرهم إلى قبائل شتى ومواقع مختلفة .

(و- ٨) متابعة النهج مع النصر كما كانت مع المحنة والابتلاء :

وما كانت الغزوات إلا من أجل الدعوة لإبلاغ كلمة اللّه ، ونصرة كلمة اللّه ، وحماية دار الإيمان . وبعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رسائله إلى الملوك والآفاق يدعوهم إلى اللّه عز وجل ، وللدخول في دين اللّه .

فكتب إلى النجاشيّ ، وإلى قيصر ملك الروم ، وإلى كسرى ملك فارس ، وإلى المقوقس ملك الإسكندرية ، وإلى أهل نجران ، وإلى الأسقف أبي الحارث ، وإلى بكر بن وائل ، وإلى بني جذامة . لقد كتب إلى هؤلاء في اللحظة المناسبة من نهج ماض .

ومضت الدعوة . تمتدُّ وتنتشر، بكل هذه الوسائل الميسّرة آنذاك ، يدفعها السلطان والقوة النامية : دعاة يتحركون ، يبلغون ويبينون ، وسرايا وغزوات ، ورسائل وكتب ، ووفود تأتي وتعود . حركة دائبة ، على نهج واع ، يستفيد أطيب استفادة من واقع الأمّة ، وظروف المجتمع ، وهي تتحول ليصوغَها الإسلام أكرم صياغة . وأصبحت الدعوة إلى اللّه ورسوله صلى اللّه عليه وسلم عمل الأمّة ، ومصبّ الجهود .

وكان فتح مكة ، وأعزّ اللّه دينه ، ونصر جنده ، ومضت الأُمّة إلى نفس الغاية ، إلى نفس الهدف ، إلى الدعوة إلى اللّه ورسوله صلى اللّه عليه وسلم وأخذت الوفود ، من مختلف أنحاء الجزيرة ، تأتي لتسلم وتدخل في دين اللّه أفواجاً أفواجاً .....!

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ (النصر : ١- ٣)

٤- تلامذة مدرسة النبوّة يتابعون النهج ويمضون إلى الهدف :

وانتقل الرسول صلى اللّه عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . وحمل أبو بكر رضي اللّه عنه أمانة الخلافة . فانطلق بالدعوة ، على الدرب ذاته ، مع ما

جابهه من صعاب جديدة ، وفتنة المرتدين ، حتى استقر الأَمر . فدفع الجنود لتنشر دعوة اللّه في الأَرض ....!

وجاء عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه . فمضى مع صحابة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يدفعون الدعوة في الأرض دفعاً . وتحرّكت جنود المؤمنين إلى بلاد الشام ، والعراق ، وفارس ، ومصر ، لتصدّ عدواناً ، وتدفع مكراً ، وتنشر دعوة .

ولنستمع إلى طرف من وصية أبي بكر رضي اللّه عنه إلى أُمراء الجند . فلما بعث يزيد بن أَبي سفيان ، وعمرو بن العاص ، وشرحبيل بن حسنة ، وسائر جنود الدعوة إلى الشام ، قال وهو يوصيهم : « .... **اغزوا في سبيل اللّه ، فقاتلوا من كفر باللّه ، فإن اللّه ناصر دينه ، ولا تغُلُّوا ،..... فإذا لقيتم العدوّ من المشركين إن شاء اللّه فادعوهم إلى ثلاث ، فإن هم أجابوكم فاقبلوا منهم وكفّوا عنهم : ادعوهم إلى الإسلام ، فإن هم أجابوكم فاقبلوا منهم وكفوا عنهم** ....»[1] .

إذن كانت الدعوة إلى اللّه ورسوله صلى اللّه عليه وسلم هي الهدف الأَوّل ، هي الهدف البارز ، هي الهدف المشرق . هدف يحرّك الطاقات والقادة والجنود ، هدف يحرّك الأُمّة ، ويقرر مضيّ الحرب أَو وقوفها ....!

وعندما وجه أَبو بكر الصديق خالد بن الوليد لحرب المرتدين أَمره أَن يدعوهم بدعاية الإسلام ....!

وعندما نزل خالد رضي اللّه عنه الحيرة وجاءه أَشرافها مع قبيصة بن إياس بن حيّة الطائي ، قال له خالد ولأصحابه : « أَدعوكم إلى اللّه وإلى

(١) الترمذي : كتاب الزهد (٢٧) . باب (١١) . حديث (٢٢١٧) ، مالك : حديث (١٦٢٩) .

الإسلام، فإن أَجبتم إِليه فأَنتم من المسلمين لكم ما لهم وعليكم ما عليهم ......».

ودعا خالد بن الوليد رضي اللَّه عنه، أَثناء معركة اليرموك «جَرَجَة» أَحد كبار الأَمراء من الروم، دعاه إِلى الإسلام حتى أجاب وآمن وقاتل مع المسلمين حتى استشهد. وهكذا ظلّت الدّعوة هي الهدف الأَوّل مع دويّ المعارك.

وهكذا تظلّ الدعوة إِلى اللَّه ورسوله صلى اللَّه عليه وسلم هدفاً عظيماً، يحرّك المؤمن، إِلى السعي والعمل والبذل والجهاد. فهي مهمّة المؤمن قبل القتال، وأَثناء القتال، وبعد القتال، ما أمكنه ذلك. وهي مهمّته في كل وقت، يصب فيها عرقه وجهده وطاقته.

وقد كتب عمر بن الخطاب إِلى سعد بن أبي وقاص رضي اللَّه عنهما، ليذكِّر ويثبِّت: «**إنِّي قد كنت كتبت إِليك أن تدعو الناس إِلى الإسلام ثلاثة أَيام فمن استجاب لك قبل القتال، فهو رجل من المسلمين، له ما للمسلمين وله سهم في الإسلام ....**»[1].

هو الهدف ذاته، كان يَعْلَمُهُ سعد بن أَبي وقاص، ولكن عمر رضي اللَّه عنهما كتب ليؤدي الأَمانة، ويوفي بالعهد، فيذكِّر، ويثبّت، فَيَطْمَئِنّ. هو الهدف ذاته: الدعوة إِلى اللَّه ورسوله صلى اللَّه عليه وسلم مازال ممتداً هذا الامتداد، على نهج عظيم.

وكذلك دعا سلمان الفارسي قومه وهو يحاصرهم، دعاهم ثلاثة أَيام، إِلى الإسلام قبل أَن ينهدوا إِليهم. وكذلك دعا النعمان بن مقرّن، وفرات

(١) أخبار عمر وعبد اللَّه بن عمر لعلي الطنطاوي وأخيه ناجي (ط: ٢) (ص: ٢٤٣)

ابن حيان ، وحنظلة بن ربيع التميمي ، وعطارد بن حاجب ، والأشعث بن قيس ، والمغيرة بن شعبة ، وعمرو بن معد يكرب ، دعوا رستم إلى الإسلام . وكان مما جاء في قول المغيرة بن شعبة : « **إنّا ليس طلبنا الدنيا وإنما همنا وطلبنا الآخرة** ....» **الآخرة** . وكذلك قال : « **وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة اللّه** ....» . هدف ممتد واضح ثابت في القلوب .

وكذلك دعا حذيفة بن محصن ، والمغيرة بن شعبة ، رستمَ في اليوم الثاني والثالث . وبعث سعد رضي اللّه عنه طائفة من أصحابه يدعون كسرى إلى الإسلام قبل القادسية .

وكذلك فعل عمرو بن العاص رضي اللّه عنه عندما غزا مصر . فلما نزل بهم قاتلوه ، فأرسل إليهم : لا تُعجّلونا لنعذر إليكم ، وترون رأيكم بعد . فكفوا أصحابهم وأرسل إليهم عمرو : إني بارز فليبرز إليَّ أبو مريم وأبو مريام . فأجابوه إلى ذلك ، وأَمِنَ بعضهم بعضاً . فقال لهما عمرو : أنتما راهبا هذه البلدة فاسمعا : « إنّ اللّه عزّ وجل بعث محمداً صلى اللّه عليه وسلم بالحقّ ، وأمره به وأمرنا به محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وأدى إلينا كلّ الذي أُمِرَ به ...... وكان مما أَمرنا به الإعذار إلى الناس فنحن ندعوكم إلى الإسلام . فمن أَجابنا إليه فمثلنا . ومن لم يجبنا إليه عرضنا عليه الجزية .....» .

فهي إذن الدعوة إلى اللّه ورسوله صلى اللّه عليه وسلم ، الدعوة إلى الإسلام ، هي التي حركت الجيوش ، ودفعت الجنود ،تنفيذاً لأَمر اللّه سبحانه وتعالى وأَمر رسوله صلى اللّه عليه وسلم .

وكذلك دعا أبو موسى الأَشعريُّ أَهل أَصبهان إلى الإسلام قبل القتال .

هذه نماذج لنرى فيها امتداد الدعوة ، ووضوح الهدف وقوته . وهو هدف ماض إلى يوم القيامة ... لم يتعطل إلاّ حين تعطلت الجهود ،

واسترخت العزائم، على توان وكسل، وغفوة وخدر، لا يرضى به الدين، ولا هو من الإيمان.

إنّ الدعوة قد تتعطل أو تنحرف، وذلك من الجهد البشريّ الذي قد يتعطل أو ينحرف. أما القاعدة الإيمانية فإنّ الدعوة يجب أن تمضي في الأرض مع كل الظروف والأحوال، حتى يرث اللّٰه الأرض ومن عليها.

ولقد عرضنا هذا، ليتبينَّ المؤمن اليوم، أَنّ الدعوة إِلى اللّٰه ورسوله صلى اللّٰه عليه وسلم، الدعوة إِلى منهاج اللّٰه - قرآناً وسنّة -، الدّعوة إِلى الإسلام، هدف عظيم للقاء المؤمنين، بل هو الهدف الثابت الأول، هو الهدف الذي يقود إِلى الهدف الأسمى، الجنّة والدار الآخرة. عرضنا هذا ليتبينّ للمؤمن هذه الحقيقة من خلال الآيات القرآنية، والأَحاديث النبوّية، وسيرة الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم، وسيرة الخلفاء الراشدين. وما عرضنا هنا إلا نماذج سريعة، ولمحات خاطفة، وقبسات، نرجو أن تكون قد أبرزت الهدف، وبيّنت معالمه.

ونجد من المناسب أَن نوجز ما عرضناه في نقاط محددة:

١- إِنّ الدعوة إِلى اللّٰه ورسوله صلى اللّٰه عليه وسلم، هو أعظم هدف، وأبرز غاية، للقاء المؤمنين في الحياة الدنيا. فهو يؤدي إِلى الهدف الأَسمى والأكبر - الجنّة، وهو يجمع بشموله سائر الأهداف. وهو هدف ربّاني أَمر به اللّٰه رب العالمين.

٢- الدعوة إِلى اللّٰه ورسوله صلى اللّٰه عليه وسلم. هي الدعوة إِلى منهاج اللّٰه - قرآناً وسنّة -، إِيماناً، وعلماً، وعملاً، ونهجاً. ليكون منهاج اللّٰه هو مصدر الفكر والتصور، ومصدر اليقين والعقيدة، ومصدر التخطيط والنهج. وقد سبق عرض تفاصيل ذلك في كتاب

«**دور المنهاج الربّانيّ**» وكتاب «**لقاء المؤمنين**» الجزء الأول. ويمضي ذلك كله لتكون كلمة اللّٰه هي العليا.

٣- الدعوة تتوجه إِلى الناس كافة. ولكنّ المؤمن يبدأ بنفسه عناية، ومحاسبة، وبناء وتدريباً، حتى يكون للمؤمن أَو للجماعة، أَو للأُمّة نهجاً واعياً، وخطة مدروسة تتحرك بها الدعوة، وتقوم على قواعد المنهاج الربانيّ، والواقع البشريّ الذي تعمل به.

٤- وعمل الدعوة، لا ينحصر في الوعظ والإرشاد، ولكنه يدخل كافة ميادين الحياة، ويمتد مع امتداد حياة المؤمنين، على نهج، ومراحل، وإِعداد.

٥- والدعوة جهد بشريّ يقوم به المؤمنون، وهو عمل ممتدّ، ماضٍ إِلى يوم القيامة، لا يتوقف. يُمارس فيه المؤمنون أداء العبادة، والوفاء بالأمانة، والقيام بالاستخلاف، من خلال ابتلاء وتمحيص.

٦- وتمضي الدعوة على نهج مدروس، وخطة واعية، كما ذكرنا، في كل حال، ومع كل ظرف. وتصبح القوى التي تتوافر للدعوة في مسيرتها خادمة لها، عاملة من أجلها، تتفاعل معها، لتزداد القوّة، ويستقيم النهج. فالجهاد يدفع الدعوة، ويتحرك لأَجلها. والسلطان قوة للدعوة، يمدّها بالعزة والمنعة.

٧- يمكن إيجاز مسيرة الدعوة بأربع مهمات كبرى كما سنفصلها في الصفحات المقبلة:

الدّعوة والبلاغ والبيان.

البناء والإِعداد والتدريب.

بناء الأُمّة والتوجيه في صف مرصوص.

عمارة الأرض بحضارة الإِيمان والتوحيد

٨- والدعوة تختار الأُسلوب الأَمثل على ضوء واقعها . وخطتها المتكاملة : الحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أَحسن ، والعقاب بالمثل ، والصبر دون المعاقبة . وكثيراً ما يكون الصبر أعظم فائدة ، وأكثر بركة ، من المعاقبة بالمثل . ذلك حين تختار الدعوة الصبر عن نهج وخطة ، وإيمان وعلم ، ووعي وفطنة . وكذلك الأَمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى الخير ، والقدوة العمليّة التي تستقيم على أمر اللّه ولا تتبع الهوى ، والعدل والعمل الدائب الذي يرجو به المؤمن أَن يكون هو الحجّة له على الكافرين ، والجهاد بكل أَشكاله وضروبه ، والقتال في سبيل اللّه ، لتكون كلمة اللّه هي العليا ، والسلطان والقوة ، والإعداد ، والبناء ، والتدريب ، والنهج والتخطيط ....!

٩- وللدعاة نهج وخلق لا يخرجون عنه . فإن خرجوا عنه فقد أَضروا بالدعوة ، وقد يضعفون شأنها ، وقد يسببون لها النكسة والهزيمة . ونورد نماذج من خلق الدعاة . والقرآن وحده هو الذي يجمع ذلك جمعاً فريداً معجزاً :

المؤمنون الذين يَرَوْن الدنيا متاعاً وما عند اللّه خير وأَبقى .
والذين على ربهم يتوكلون .
يجتنبون كبائر الإثم والفواحش .
يغفرون إذا غضبوا .

يستجيبون لربهم بإقامة شعائره ، والتزام حدوده ، والنهوض إلى تكاليفه .

أمرهم شورى بينهم .
ينفقون مما رزقهم اللّه فلا يبخلون أبداً .
ينتصرون إذا أصابهم البغيُ .

يعفون حين يكون العفو أقرب للتقوى ، وأَدنى إِلى النهج ، ويُعاقِبون حين تكون العقوبة أَرضى للّه ولرسوله صلى اللّه عليه وسلم ، وهي أقرب إِلى النهج ، يعملون صالحاً عن إِيمان وإِسلام في طريق الدعوة ، ويدفعون بالحسنة السيئة لتأليف القلوب وجمعها على الإِيمان ، مادام ذلك يبلغ الغاية .

يصبرون صبر إِيمان ، وعزة ويقظة ، وعمل ، وسعي ، وخطة ووعي . يجاهدون في سبيل اللّه بأَموالهم وأَنفسهم ، ويطرقون كل أَبواب الجهاد ، فيقاتلون في سبيل اللّه لتكون كلمة اللّه هي العليا ، يقاتلون قتال إِيمان وإِعداد وقوة ، قتال نهج ودراية . يقاتلون ليكون منهاج اللّه وحده هو الذي يحكم .

١٠- لقد امتدت الدعوة إِلى اللّه رب العالمين ، إِلى دين اللّه ، مع آدم عليه السلام . وظلت الدعوة هدف الأنبياء والرسل جميعهم ، فخُتِمُوا بمحمد عليه الصلاة والسلام . فكانت حياته كلها تبرز هذا الهدف العظيم . وكان القرآن الكريم يتنزل ليرسم للدعوة طريقها ، من خلال جهد بشريّ ، تقوده النبوّة ، ويرعاه الوحي ، ليكون النموذج الكامل للبشريّة ، والنموذج الأَمثل للأُمّة المسلمة ، وهي تحمل هذه الأَمانة بعد النبوة الخاتمة . لأَجل الدعوة بُعثت النبوّة ، وجاءت الرسل ، وأُنزلت الكتب السماوية .

١١- وهذا الجهد البشريّ ، بهذه القيادة ، وهذه الرعاية ، كان يسير على نهج مدروس ، وخطة محكمة ، قامت على أساس قواعد منهاج اللّه الذي يتنزّل ، والواقع الذي تعمل فيه الدعوة . ومثل هذا النهج يتضح لنا ، ونحن نتابع مراحل الدعوة ، ونحن نتدبر آيات اللّه . واللّه قادر على أَن يتمّ أمره بلحظات . ولكن كلمته سبقت ، وسننه ماضية ، لا

تتبدل ولا تتحول. فجاء العمل المنهجيّ، والخطة المدروسة، مع وجود النبوّة، ورعاية اللّه، جاء هذا ليعلّم المؤمنين أبد الدهر، أهمية النهج والتخطيط، وضرورته. حتى يرفع المؤمنون الغفلة، وينفوا الاسترخاء، ويردُّوا الكيد والمكر، ويمضوا على بركة ونور. وعلى ثقة بنصر اللّه إن صدقوا اللّه ما عاهدوا عليه. وستظل رعاية اللّه تحفُّ الدعوة والدعاة، وتحمي النهج والتخطيط، مادام ذلك كله قائماً على إيمان صادق، وعلم بمنهاج اللّه، ودراسة للواقع. وحسن توكل على اللّه.

١٢- إذا تتبعنا سيرة الرسول صلى اللّه عليه وسلم نلمس عظمة النهج، في ميدان الممارسة والتطبيق. فلقد كان هنالك مراحل تمر بها الدعوة، وتنسجم مع الواقع، ويرعاها اللّه. وكلما اشتدت المحنة، زاد النهج دقّة. ولقد ساعد المؤمنين في ممارستهم ونهجهم وضوح الهدف. وكان وضوح الهدف وسلامة النهج من الأسباب الرئيسية التي ردّت مكر الأعداء، وأنقذت النُّفوس من وهن، ودفعت الخُطى إلى نصر، وإلى الوثبة الكبرى، وإلى الهجرة التي جمعت عظمة التخطيط، وشدة الإيمان، ورحمة اللّه الحانية، ولقد برز كذلك دقّة التنسيق بين دور الفرد والأُمّة، حتى أصبح من المتيسر متابعة النهج مع النصر، كما كانت مع المحنة.

١٣- ومن أبرز معالم السيرة، وملامح النهج، هو إعداد الجيل المؤمن القويّ، إعداد تلامذة مدرسة النبوّة، إعداداً أهّلهم لحمل الأمانة، ومتابعة التخطيط، والمضيّ إلى الهدف. إنه الجيل المؤمن. إنه الجيل الذي يَضمُّ أُولي الألباب، يضم العلماء العاملين، يضم الموهبة، والوسع، والخبرة. يضمّ عاملين يأخذ كل واحد منهم مكانه، وترعى الأُمة منزلته. فإذا المواهب تنمو، والقدرات تتسع، والرعاية شاملة.

رعاية تفتح السبيل لكل ذي حقّ، وتغلق الدرب أمام كل ذي هوى وفتنة. إنها مدرسة تكشف الزيف فلا يخدعها، وتصهر المعادن حتى تعرفها، وتمحص السجايا حتى تبرزها. فما استطاع منافق أو صاحب هوى أن يتسلم رقاب المؤمنين. وعن الجيل المؤمن حديث خاص في هذا الكتاب.

١٤- إنّ صدق الممارسة الإيمانيّة عن إيمان ويقين، وعلم وتبيين، ونيّة وعزيمة، وطهر ووضاءة، كان الصفة المشرقة في عظمة الطاقة البشريّة.

من هذا العرض السريع يتضح لنا أهمية هذه القضية – قضية الدعوة إلى الإيمان والتوحيد، إلى اللّه ورسوله. إنها في ميزان الإسلام أَخطر قضية في حياة كل إنسان، وهي الحقيقة الكبرى في الكون كله ترتبط بها سائر الحقائق فيه. وبغير هذه الحقيقة الكبرى تنهار كل الحقائق وتتحول إلى فتنة وشر وفساد، ويتحول الإنسان إلى قطيع من الأَنعام تسوقه الأَهواء والشهوات في متاهة مظلمة.

إن الدعوة إلى الإيمان والتوحيد يجب أن تُبرز خطورة هذه القضية وأهميتها بأدلتها من منهاج اللّه من الواقع والتاريخ. ويجب أَن توضح كذلك أنها قضية الفطرة التي فطر اللّه الناس عليها، وبثّ آياته في الكون لتكون دالة عليها، ووهب الإنسان السمع والبصر والفؤاد ليعي هذه الآيات فيعتبر ويزداد إيماناً. ومن أَجل هذا كله بعث اللّه النبيين والمرسلين وأنزل معهم الكتاب، وكان محمد صلى اللّه عليه وسلم خاتم الأنبياء والرسل، وكان القرآن الكريم مهيمناً على الكتب السابقة ومصدّقاً لها، حتى لا يكون للناس على اللّه حجة بعد الرسل.

وعلى الدعوة أَن توضح من خلال منهاج اللَّه وآيات اللَّه في الحياة والكون حقيقة الأُلوهية والربوبية وحقيقة عبودية الإنسان لربه وخالقه ومولاه. ثم تربط هذا كله بحقيقة الولاء الأول للَّه سبحانه وتعالى لينبثق منه ويرتبط فيه كل ولاء يقيمه المؤمن في حياته الدنيا. وتربطه كذلك بالعهد الأول مع اللَّه لتنبثق منه وترتبط فيه كل عهود الإنسان في حياته الدنيا. ويحوط ذلك كله الحب الأَكبر للَّه ولرسوله، ومن هذا النبع العظيم للحب ينشأ كل حب في الحياة الدنيا ويرتوي منه.

وعلى الدعوة أن تبيّن للناس أَن الإيمان قضية مفاصلة وحسم، وتكاليف والتزام، ومسئولية وحساب. وأَن منهاج اللَّه هو الذي يُفَصِّل هذه التكاليف والمسئوليات والمفاصلة والحسم، والالتزام والحساب. وأن من أَهم التكاليف والمسئوليات هو تبليغ دعوة اللَّه للناس على نهج مدروس وخطة جلية تقوم على منهاج اللَّه والواقع.

● ● ●

وفي ختام هذا الفصل نورد الكتب المنهجيّة التي نقدّمها مع كتاب: «لقاء المؤمنين – الجزء الثاني – الأهداف»، والتي ترتبط بقضية الدعوة إلى اللَّه ورسوله، إلى الإِيمان والتوحيد، والتي تعرض النظرية لهذه القضية والنهج التطبيقي لها في الميدان:

١– دور المنهاج الرباني في الدعوة الإِسلامية: الباب الثالث – (ط: ٦).

٢– منهج المؤمن بين العلم والتطبيق: الباب الثاني – الفصل الأول – (ط: ٥).

٣- نهج الدعوة وخطة التربية والبناء - الباب الثالث.

٤- قبسات من الكتاب والسنة - تدبّر وظلال - الباب الأول وفصوله الخمسة.

٥- التوحيد وواقعنا المعاصر.

٦- النيّة في الإسلام وبعدها الإنساني.

٧- الولاء بين منهاج الله والواقع.

٨- الحوافز الإيمانيّة بين المبادرة والالتزام.

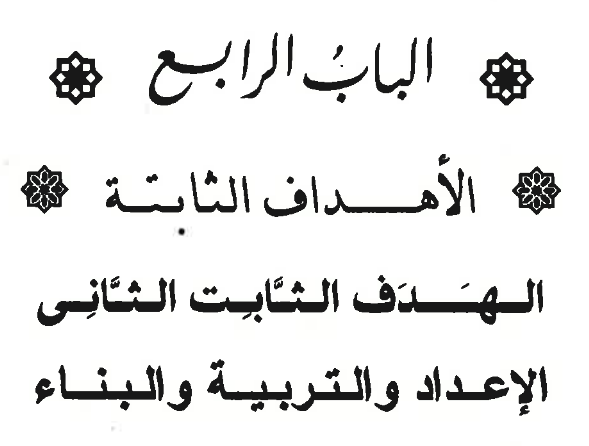
٩- الخشوع.

١٠- الحقيقة الكبرى في الكون والحياة.

١١- العهد والبيعة وواقعنا المعاصر.

ونؤكد هنا أن هذه الكتب المنهجيّة هي جزء من النهج العام للدعوة الإسلامية والنظرية العامة لها. ولكل جزء أو بند من النهج والنظرية العامة كتبه المنهجية التفصيلية، لتعمل الأجزاء والبنود كلها معاً مترابطة متناسقة، حتى تتحقق الأهداف في الواقع البشريّ على درب ممتدّ إلى الهدف الأكبر والأسمى - الجنة، الدار الآخرة - رضوان الله.

* * *



الباب الرابع

الأهداف الثابتة

الهدف الثابت الثاني

الإعداد والتربية والبناء

الباب الرابع

الهدف الثابت الثاني

الإِعداد والتربية والبناء

إن جنود الإِيمان الذين استجابوا إِلى الدعوة إِلى اللّٰه ورسوله صلى اللّٰه عليه وسلم ، لا يُترَكون هَمَلاً في الحياة ، لا ترعاهم يد حانية ، ولا يظلّهم فيء نديّ . إِنها أمانة لقاء المؤمنين ، إِنها أمانة المؤمن الفرد ، وأمانة الأُمّة ، وأمانة العلماء والسلطان . إِنها مهمة الرجل والمعهد ، والرفقة والصحبة ، والتجارة والعمل ، والسعي في كلّ ميدان .

ولقد جعل اللّٰه سبحانه وتعالى في نظامه قواعد تتعهّد المؤمن مع أول خطواته في درب الإِيمان . جعل اللّٰه سبحانه وتعالى المرابع النضرة ، والتُربَة الريَّانة ، تعمل في كلّ حال ، ومع كلّ زمن ، مهما أظلمت الأيّام واحلولكت الأحداث . إِنها مرابع الخير ، وبيوت النّور ، ومنابع البركة ، تعهّد اللّٰه بحفظها ، وأمر عباده المؤمنين بالتمسّك بها .

١– عاملان لهما خير ممتدّ لا ينقطع :

ونود في هذه العجالة أن نركز على أمرين من مرابع الخير ومنابع البركة لأنّهما يعملان أبداً ، وينتجان بصورة عجيبة ، وبقدر ربّانيّ معجز .

أ – المساجد :

الأَوّل هو المساجد التي أمر اللّٰه ببنائها ، وحضّ على أَداء الفرائض فيها ، وجعل أجر صلاة الجماعة تزيد على أجر صلاة الفرد سبعاً وعشرين درجة ، وفي رواية خمساً وعشرين درجة . وسيظلّ للمسجد دوره الرائد العظيم في

احتضان أبناء الإسلام، حين يخذلهم الآخرون، وينقطع عنهم الكثيرون، وينفرط عقد، أو تعمّ محنة وابتلاء. في هذه الحالة، وفي أيّ حالة أخرى يظلّ المسجد يمدّ بالنور والخير، ويظلّ عطاؤه أصفى، وأنقى، مهما غلب العكر في أجواء المجتمع.

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۝٣٧ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(النور: ٣٦- ٣٨)

هذا هو تعهّد المسجد. إنها بيوت اللّه، أذن اللّه أن ترفع ويذكر فيها اسمه. فهو أمر من اللّه، ورعاية منه، وفضل ورحمة وظلال وفيء، وبلال وأنداء، ثمّ هو تعهّد وتربية وبناء: تسبيح بالغدوّ والآصال من رجال صادقين، عاملين، يسعون في الحياة الدنيا سعياً لا ينسيهم بيت اللّه، ولا الأمانة التي حملوها، ولا إقام الصلاة، ولا إيتاء الزكاة. ما أعظم هذا التعهُّد وهذه الرعاية، حين تبلغ أعلى درجاتها، فتهزّ الجوارح والقلوب، وتتحرّك الخشية، والخوف، وتظل القلوب بين خوف ورجاء، خوف من عذاب اللّه، ورجاء برحمته ومغفرته ليجزيهم أحسن ما عملوا من فضله، فاللّه يرزق من يشاء رزقاً واسعاً بغير حساب. هذا هو التعهد، وهذه هي الرعاية الممتدة مع الزمن لا تتعطل.

وتظلّ بيوت اللّه يموج فيها النور: «**اللّه نور السموات والأرض ....**»، وتظلّ على صفائها ونقائها، فلا تصح فيها الدعوة لغير اللّه، فهنا في المسجد يظلّ التوحيد نوراً يتلألأ، والبركة فيضاً يموج.

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ (الجن : ١٨)

دعوة خالصة ، وتوحيد صاف ، وخشوع وإنابة ، ورعاية وتربية ، وإعداد وبناء .

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأعراف : ٣١)

إقبال على بيت اللّه في خشوع وتقوى تدل عليها الزينة التي تستر ، وممارسة لأمور الحياة دون إسراف حتى لا تصدّ عن بيوت اللّه .

وكذلك إقبال فيه توحيد خالص وبراءة من الظلم والشرك ، وقسط أمر به اللّه ....

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (الأعراف : ٢٩)

لقد بلغ شأن المساجد في دين اللّه هذا العلوّ ، حتى أصبح من يمنع مساجد اللّه أن يذكر فيها اسمه ، ظالماً ظلماً عظيماً ، لا ظلم أكبر منه .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (البقرة : ١١٤)

هذه هي منزلة المساجد ، وهذا هو ميدانها . يجب أن تصان عن الدنس والرجس ، وتُحمىَ من الأعداء والكفّار ، حتى تمضي في أداء رسالتها مع

الزمن كله، قدراً من عند الله:

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ۝١٧ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (التوبة: ١٧، ١٨)

حماية وصون، ورعاية وبناء، يجمع ذلك كله قوة الإيمان وصفاء التوحيد (ولم يخش إلا الله)، وقوة الممارسة (وأقام الصلاة وآتى الزكاة ...). وتمضي مهمّة المساجد في هذه الرعاية لأبناء الإسلام تمدُّهم بريّ اليقين إن ظمئوا، وبغذاء القرآن والسنّة، تمدّهم بالحياة، وتحفظ لهم قوّة، وتدفع لهم خطوة، والله غالب على أمره، فيمضي ذلك بقدر الله وأَمره.

وستظل المساجد في رعاية الله. وستظل سنن الله الماضية في الأرض، على حكمة بالغة من الله، تحمي المساجد، وتصون بيوت الله.

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج: ٤٠)

وهكذا ارتبطت حماية المساجد بسنن الله الغالبة من ناحية، وارتبطت من ناحية أُخرى بالجهد البشريّ المؤمن، الجهد الذي يهبُّ لنصرة الله، فينصره الله، وتُحمَى مساجد الله وبيوت الله، بين تكبير وتهليل، مِنْ نَصرِ

إلى نَصرٍ بإذن اللّه .

ولقد كانت المساجد في حياة الرسول صلى اللّه عليه وسلم هي مكان « مدرسة النبوة » ، هي المدرسة والجامعة ، مع كل ما تحمل من أنوار الشعائر التي تقام ، وفيض البركة الذي يموج . ولقد كانت المساجد دار الشورى ، وملتقى أهل الرأي ، ومركز الدولة في مختلف شئونها . وتابعت المساجد مهمتها هذه مع الخلافة الراشدة .

وإذا ضَمُرَت المهمّة في عصر من العصور ، فإنها ستظل قادرة على مدد المؤمن ، ودفع الخطوة ، وإعداد وتدريب ، وتربية وبناء . وتظل المساجد تقدّم خيراً في كلّ حال ، مهما ساء الحال ، وستظل كلمة اللّه هي الغالبة ، وسيظل خير الإيمان يمتدّ .

ب - المنهاج الربّانيّ :

والثاني هو المنهاج الربّانيّ - قرآناً وسنَّة ولغة عربية -. وقد فصلنا عن دوره في كل ميدان في كتابنا « **دور المنهاج الربّاني في الدعوة الإسلامية** » . ولكننا هنا نوجز الأمر بأن نؤكد ونكرر أهميّة مسئولية الفرد المؤمن في مصاحبته لمنهاج اللّه . إنّ هذه المصاحبة التي عرضناها ، تمسك بيد المؤمن لتدفع خطوته ، وتحنو عليه ، لتمدّه بالغذاء لينمو ويشتد .

ولقد تعهَّد اللّه بحفظ المنهاج الربّانيّ . وسمَّاهُ « **الذكْر** » . وما أَعظم هذه التسمية ، وهي تُذكّر من ناحية بمهمة منهاج اللّه ، وتوحي بها إِيحاء قويّاً ، مع ظلال التسمية ، وبَلال الممارسة ، وحلاوة الترديد ، من ناحية أُخرى .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩)

هذا المنهاج الربّانيّ الذي تعهّد اللّه بحفظه ، مُتيسّر بقدر اللّه الغالب ،

بين أيدي المؤمنين. فإن عجز أحد عن الأخذ منه، فإنّ الذنب ذنبه، والإثم إثمه، إلا أن يكون له عذر عند اللّه، يقبله منه، ويتوب عليه. إنّه متيسّر، وكذلك ميسّر. إنه ميسّر للذكر....! مُيسّر للوعي والتدبر، للعمل والممارسة.

وهذه المصاحبة الكريمة لمنهاج اللّه، تعين المؤمن على أن ينال غذاءه ليقوى ويَشتد، ويُطِفئ ظمأه ليروى وينطلق. ولا شيء سوى هذا المنهاج الربّانيّ يستطيع أن يقدّم هذا الخير، وهذه البركة على مدى العصور والأجيال، عطاءً لا ينقطع، وفيضاً لا يتوقف. لا يتوقّفُ إلا في قلوب كافرة جاحدة، أو نفوس منحرفة منافقة.

إنّ عطاء المنهاج الربّانيّ يمتدّ غنيّاً قويّاً في جميع الظروف: من قوّة أو وهن، وسلطان أو شتات، وعزّة أو ضياع....! إنّه يظلّ يمدّ حتى يشتدّ العود، ويقوى الساق، وتنطلق الخطوة.

ومع القوّة والسلطان، ينمو عطاؤه، ويمتدّ خيره، ويتسع ميدانه، دون أن يفقده المؤمن العامل في أشد الأيام حلكة، وأقسى الأيام محنة.

ولا بدّ لنا في هذه العجالة أن نلخّص أُسس الأَخذ عن منهاج اللّه، حتى تتضح الصورة، ويستقيم النهج:

١- دراسة منهاج اللّه وتدبّره أمر من اللّه سبحانه وتعالى.
٢- إنّها مسئوليّة الفرد المؤمن وواجبه، دون أن تنقص هذه المسئولية مسئولية العلماء، وأُولي الأمر، والمعاهد.....!
٣- يأخذ كل مؤمن قدر وسعه وطاقته التي وهبها اللّه له، والتي سيحاسب عليها.

٤- إنها مهمّة عمر وصحبة حياة. إنها مهمّة لا تتوقف.

٥- يكون الأخذ عن منهاج الله، أخذاً منهجيّاً، تمضي به الخطة، ويحتويه النهج.

وسنعود إلى هذا الموضع بتفصيل أوسع في أبحاث مقبلة إن شاء الله.

هذان عاملان مهمّان في التربية والبناء في الدعوة الإسلامية، في لقاء المؤمنين. إنهما عاملان مهمّان لما يحملان من قوّة المضيّ، ومغالبة الأحداث، على قدر للّه غالب، وسنن ماضية. إن هذه السِّمة قد تبرز أَهمِّيتُها في فترة من حياة المسلمين أكثر مما تبرز في فترة أخرى. ولكنها تظلّ في جميع الحالات سمةً بارزة، وخيراً ماضياً، وعطاءً ممتدّاً.

من هنا، تتضح أهميَّة أَخذ هذين العاملين في الاعتبار، أخذاً واعياً قويّاً، حين يضع لقاء المؤمنين نهجه وخطَّته. وعند وضع نهج أو خطة نجد أنفسنا مضطرين لإعادة التذكير بالقاعدتين الرئيستين لذلك.

٢ - قاعدتان رئيستان في النهج والتخطيط للتربية والبناء:

إنّ هاتين القاعدتين هما:

(أ) دراسة منهاج اللّه وتدبّره تدبُّرَ إيمان وتصديق، ووعي وعلم.

(ب) دراسة الواقع البشريّ، الذي يُفهم من خلال منهاج اللّه، ويوزن بميزانه.

عندما نتتبّع نهج «مدرسة النبوّة»[1] ميدانها، منهاجها، آدابها، وسائلها، أهدافها،......، عندما ندرس هذا كلّه، فإنه يقدّم لنا النموذج الأمثل للتخطيط، لأنه النموذج الذي جَرَى تطبيقه في الواقع البشريّ، في

(١) ملامح من مدرسة النبوّة: الباب الخامس- دور المنهاج الربانيّ في الدعوة الإسلامية.

رعاية اللّه ، والوحي يتنزّل ، يسدّد ويقوّم ، يؤدب ويعلم .

٣ - مهمّة الطاقة البشريّة :

إنّ عرض العاملين الممتدّين ، وكذلك عرض القاعدتين الرئيستين ، إنّ هذا العرض كله يبرز لنا أهميّة الطاقة البشريّة في العمل والجهد ، في الدعوة والبيان ، في التربية والبناء . فإذا كان المسجد والمنهاج الربّانيّ عاملين ممتدّين على النحو الذي عرضناه ، يظلّان يعملان حين تضعف الطاقة البشريّة ، أو تضمر إمكاناتها ، إذا كان هذا هو الحال ، فإنّ الطاقة البشريّة تظلّ أبد الدّهر تحمل المسئولية ، وتحاسب عليها . إنّ هذه المسئوليّة تدخل في نطاق العبادة التي خُلِقَ الإنسان لأَدائها ، والأَمانة التي حملها ، والاستخلاف الذي أنيط به ، والإعمار الذي طُلب منه ، من خلال تمحيص وابتلاء .

إنّ الطاقة البشريّة المؤمنة محاسبة ومسئولة ، ومكلّفة شرعاً ، بأن تنهض إلى أمانتها ومسئولياتها . فهي التي تقوم بمهامّ التربية والبناء ، وهي التي تضع الخطّة وتفاصيلها ، والنهج وسبيله . وإلى هذه الطاقة البشريّة المؤمنة العاملة ، توضع مثل هذه الأبحاث ، لتَستكْمِلَ ، على طريق العمل ، سلامة النهج ، وسلامة التخطيط .

ولقد بيّنا في الأَسطر السابقة ملامح من هذا التخطيط . لقد بيّنا أن التخطيط يقوم على القاعدتين الكبيرتين : المنهاج الربّانيّ والواقع البشريّ ، وعلى القاعدة الصلبة - الإيمان والتوحيد - . ولكنّ الطاقة البشريّة هي المسئولة عن وضع هذا التخطيط على أساس هذه القواعد ، وعن وضع تفاصيله .

ومن هذه القواعد يتضح لنا ، بصورة مباشرة ، هدفاً رئيساً من أهداف التربية والبناء ، وغاية عظيمة من غاياته ، ألا وهي تدريب المؤمن على سلامة

ممارسة منهاج اللّٰه الذي آمن به ، ودرسهُ وتدبَّره ووعاه ، في الواقع البشريّ الذي يعمل فيه ، ويتحرك فيه .

إن هذه الممارسة الإيمانية ، وهي ممارسة منهاج اللّٰه في الواقع البشري ، تحتاج إلى تدريب شاقّ طويل ، وإعداد ماهر كبير ، وتخطيط إيمانيّ قادر . إنها هدف رئيس من أهداف التربية .

إنّ هذه الممارسة الإيمانية يجب أَن تقود إِلى « العمل الصالح » ، وهي تحمل خصائصها الإيمانية ، ابتداءً من النيّة الصادقة ، إِلى سائر الخصائص الأخرى ، التي تهدف في مجملها لأن تجعل العمل مطابقاً لشرع اللّٰه ، ومنهاج اللّٰه . ومن هذا التصوّر الإيمانيّ يصبح العمل الصالح مرتبطاً بالهدف الأسمى - الجنة - .

وستظل القضايا التالية من عناصر التدريب والإعداد ، والتربية والبناء : سلامة الإيمان وقوّته ، ونموّه أو نقصه ، المحاسبة الإيمانية والإشراف والتوجيه والمراقبة والتذكير ، والتوبة والاستغفار ، وأُداء الشعائر كلها ، فرضها ونافلتها ، الخشوع ، والدعاء والذكر ، والتسليم لقضاء اللّٰه دون عجز أو كسل ، والتدبّر والنظر والاعتبار ، إِلى سائر القواعد التي رسّخها الإسلام كعناصر لبناء الشخصية المؤمنة وتربيتها .

من هنا نلاحظ أنّ عمليّة التربية والبناء مع أيّ عقيدة أُخرى ، قد تجد سهولة نابعة من تفلّت ، ويسراً ناجماً عن هوى . وأما في الإسلام فإنّ عمليّة التربية والبناء عمليّة دقيقة نامية ، شديدة متماسكة ، تحتاج إِلى رجالها ودعاتها . وهي في الإسلام تظلّ تجد سهولة نابعة من ثراء المعين ، ويسراً نابعاً من رحمة اللّٰه .

ونحاول الآن أن نستعرض بعض أهداف التربية والبناء في لقاء المؤمنين. إنّنا نعلم، ونحن نورد هذه القضايا، أنه سبق لنا أن طرحنا بعضها بإيجاز أو تفصيل. ولكن مع كل عرض يكون هنالك محور رئيس. ومحور العرض هنا هو دراسة الأهداف نفسها بخطوطها العامّة.

٤ - أهداف رئيسة للتربية والبناء:

إنّ بعض أهداف التربية والبناء هي أهداف ثابتة ممتدّة مع الزمن، وبعضها متجدّد على ضوء الواقع الذي تعمل فيه. يمكن أن نضع الأهداف كلّها في صيغة تقرّب لنا الصورة، قبل تفصيل الدراسة. إنّ هدف التربية والبناء هو إعداد الجيل المؤمن الذي يعي منهاج اللّه وعيَ إيمان وتدبّر وعلم، ويعي الواقع البشريّ الذي يعيش فيه من خلال منهاج اللّه، فيزنه بميزان منهاج اللّه، ويتدَرّب على ممارسة منهاج اللّه ممارسة إيمانيّة واعية في الواقع البشريّ، على أساس من نهج وتخطيط، ووعي وتدبير، حتى يستطيع القيام بالعبادة التي خلق لها، وأداء الأمانة التي حملها، والخلافة التي أنيطت به، والإعمار الذي طلب منه، ذلك كله من خلال ابتلاء وتمحيص، يصبر فيه حتى - يجلى - معدنه، ويبرز جوهره.

من هذا التعريف الشامل، نستطيع الآن أن نضع بعض الأهداف الرئيسة للتربية والبناء، لتعين في وضع نهج، أو دفع خطوة.

(٤ - أ) الإيمان والتوحيد:

تهدف التربية إلى تثبيت الإيمان في القلوب، وترسيخ معنى العبوديّة للّه، وإفراده بالربوبية، وتوحيده دون شرك، ليكون هذا هو مصدر الشعور والإحساس، والفكر والتصوّر، ومصدر الحوافز للسلوك، وللعمل والنهج

في شئون الحياة كلها . ويكون النهج القرآني ، وأسلوب منهاج اللّه ، هو الأساس والمنطلق لتنمية الوسائل والأساليب لتحقيق ذلك ، حتى لا تصبح قضيّة الإيمان قضيّة فلسفيّة تفقد إشراقة الحقّ ، ونضارة اليقين . ولا بدّ من تجديد الوسائل في إطار منهاج اللّه ، مع ما يهيئه اللّه للإنسان من آيات متجدّدة في الآفاق وفي أنفسهم ، حتى يتبيّن لهم أنه الحقّ . وهذا الهدف العظيم هو جوهر الدين وأساسه ، ففيه تصب المواهب والجهود لتثبيت الإيمان وإزاحة ظلام الكفر .

(٤ – ب) العلم :

ونستطيع ، على ضوء ما درسناه في « مدرسة النبوّة » ، أن نضع العلم في ثلاث وحدات كبيرة :

(ب . ١) المنهاج الربّانيّ .

(ب . ٢) الواقع البشريّ من خلال منهاج اللّه .

(ب . ٣) العلوم التخصصيّة ، وقد تعتبر جزءاً مساعداً لدراسة منهاج اللّه ، أو جزءاً من دراسة الواقع .

وقد سبق أن أفضنا في هذا الموضوع ، في أكثر من موقف . ونعرضه هنا على أنه هدف من أهداف التربية والبناء ، يرتبط مع سائر الأهداف ، يرتبط بالإيمان ، وينطلق منه ، ويبنى عليه . وما ذكرناه سابقاً يغني عن الإعادة هنا . إلا أن قوّة الممارسة تحتاج إلى قوة في التخطيط والنهج ، تقوم به الطاقة البشريّة المؤمنة .

(٤ – جـ) حماية الفطرة ، وتنقيتها :

بتثبيت الإيمان والتوحيد على النهج القرآني ، وبتغذية العلم ، فإننا نحمي

فطرة الإِنسان ونصونها ، وننقيها ونطهرها . إنّها الفطرة التي فطر اللَّه النّاس عليها . إنها الفطرة التي جعلها اللَّه مستعدّة لتلقّي رسالة اللَّه ، ولتكون خاضعة للتوحيد ، عابدة للَّه . وقد ينشأ بعض المسلمين على عادات وأعراف ، وقواعد وأفكار بعيدة عن الإسلام ، وهم يحسبونها جهلاً أنّها من الإسلام . فإذا ثبتت هذه في طبعه ونفسه ، فإنها تولّد فيه قوى عاملة تحدد له نهجاً وسلوكاً ، سواءٌ أشعر هو بذلك أم لم يشعر ، وقواعد الإيمان الحقّة تمثل كذلك قوة عاملة فيه . ومن هاتين القوّتين ، أو القوى ، ينشأ صراع داخليّ فيه ، يقوى أو يضعف ، على قدر ما تشتد أو تضعف هذه القوى ، ويشتد صراعها أو يضعف . إن نتائج هذا الصّراع النفسيّ الخفيّ تصل أحياناً إِلى أبعد مما نتخيله للوهلة الأولى والنظرة العجْلى . وإن هذا الصراع قد يؤثر في طبيعته وفطرته . إنّ رحمة اللَّه في ما هيأه للناس من منهاج ربّانيّ ، تقدم شفاء لذلك بإذنه تعالى . وكذلك رحمة اللَّه في ما يهيئه بمَشيئَتِهِ من جهد بشريٍّ مؤمن ، يحسن وضع النهج والخطة في ميدان التربية والبناء ، لتقدّم كذلك علاجاً لهذا الصراع ، بتصفية النفس من العادات والأعراف المنافية لقواعد الإيمان ، وتنقية الإيمان من شوائب المجتمعات ، وسائر ما يحمله الإنسان في نموّه ومسيرته من شوائب وزبد ، ليستقر في قلبه الإيمان الطاهر النقيّ ، وتنطلق الفطرة السليمة .

إن عدم حماية فطرة الإنسان ورعايتها ، يهدد سلامة حياة الإنسان نفسه ، ويهدد المجتمع البشريّ كلّه ، ويهدد سلامة لقاء المؤمنين ، والعمل الإيماني .

إن هذه الرعاية ، وهذه التصفية والتنقية ، تحتاج إِلى جهود مؤمنة عالمة عاملة ، تضع النهج الذي ينمو مع نموّ الممارسة ، وازدياد الخبرة ، ونموّ الإيمان العامل ، والعلم العامل .

وحين تبحث المنظمات الدولية والقطرية عن حقوق الإنسان، فإنها تهمل هذا الحق الأول للإنسان في هذة الحياة الدنيا، حقّه في أن تُحمى فطرته من أن تُشَوَّه حتى تظلَّ قادرة على استقبال رسالة اللّه، لينجو في الدنيا والآخرة. إنه الحق الأول والأكبر، الحق الذي يستحقُّ أن يجاهِد الناس من أجله.

(٤ - د) التدريب على الممارسة الإيمانيّة:

إن ممارسة أيّ قاعدة تحتاج إلى تدريب. هذه هي طبيعة الإنسان، وهذه هي فطرته التي فُطر عليها. إن «النظريّة المجرّدة» لا تعني أنّ الإنسان أتقن ممارستها بمجرّد الإلقاء والتنبيه. إنه يحتاج إلى تدريب، حتى يتقن الممارسة التطبيقية لهذه القاعدة أو تلك. إنّ التدريب سنّة اللّه في الحياة الدنيا. خلق اللّه الإنسان ووهبه الاستعداد لنموّ المعرفة، والممارسة، والتفكير.

إنّ التدريب السليم يحتاج أوّلاً إلى وضع نهج وخطة، يحمل النهج صدق النيّة وسلامة الأسلوب ووضوح الهدف. وهذه العناصر الأَربعة هي ركائز التخطيط الإيمانيّ:

النية الصادقة.
الصراط المستقيم.
الأهداف المؤمنة الواضحة.
الوسائل والأساليب.

هذه كلها ينضمّ بعضها إلى بعض لتقيم ركناً أساسيّاً للممارسة الإيمانية، أَلا وهي ردّ الأمور كلها إلى منهاج اللّه، كلٌّ في نطاق مسئولياته وأَمانته، ووسعِهِ وطاقته.

والتدريب يقوم على خطوات أساسية كذلك :

(د . ١) وضوح القاعدة النظرية وفهمها وإعادتها وتكرارها .
(د . ٢) تقديم المثل والقدوة .
(د . ٣) ممارستها في مرحلة تحمل التعاون والمشاركة .
(د . ٤) ممارستها في جوّ من النصح والإرشاد ، والتذكير ، والتوعية ، والاستفادة من الخطأ حتى تستقيم الخطوة .
(د . ٥) ثم الممارسة في جوّ من المراقبة والتقويم ، دون تعطيل النصح والإرشاد ، والتذكير والتوعية .

بهذه المراحل يصبح تدريب المؤمن على ردّ قضايا الحياة إلى منهاج اللّه تدريباً منهجياً بإذن اللّه تعالى . إن التدريب يحمي المؤمن أو يساعد على حمايته ، في طريقه الطويل ، حتى لا يقع في هوّة مؤذية ، أو يستدرج إلى سقطة ، أو يُخدع بمكر . ويظل لقاء المؤمنين بأهدافه المشرقة ، ووسائله الطاهرة ، حماية وصوناً ، وعوناً وقوّة .

(٤ – هـ) تنمية المواهب والقدرات :

إن اللّه سبحانه وتعالى ، وهب عباده طاقات مختلفة ، ووسعاً يختلف من رجل إلى آخر . لقد خلق اللّه الناس درجات تتفاوت في أمور عدة . ومن بين هذا التفاوت الوسع والقدرة والموهبة والطاقة .

والموهبة المؤمنة يجب أن تُرعى وتصان ، وتُنَمّى وتقوى ، في لقاء المؤمنين ، في ظلال الإيمان ، وأنداء الإحسان ، بعيداً عن التحاسد والتباغض ، والحقد والتناجش يجب أن تُرعى الموهبة وتنمو في جوّ نقيّ طاهر ، وتربة غنيّة طاهرة .

إن الهوى وما يثيره من حسد وبغضاء والجهل وما يثيره من عداوة وشحناء، يقتلان المواهب المؤمنة، في فتن بعد فتن، وسراب يمدُّه سراب، فتستهلك الطاقات حتى تُفنى، وتستغلّ حتى تتيه.

وإنّ ضياع النّهج يساعد على ضياع الموهبة، وتمزّق الطاقة، وتفتُّت الوسع.

إن لقاء المؤمنين يحمل مسئولية هذه الرعاية، وأمانة هذه التربية، وسلامة هذا البناء. إن الموهبة والوسع، كما سنتحدث في فصول مقبلة، قوّة من قوى الإيمان، وسلاح من أسلحته. والمؤمنون اليوم يحتاجون إلى جمع قواهم، ليقفوا أمام عدوهم. وأهم هذه القوى هي الطاقة البشريّة، وما تحمل من وسع وموهبة.

(٤ - و) ربط القواعد التطبيقيّة بالقواعد الخلقية:

إننا نورد هذا الهدف حتى يظل منهاج اللّٰه في قلوبنا على تكامله وتناسقه وترابطه. وحتى لا يهبط المسلمون أثناء مسيرتهم وفي أي لحظة من لحظات العمل، تحت ضغط الظروف، والمصالح، والأهواء، عن أخلاق الإسلام لِواهي الأعذار، وساقط المسوغات. فالإسلام مثلاً لم يرخص بالكذب إلا في ثلاثة مواضع. فمن تجاوز ذلك فقد ظلم. ومن ناحية أخرى، فإننا نورد هذا الهدف حتى لا يُخدَع المؤمن فيستدرج إلى فتنة أو هلاك، تحت طلاء خفيف من شعار محبّب، لا ينكشف زيفه إلا بعد سنين....! وتظلّ قوّة الإيمان، وقوّة العلم بمنهاج اللّٰه والواقع البشريّ، وقوة الموهبة، ردءاً يدفع عن المسلم هذه الأخطار والمزالق. ويظلّ لقاء المؤمنين بأهدافه المشرقة، ووسائله الطاهرة عوناً للمسلم، حتى يرى سلامة الإيمان والعلم والممارسة. وحتى لا يقع المؤمن في هوّة مؤذية فعليه أن يعيَ

دائماً أنه يجب أخذ هذا الدين على تكامله وتناسقه ، دون أن يأخذ جزءاً ويدع آخر . إننا بحاجة إلى أن نتدرّب على جميع قواعد الإيمان كما تدرّب عليها الصحابة رضي اللّه عنهم في مدرسة النبوّة .....!

إن الحذر لا يعني إباحة الغدر ، فالغدر ليس من الإيمان . وإن الفطنة لا تعني سوء الظنّ الآثم ، ولا تعني الخيانة ، فذلك كلّه ليس من الإيمان . وإنّ النصيحة لا تُسوّغ قطع العهود التي ربطها اللّه ووثّقها الإيمان . يجب أن تظلّ الممارسة الإيمانيّة تحمل إشراقة قواعد الإيمان كلها في المنشط والمكره ، وفي ما نحب أو نكره ، يراها العدوّ والصديق ، القريب والغريب .

(٤ – ز) معرفة المسلم لحدوده ومسئولياته :

ولقد عرضنا لهذا الأمر كثيراً ولكننا نشعر أن حاجتنا إلى فهمه على أسس شرعية ، يزداد يوماً بعد يوم . إنّ الجهل بقواعد هذا الدين ، قد يدفع المسلم لأن يتجاوز حدّه فيأخذ بقاعدة من قواعد هذا الدين العظيم ، فيطبّقها في غير موضعها ، أو يترك تطبيق بعض القواعد ظنّاً منه أنها ليست ضرورية .

وللنجاة من هذه المزالق نرى أنّ هنالك أمرين : أمر يتعلق بالشخص ذاته لا نملك إلا أن نعين ونقويّ ، ولكننا لا نستطيع أن نبدّل ونغير . وهذا الأمر هو وسع الإنسان الذي يختلف من شخص إلى شخص . وهنا على المسلم نفسه أن يعرف وسعه وحدوده ، وأن يعينه لقاء المؤمنين على ذلك ، حتى يلتزم هذا الوسع فلا يتعدّاه إلى ما لا يقوى عليه حقيقة من مسئوليات ، أو إلى رغبة في زخرف ومتاع . ويتحمل المسلم نفسه أمانة ذلك قبل غيره . ويتحمل الآخرون مسئولية النصح والتذكير ، والعون والتوجيه ، في ميدان التربية والبناء . والأمر الثاني وهو الجهل . منطلق الجهل قد يقع المسلم

بأخطاء واسعة، وقد يدفعه جهله إلى أن لا يعرف حدوده، ووسعه، وطاقته. ويتحمل المسلم نفسه مسئوليّة رفع الجهل عن نفسه. ويتحمل لقاء المؤمنين ذلك بما فيه من علماء، ومعاهد، وسلطان.

فحديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم:

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم:

«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

(رواه الترمذي وقال: حديث حسن)[١]

فقد يؤدِّي الجهل بالمسلم إلى خطأ ممارسة هذا الحديث النبويّ الشريف. وقد يدفعه إلى ذلك الخطأ هوى، أو جهل وهوى. ذلك حين يدع ما يعنيه. ويتمسّك بما لا يعنيه. فهو لا يدري ما يعنيه وما لا يعنيه. فعندما يدرس المؤمن منهاج اللّه على تكامله وتناسقه، يعرف عندئذ معرفة صادقة ما يعنيه وما لا يعنيه، ويعرف حدوده ومنزلته، ويعرف حدود الناس ومنازلهم. وتتناسق خطاه على صورة أقرب للتقوى.

(٤ – ح) التنسيق بين مسئوليات الفرد وحدوده ومسئوليات الأُمّة:

إنّ هذا الهدف يرمي إلى جمع جهود المؤمنين وتنسيقها، حتى تظل كلها في مجرى واحد، يجمع قوّة إلى قوة، وعزماً إلى عزم.

وجميع الأهداف السابقة تمهّد لهذه الغاية العظيمة والأمل الكبير.

وفي الحقيقة، فإنّه لا يهدف إلى جمع جهود الأفراد وتنسيقها هي وحدها فحسب، ولكنّه يهدف إلى تنسيق القوى الإيمانية، والمؤسسات الإيمانية، حتى تظلّ جهود الإيمان تصبّ في مجرى الخير والنور على

(١) الترمذي: كتاب الزهد (٢٧). باب (١١). حديث (٢٢١٧)، مالك: حديث (١٦٢٩).

تناسق وتعاون وتكامل.

بتحقيق هذا الهدف في مدرسة النبوّة، استطاعت مدرسة النبوّة أَن تحقّق في واقع الحياة خلال عشرين عاماً ما تعجز عنه أي أُمّة في قرن أو قرون. ذلك لأنها جهود انتظمت وتناسقت، واتحدت وتكاملت، وأخذت كلّ طاقة مكانها الأمين، وأدَّتْ واجبها الحقّ.

(٤ – ط) تنمية روابط الإيمان ووشائجه في موالاة صافية بين المؤمنين تجمع قوى الإيمان كلها :

ولقد تحدثنا عن ذلك بشكل مفصل في كتابنا **دور المنهاج الربّانيّ في الدعوة الإسلامية** وعددنا الروابط والوشائج، وأثبتنا البيّنة من القرآن والسنّة، بما يغني عن الإعادة هنا.

والذي نود تأكيده هنا، هو أنّ هذا الهدف يجب أن يأخذ صورته الربّانية المشرقة، الصورة القرآنية المنيرة. وكذلك يجب أن تأخذ – شأنها شأن سائر قواعد الإسلام – منزلتها العمليّة التطبيقية في حياة لقاء المؤمنين، على صورتها الربّانيّة والقرآنيّة. إنّ رابطة الإيمان يجب أن لا تتحوّل إلى عصبيّة جاهلية، تضيع فيها الحقوق والواجبات. بهذا التصور وهذا التطبيق، تتجمع قوى الإيمان دون أن تمزقها فتنة، أو يبعثرها هوى.

(٤ – ي) الإدارة والنظام، والدقة والإتقان :

إننا نبرز هذه القضيّة كهدف من أهداف التربية الإيمانية، لما مسّ كثيراً من التصوّرات بعض الخلل نتيجة جهل أو هوى، على مدى طويل من التاريخ.

إنّ الأخوّة في الله، والثقة والاطمئنان، والود والمحبّة، والوفاء والتكريم، والاحترام والتقدير، لا يعني أبداً أن تصبح العلاقات بين المؤمنين لا ينظمها

نهج، ولا تخضع لضوابط، ولا تنساق لقانون، ولا تنسجم مع إدارة. إن الإيمان والعقيدة، وكل قاعدة من قواعد الإسلام، لتدعو إلى دقة الإدارة والنظام. إن الإسلام يأبى أن يتفلّت المسلمون في متاهات الفوضى والاضطراب، تحت شعارات برّاقة محبّبة: الأخوّة، الحبّ في الله، الثقة، الاحترام..... إلخ، إنّ هذه الشعارات ذاتها هي التي تدعو إلى حسن الإدارة ودقّتها، والنظام وسلامته.

انظر في الشعائر كلها من صلاة وصوم وزكاة وحج، تجد فيها أدق نظام، وأجمل إدارة، وأسلم قواعد.

واستمع كيف يصف الله عباده المؤمنين:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (الصف: ٤)

(**كأنهم بنيان مرصوص**)..... ما أدق هذا التعبير عن النظام ودقّته، وتزيد الصورة وضوحاً مع كلمة «صفًّا». نعم إنهم صفٌّ واحد منتظم، **كأنهم بنيان مرصوص** لا يأتيه الخلل، ولا تفتح فيه ثغرات.

إنك لتعجب حقّ العجب حين ترى المسلمين في صلاتهم صفّاً مرصوصاً، وفي الحج على مناسك متناسقة، ثمّ تراهم في حياتهم الدنيا مِزَقاً وفرقاً شتّى، يضطرب فيهم النظام في البيت، والسوق، والشارع، والوظيفة.....! وترى في ديار الكافرين نظاماً في الإدارة والحياة العامة على فسق وفجور. ولكنّهم ينشأون على النظام منذ طفولتهم، ويعتادونه منذ نعومة أظفارهم، كما يتعلمون الفسق والفجور حتى ظنّ بعضهم واهماً أن هذا سمة لذلك. والحقيقة خلاف ذلك. فالإدارة والنظام

ينطلقان مع التربية والبناء، في أيّ أمة، وفي أيّ مجتمع. ولكنها في الإسلام أيسر وأدنى. ذلك لأن كل أوجه النشاط في الإسلام تقدم التدريب على النظام. وكذلك فإنّ النظام والإدارة يقوم بهما المؤمن عبادة وطاعة للّه، وإنه لجزء من إيمان وعقيدة، وسمة لنهج وتخطيط. إنها التربية والإعداد، والتكوين والبناء.

إن الإدارة والنظام يختصران لنا الوقت، ويقصّران الدرب، ويجمعان الجهود، ويقرّبان الأهداف. إن ما ننتجه في شهر بغير إدارة أو نظام، ننتجه بساعات أو أيام مع حسن الإدارة ودقّة النظام، وطهارة السبيل.

إننا نعرض هذه القضايا هنا بإيجاز، ونحن نؤمن بأن كلّ قضيّة تحتاج إلى دراسة مفصلة. ولقد سبق أن فصلنا بعضها، ونأمل أن نجد في دراسة الأهداف النامية تفصيلاً أوسع إن شاء اللّه.

لقد عرف الإنسان الإدارة والنظام منذ عهود بعيدة في التاريخ. عرفهما لأنهما ضرورة للحياة الاجتماعية، ضرورة لنمو وتطور حياة الإنسان في الأرض. ولقد عرفت جميع المناهج البشرية صوراً مختلفة من الإدارة والنظام. وتطورت معرفة الإنسان وتجاربه في هذا المضمار حتى أصبح اليوم علماً، شأنه شأن سائر العلوم الأخرى. ولكن قواعد هذا العلم مازالت مرتبطة في بعض أمورها بمناهج بعيدة عن الإسلام. فعندما ينطلق المسلمون يحملون الخير والبركة والنور للإنسان في الأرض، في رسالة الإسلام، فإنهم يستطيعون بإذن اللّه أن يضعوا قواعد الإدارة النابعة من عقيدتهم ويمدوا جذورها في تربة غنية لتمتد الفروع في الهواء النقي والأجواء الندية. عندئذ تصبح الإدارة والنظام جزءاً من رسالة وعقيدة، ويصبحان كذلك جزءاً من نهج في التربية والبناء، في التعهد والتكوين، لدفع الجيل

المؤمن، الجيل المزوَّد بعُدة قوية، وسلاح قويّ، المرتبط بحبل متين.

● ● ●

وفي ختام هذا الفصل نورد الكتب المنهجيّة التي نقدّمها مع هذا الكتاب: «لقاء المؤمنين - الجزء الثاني - الأهداف»، والتي ترتبط بقضيّة الإعداد والتربية والبناء مرتبطة مع الكتب المنهجية المتعلقة بقضية الدعوة إلى الإيمان والتوحيد، ومرتبطة بسائر الكتب المنهجية، لتعرض كلها النظرية والتطبيق في الميدان، نهجاً واحداً ونظرية واحدة مترابطة متناسقة للدعوة الإسلامية:

١- دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية - (ط: ٦).

٢- منهج المؤمن بين العلم والتطبيق - (ط: ٥).

٣- نهج الدعوة وخطة التربية والبناء.

٤- منهج لقاء المؤمنين.

٥- لقاء المؤمنين - الجزء الأول - القواعد والأسس.

٦- لقاء المؤمنين - الجزء الثاني - الأهداف.

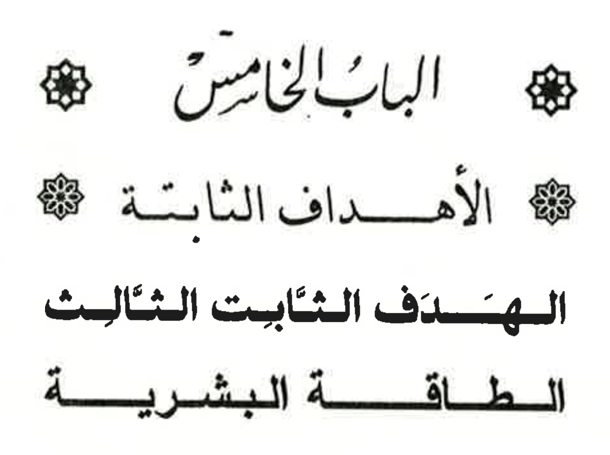
٧- العهد والبيعة وواقعنا المعاصر.

٨- قبسات من الكتاب والسنة - تدبر وظلال.

٩- كتب الأدب الإسلامي والنقد، والردُّ على المذاهب الأخرى، والدواوين الشعرية، والملاحم.

١٠- كتب دراسة أَحداث الواقع وتدخل الملاحم فيها.

١١- كتب دراسة بعض القضايا الفكرية في الواقع.



الباب الخامس

الأهداف الثابتة

الهدف الثابت الثالث

الطاقة البشرية

الفصل الأول

• الجيل المؤمن •

لقد عرفنا حتى الآن بعض «أهداف لقاء المؤمنين». عرضناها لتكون صورة العمل في واقعنا اليوم واضحة، قوية الوضوح. ولكن اللقاء، والدعوة، والجهاد، والدولة والسلطان، والعمل كله يحتاج إلى عزائم تنهض به، وسواعد تمضي به، وقلوب تحنو عليه، وأعصاب ترتبط فيه، وخُطى لا تنشغل عنه.

إنّ العمل كله يحتاج إلى الطاقة البشرية، والطاقة القادرة القوية، الطاقة الواعية العاملة ...! إنه يحتاج إلى جهد بشري.

إنه يحتاج إلى جهدي بشريّ، لأن هذه سنّة الله في الحياة الدنيا، سنّة ماضية، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً، ولن تجد لسنّة الله تحويلاً. ولو شاء الله لنصر رسله كلهم بكلمة منه، في لحظة خاطفة. ولكنّ سنّة الله مضت على الأنبياء والرسل، ومضت على محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وستظل ماضية أبد الدهر. إنها مشيئة الله، بيّنها لعبادة في كتابه الكريم. ولقد سبقت كلمة الله، وحقّتْ مشيئته، على علم، وحكمة، وعدل، منه سبحانه وتعالى، له الأسماء الحسنى كلها، له وحده، لا شريك له لقد سبقت كلمته سبحانه وتعالى، وحقت مشيئته، والله غالب على أمره. وقد ندرك طرفاً من حكمته، على قدر ما يعلّمنا الله سبحانه وتعالى، وقد تغيب أطراف أُخرى. فمن أَوجه حكمته تعالى التي بيّنها لنا الابتلاء والتمحيص.

﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ

قَٰتَلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ (محمد : ٤)

وتمضي الآيات الكريمة تعرض نماذج الابتلاء، وأبواب التمحيص، حتى تكتمل الصورة بكل عناصرها.

﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ (الأحقاف : ٣٥)

فالجهد البشريّ إذن ضرورة في هذه الحياة الدنيا. إنها ضرورة لبلوغ أهداف وتحقيق غايات. ولكن الجهد البشريّ، على قدر ما هو ضروريّ، لا يقرر النتيجة التي يمضيها اللّه بقضائه وقدره، وحكمه وربوبيته. فدور الجهد البشريّ، يجب أن يتضح بكل جلاء، وتكرار، وتذكير، حتى لا يلتبس الأَمر، فيحسب جاهل أنه انتصر بجهده، وغَنِيَ بسعيه، وعلا بعلمه، وينسى أنّ جهده، وسعيه، وعلمه، ذلك كله، يضعه عبادة وطاعة للّه، وقياماً بواجب الاستخلاف في الأرض، ووفاء للأَمانة التي خلق لها، مهما تكن نتائج سعيه من نصر أو هزيمة، أو غنى أو فقر، أو قوة أوْ ضعف. والعبد محاسب بين يدي اللّه على سعيه، وعلى ما أدى من عبادة، وأوفى من أمانة، وصدق باستخلاف. ولا يحاسب على كونه فقيراً أو غنيّاً، إذا صدق سعيه وجهده.

فلقاء المؤمنين، إذن، يحتاج إلى الجهد البشريّ، إلى الطاقة البشريّة، إلى السعي، والجهد، والبذل......!

ولقاء المؤمنين لقاء ربّانيّ، فتكون خصائصه بذلك ربّانيّة، وتكون

أهدافه ربانيّة . ولذلك فإنه يحتاج إلى الجيل المؤمن الربّانيّ ، لينهض إلى هذه الأهداف ، ويسعى إليها . جيل ربّانيّ صنعه كتاب اللّه ، صنعه التدبّر والدراسة ، صنعته الممارسة الإيمانية ، والعمل الصالح .

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (آل عمران : ٧٩)

ولكن كونوا ربّانين .....! عِلْمهم من كتاب اللّه المنزّل من عند ربهم ، وحكمتهم من حكمة الكتاب ، وخُلُقهم من خُلق الإيمان ، وبذلهم وجهدهم على نهج ربّانيّ ......! كل أمرهم متصل باللّه ، عملهم ، وخلقهم ، وسعيهم ، ونهجهم . جيل فريد ......! جيل ربّانيّ .....! جيل يصنعه المنهاج الربّانيّ ....! وتمضي الآية الكريمة لتحدّد مصادر تكوين هذا الجيل ، وأسلوب صياغته ....:

(بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) .

إنّه تدبّر الكتاب المنزل من عند اللّه ، ودراسته ، وتعليمه ، والدعوة إليه ، والتزامه ، إيماناً ، وتدبُّراً ، ودراسة ، وعلماً ، وممارسة ، ليصوغ ذلك كله الفكر والتصور ، والعقيدة واليقين ، والنهج والدرب ، والعمل والممارسة . فإذا ذلك كله ربّانيّ ، مشرق بنور اللّه ، مرتبط بالحقّ من عند اللّه .

إنِ لقاء المؤمنين يدعو الناس كلهم إلى الإيمان باللّه واليوم الآخر ، وإلى سائر قواعد الإيمان . إنّه يدعو الناس كلهم ، لأَنّ جميع الخلق سيحاسبون بين يدي اللّه سبحانه وتعالى ، يوم القيامة ، فرداً فرداً :

﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ (مريم : ٩٥)

﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ (الكهف: ٤٨)

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٤)

ولذلك كانت رسالة محمد صلى اللّه عليه وسلم، إلى الناس كافة، قويّهم وضعيفهم، غنيهم وفقيرهم، أبيضهم وأسودهم، وإلى الأجيال كافة، وإلى العصور كافة:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾
(الأعراف: ١٥٨)

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ: ٢٨)

نعم .....! إن رسالة اللّه هي للإنسان، وللناس جميعاً، ذكوراً وإناثاً، أغنياء وفقراء، أقوياء وضعفاء، لكل جنس، ولكل لون. لأن كلّ إنسان سيحاسب بين يدي اللّه، يوم القيامة. فالدعوة إذن تتوجه إلى هؤلاء جميعهم، ولا تنخنق في إطار محدود. ولكنّ هذا التوجه لا ينطلق بصورة عفويّة، ولا يتخلى عن قواعد الدعوة وأُسس الدعاة، على نحو ما عرضناه سابقاً. ومن أهمّ هذه القواعد والأسس، أن يكون هنالك نهج واع، وخطة مدروسة، تستوعب الطاقة والجهد، وتقوم على قاعدتين أساسيتين: المنهاج الربانيّ، والواقع البشريّ.

ومهما تكن هذه الخطة ، فإنها ستقوم بجهد بشريّ . إن الجهد البشريّ هو الذي سيضع هذه الخطة ، وإن الجهد البشري هو الذي سيمضي بها ، ممارسة وتنفيذاً .

إنّ هذا الدور للجهد البشريّ ، هو سنّة من سنن اللّه في الحياة الدنيا . وهو أمر لا يتعارض مع حقيقة الإيمان ، وحسن التوكل على اللّه ، وصدق الرجوع إليه ، فإليه وحده يرجع الأَمر كله . بل هما أَمران مرتبطان أَشد الارتباط ، متناسقان أجمل تناسق .

والجهد البشريّ يقرر أمره منهاج اللّه ، ويبين منزلته ومكانته .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (الملك : ١٥)

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (هود : ٦١)

وعمل الإنسان في الحياة الدنيا ، هو مدار محاسبته في الآخرة . وتظل الآيات الكريمة تقرن العمل الصالح بالإيمان . ويظل عمل الإنسان كذلك خاضعاً لسنن اللّه في الكون ، لا يرى فيه المؤمن إلّا أنه : عبادة ، وأَداء أمانة ، وقيام باستخلاف ، من خلال ابتلاء وتمحيص . ويتناسق معنى الجهد البشريّ من خلال هذه السنن ، أجمل تناسق ، مع سائر قواعد الإيمان ، وسلامة التوكل على اللّه ، وصفاء الإنابة إليه .

وتأتي أَحاديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لتبينّ وتثبّت كذلك .

فلنستمع إلى بعض هذه الأَحاديث الشريفة ، لتكشف لنا عن شدة الترابط ، وجمال التناسق بين أَهمية الجهد البشريّ ، وصدق التوكل على اللَّه والإنابة إليه .

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « المؤمن القويُّ خير وأَحب إلى اللَّه من المؤمن الضعيف . وفي كلٍّ خير . احرص على ما ينفعك . واستعن باللَّه ولا تعجز . وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا لكان كذا . ولكن قل قدَّر اللَّه ، وما شاء فعل . فإنّ لو تفتح عمل الشيطان » .

(رواه مسلم) [1]

جمع هذا الحديث بهذا الأُسلوب المعجز كلَّ معاني الربط والتناسق . « **استعن باللَّه ولا تعجز** » ، قاعدة تُخرج كلّ طاقة الإنسان ، وتدفعها ، وتوجهها أَصدق توجيه . (**وإن أصابك شيء فلا تقل ....**) ، قاعدة أُخرى ، تدفع الإنسان إلى المضيّ ، دون أَن يقتله الندم ، أو يعطله الأسف ، أَو يقعده الأَسى . « **ولكن قل قدر اللَّه ....** » ، قاعدة تعلّم الإنسان الاستسلام الحق للَّه رب العالمين ، في ميدان العمل والبذل ، والسعي والعبادة ، والأَمانة والاستخلاف ، والبلاء والتمحيص .

عن أبي ذرّ جندب بن جنادة رضي اللَّه عنه عن النبيّ صلى اللَّه عليه وسلم فيما يرويه عن اللَّه تبارك وتعالى أَنه قال : « يا عبادي ، إنّي حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً ، فلا تظالموا . يا عبادي كلكم ضالّ إلّا من هديته فاستهدوني أهدكم . يا عبادي كلكم جائع إلّا من أَطعمته فاستطعموني أطعمكم . يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم . يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا

---

(١) مسلم : كتاب القدر (٤٦) . باب (٨) . حديث (٢٦٦٤) .

فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضُرّي فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر. يا عبادي إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أُوفيكم إياها. فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

(رواه مسلم)[١]

جمع الحديث الشريف خصائص الجهد البشريّ، وجّهها وجهتها الصادقة، وربطها مع حسن الإنابة، وصدق الرجوع إلى الله. جمع الحديث هذا الجمع، ووجّه، وربط، ذلك كله في جو من الخشوع، وأنداء الرحمة، وعظمة الربوبية، وعدالة الحساب.

لا ظلم ....! وإذا انتفى الظلم من العمل، فقد شعّ بنور الصدق، والطهارة. ورجوع إلى الله في كل أَمر، حتى يبلغ الإنسان النجاح والفلاح بعمله. وبغير هذا الرجوع، فلن يبلغ الإنسان شيئاً: فليسأل الإنسان ربّه الهداية، فهو الهادي، وليسأله الطعام فهو المطعم، وليسأله الكساء فالله هو الذي يكسو، وليسأله المغفرة فالله هو الغفار. وإن الله لقوي عزيز. لا يزيد التقاة في ملكه شيئاً، ولا ينقص الفجار من ملكه شيئاً. فهو ربّ السموات والأرض وما بينهما، وهو ربّ كل شيء. إنما هي أعمال الإنسان تحصى عليه. فإن وجد خيراً فذلك من رحمة الله،

(١) مسلم: كتاب البر والصلة (٤٥). باب (١٥) حديث (٢٥٧٧).

ومغفرته ، وفضله . وإن وجد غير ذلك فهو مما كسبت يداه ، ومن عدل الله وحكمته وعلمه ، فلا يلومنّ الإنسان إلاّ نفسه .

هذه هي السنن التي قضاها الله في هذه الحياة الدنيا . قواعد وسنن ربانية ، يراها المؤمن جليّة ، بيّنة ويراها ترسم له الدرب ، وتبينّ له مواضع الجهد ، ومنازل البذل ، وميادين الجهاد ، إن الله سبحانه وتعالى قضى بمشيئته ، أن يكون الإنسان الذي خلقه الله ، أن يكون جهده ، وبذله ، وسعيه ....، أن يكون ذلك كله ، هو منطلق الإعمار ، ومناط الاستخلاف ، وموضع الأمانة ، ولو شاء الله لقضى غير ذلك .

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ (الزخرف : ٦٠)

نعم ، لو شاء الله لجعل في الأرض ملائكة يخلف بعضهم بعضاً ، ويقومون بواجب الاستخلاف في الأرض ، بدلاً من الإنسان ، والله قادر على أن يفعل ذلك . ولكنّ مشيئته سبقت ، وكلمته سبقت ، وسنته ماضية ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ (الإسراء: ٩٥)

نعم ، لو كان في الأرض ملائكة ، لكان الرسل والأنبياء ملائكة . ولكن سنّة الله قضت أن يكون الإنسان هو موضع الأمانة والاستخلاف في الأرض .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾

(الذاريات : ٥٦ - ٥٨)

وكذلك :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴾

(الأحزاب : ٧٢ ، ٧٣)

وكذلك :

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ (الملك : ١ ، ٢)

وتمضي الآيات الكريمة تبيّن سنّة اللّه هذه ، وتبيّن طبيعة جهد الإنسان ، وخصائصه ، ومداره ، ومنزلته .

هذه الحقيقة ، يجب أن يعيها المسلمون الذين ينتسبون إلى العالم الإسلاميّ . يجب أن يعيها كل من ينتسب إلى الإسلام ، وعياً نابعاً من الإيمان ، ومن العلم ، وعياً تصدّقه الممارسة ، وتزيده التجربة عمقاً ويقيناً .

الملايين في العالم الإسلامي ، يدخلون المساجد ويخرجون ، يصومون ، ويحجون . ومع ذلك ، فإنّ العالم الإسلاميّ ما يزال في يومنا هذا ، مستضعفاً ، متأخراً ، غارقاً في أوحال وأوهام وأمانٍ . وأهل الفسق ، والكفر ، والفجور ، على قوّة ومنعة ماديّة . نهضوا « بالعلم » ونهض « العلم » بهم ، وقطعوا أشواطاً بعيدة . وصلوا القمر وجاوزوه واخترعوا ملايين الاختراعات ، واكتشفوا من سنن اللّه في الكون الشيء الكثير . وأعدُّوا قوّة ، ومالاً ، وسلاحاً ....! فعلوا ذلك كله ، من خلال فجور

وفسق وكفر بواح . ولا عجب في ذلك ، فهذه أيضاً سنة من سنن اللّه في الكون ، والحياة .

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ (الزخرف : ٣٣ - ٣٦)

ولكنّ العجب أن يظل المسلمون على ضعف وهوان ، وذلة وخذلان ، وتيه وضياع . عجب أن يكون حال المسلمين هواناً ، وقد هيأ لهم ربهم كلّ أسباب القوة والعزة ، والمنعة والسلطان . وإن كان لهذا الحال من أسباب ، فلعل أهمها هو ما نظنه في ضياع « الطاقة البشريّة » ، وتمزق « الجهد البشريّ » ، وانحراف البذل ، وغلبة الاستخذاء ....!

إنِ الدول الكبرى لم تبلغ ما بلغته ، بسحر أو معجزة . ولم يبلغوا ما بلغوه لأنهم خلق آخر متميّز . ولم يقيموا الصناعات ، ويجوبوا البحار ، ويخترقوا أجواء الفضاء ، لأن عقيدتهم حق ، وفكرهم سليم . فهم أهل عقائد شتى : منهم من يكفر باللّه كفراً كاملاً ، ومنهم من يشرك باللّه إشراكاً بيّناً ، ومنهم من يعبد الحيوان ، أو الإنسان ، أو الشهوة .... إلخ . إنهم بلغوا ذلك ، لأن السبيل إلى هذا التقدم ، هو درب مفتوح للإنسان ، لكل الناس ، لجميع الخلق ، للمؤمن والكافر ، للفاسق والفاجر ....! إنّ اللّه سبحانه وتعالى جعل هذا التقدم ، يمضي بالجهد البشريّ ، بالطاقة البشريّة ، على سنن ربّانية ثابتة ، وقوانين لا تتبدل ولا تتحول . فمن يضع الجهد

الصادق ، ويخضع لسنن الحياة ، يصل على قدر جهده وبذله ، وعلى قدر سعيه وعطائه .

إنها « الطاقة البشريّة » ، إنه « الجهد البشريّ » ، إنها السنّة التي أرادها اللّه في هذه الحياة ، إنها مشيئته ، وسنته ، وإرادته . نعم ...! إن هذا التقدم كله لا يفتح أبواب الجنّة للكافرين في الدار الآخرة ، ولا يغني عنهم شيئاً :

﴿ ... وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف : ٣٥)

ولكنّ التقصير فيه من جانب المسلم ، إثم يحاسب عليه . إن التقصير في بذل الجهد البشريّ ، لإعداد القوّة والتمكين للمؤمنين ، هو تقصير يجعل المسلمين في ذلة وهوان ، ويفتح ديارهم لكل غاز ومعتد ، ويجعل ثرواتهم ، وأَعراضهم ، وحرماتهم ، وأَموالهم ، وأَنفسهم ، نهباً لكل منتهب . إن التقصير في هذا الميدان ، هو تقصير بحقّ الدعوة ، ومجانبة للغاية التي خلق الإنسان لها . مجانبة لإعمار الأَرض الذي أمر اللّه به . مجانبة لحق الاستخلاف ، وقد قضى اللّه به . مجانبة لأَداء الأَمانة ، وقد فرضها اللّه ، وحملها الإنسان وهو محاسب عليها . إن التقصير في هذا السبيل ، يكاد يصبح صدّاً عن سبيل اللّه ، حين يمتلك الشيطان وسائل الاتصال ، ومنابع القوة ...! ويتلفت المؤمن ، هنا وهناك ، يمد يداً مرتجفة ، يستجدي ... على ذلة وانكسار ، وضيعة وحرمان . إنه إثم كبير ....! حين تستباح أعراض المسلمين .... والمسلمون في سبات ....!

نعم ....! إن كل ناطحات السحاب ، وكل مظاهر التقدم ، وزخرف القوة ، لن يفيد المشركين والكافرين يوم القيامة ، عند ربهم شيئاً .

﴿ ... وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف : ٣٥)

ولكنه إِثم كبير أَن يغفو المسلمون على تيه وضياع ، وذلة ومهانة ، ولا يتحرك الجهد البشريّ المسلم ، ولا تنطلق الطاقة البشريّة المسلمة ، لتجمع من أَسباب القوة ما تنصر به دعوة اللَّه ودين اللَّه ، وكلمة اللَّه ....!

إِنه الجهد البشريّ ، والطاقة البشرية . إِنها سنّة اللَّه في الأَرض ، ومشيئته في الحياة الدنيا . ليس هنالك سحر ، ولا معجزة . إِن الطريق مفتوح لكل من أراد أَن يسير فيه . وأَرائك النوم والاسترخاء متوافرة لمن أراد أن يتكئ عليها في غفوة وكسل .

هذه الحقيقة ، على بساطتها . وسهولتها ، على يسرها ووضوحها ، تحتاج إِلى إِعادة وتكرار . تحتاج إِلى تذكير بها ، وتنبيه إِليها . تحتاج إِلى أَن تظلّ مَطرقة على الرءوس لتوقظ النوّم والكسالى .

إِنّ الملايين الغارقين في أَوحال اللهو والشهوة ،والكسل والفراغ ، لا يدرون أَنهم لا يقتلون أَنفسهم وحدهم ، ولكنهم يقتلون أَمّتهم ، ويقتلون أَجيالاً قادمة .

إِنِ الدقيقة الواحدة التي يضيّعها الفرد المسلم اليوم ، دون إِنتاج يباركه اللَّه ، هي في حقيقة الأَمر ليست دقيقة واحدة ، ولكنها ملايين الدقائق والساعات . ولو نظرت في واقع أَمتنا اليوم ، وأَخذت قطاعاً محدوداً للدراسة والإِحصاء ، لوجدت فيه عدداً هائلاً من البشر تمرّ به الساعات ، بل الأَيّام ، بل الأَشهر ، بل السنين ، لا ينتج فيها ثمرة ، ولا يضع فيها جهداً . ولو جمعت الزمن هذا وضربته في عدد اللاهين ، لرأيت الوقت كيف يقتل ، والضياع كيف يكون . إِنها صورة مفزعة ، مرعبة ، ولكنها حقيقة .

إِن القضية التي نعرضها هنا ، هي منزلة « الجهد البشريّ » ومجال

« الطاقة البشريّة » . إِنها هي القضية التي نعرضها بقوة ، وتكرار ، لأنها من أَخطر مزالق الأُمة ، ومن أَخطر مهاوي الضياع .

إِن « لقاء المؤمنين » ، يعمل ويتحرك ، يسير على دربه ، ويمضي إِلى أَهدافه ، بالجهد البشريّ ، والطاقة البشريّة ، التي تسير على سنن اللّه في الحياة الدنيا ، وتمضي على نهج ميمون ، وسعي مبارك ، في ظلال الرحمة المندّاة ، والهداية الربّانيّة .

إِنّ عدد السكان الذين ينتسبون إِلى الإِسلام في الديار الإِسلامية وغيرها كان يقرب من سبعمائة وسبعين مليون نسمة (٧٧٠ مليون نسمة) تقريباً حسب إِحصائيات ١٩٧٢م . يمثلون ما يقرب من ٨٨٪ من جميع سكان هذه الديار الإِسلامية . ودار المسلمين تمثل تسعاً وعشرين دولة في قارة آسيا ، وثلاثين دولة في قارة أَفريقيا ، وسبع جمهوريات تخضع لروسيا ، ودولتان في أوربا هما ألبانيا والبوسنة والهرسك ، وأعداد منثورة هنا وهناك ، في شتى أنحاء العالم كله ، في بعض أقطار آسيا ، وأفريقيا ، وأوربا ، والأمريكتين ، وأستراليا ، وجزر المحيطات .

عدد هائل ليس بالقليل . عدد هائل من البشر ، بينهم أَقليات ، من أَقلها اليهود . ولكن الأَقليات على ضآلة نسبة عددها تحتل مكاناً كبيراً في الحياة الاقتصادية ، والسياسية ، والفكريّة ، والاجتماعية . وأهم أخطارها ، نفاذ بعضها على العالم الخارجي ، بصِلات ، وتعاون ، وعطف . وحسبك أَن أَصبح لليهود دولة في وسط هذا الموج البشريّ .

إِن هذه الصورة الغريبة ، تبين لنا أَهمية « الجهد البشريّ » ، في سنن اللّه في الحياة الدنيا . إِن جميع ميادين الحياة تتأثر بالجهد البشريّ . ومع الزمن يصبح التأثير المتبادل يضاعف الآثار السيئة . فعندما يضعف الجهد البشريّ مثلاً ، ينخفض مستوى الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، وغير ذلك من

أنماط الحياة، ثم يعود انخفاض هذه الأَنماط إلى إضعاف الجهد البشري، الذي يعود ويضعف قوى الأُمّة كلها، وهكذا يستمر التأثير المتبادل حتى تنهار الأُمّة.

ويبرز لنا بشكل أَوضح، هبوط الجهد البشريّ في دار المسلمين، عندما ندرس ثروات الأُمّة، وما أنعم اللَّه به عليها من خير وبركة، ومدى إنتاج الإنسان. فالثروة الحيوانية حالياً كالأغنام مثلاً تمثل ٢٠٪ من ثروة العالم، والأبقار تمثل ٢ر٨٪ والماعز يقدر بـ (٩٣) مليون رأس والأسماك بحدود ٦٪ مما يصيده العالم.

أما الثروة الزراعية: فالعالم الإسلامي ينتج ١٣٪ من إنتاج العالم فقط من القمح، و٨٪ من الشعير و١٤,٤٪ من الأرز، و٣٪ من الذرة فقط، و١٠٪ من قصب السكر، و٥٪ من الشمندر السكري، و٤٨٪ من الكاكاو، و٨٠٪ من النخيل الزيتي، و٣٥٪ من جوز الهند، و٧٪ من الشاي الأخضر، و١١٪ من البن، و٣٠٪ من الزيتون، و٢٧٪ من الفول السوداني، و٤٣٪ من القطن، و٧٥٪ من الجوت الذي تنتجه شبه القارة الهندية فقط، فهي المنتج الوحيد لها، و٨٠٪ من المطاط، ثم الفواكه والتوابل، وغير ذلك. وفي العالم الإسلامي ثروة كذلك من الغابات المتنوعة، التي تقدم الأَخشاب المختلفة.

والثروة الباطنيّة، التي تساعد على توليد الطاقة:

الفحم وينتج العالم الإسلامي ٣٪ من إنتاج العالم منه.

النفط وينتج العالم الإسلامي ٦٠٪ من إنتاج العالم منه.

والغاز الطبيعي ....!

والثروة المعدنية :

ينتج العالم الإسلامي ١٥٪ مما ينتجه العالم من الحديد ،

و٢٥٪ من النحاس ،

و٤٠٪ من الكروم ،

و٥٦٪ من القصدير ،

و٢٣٪ من الألمنيوم ،

و١٠٪ من الرصاص ،

و٢٥٪ من الفوسفات ، ومعادن أُخرى ما زالت في باطن الأَرض .

إِن النظرة السريعة لامتداد العالم الإِسلامي ، ثم دراسة الطاقة البشريّة فيه ، وكذلك الثروات التي ينتجها ، والثروات التي ما تزال مدفونة في باطن الأَرض ، ومساحة الأَراضي الصالحة للزراعة ، ومدى الإنتاج الزراعي ، ثم مدى التقدم الصناعي ، إِذا درسنا هذا كله ، نكاد نصل إِلى نتيجة مؤسفة ، هي أَنّ الطاقة البشريّة شبه معطلة . لقد تكاتفت مختلف العوامل ، واجتمعت خطط الأَعداء على شلّ الطاقة البشريّة ، وتمزيقها ، وسحقها .....!

إِن اللّه سبحانه وتعالى منَّ على المسلمين بنعم كثيرة لا تحصى .

﴿ ... وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم : ٣٤)

لا نستطيع أَبداً أَن نُحصي فضل اللّه علينا ، وعلى خلقه كلهم .ولكننا نبرز هنا ثلاث نقاط رئيسة لنبين خطورة التهاون الذي نقع فيه ، والتفريط

الذي قمنا به :

الأولى : الموقع الوسط ، الذي يسهل للأُمّة المقيمة فيه التحرك ، وقوة النشاط ، وحسن الاتصال . حركة مُيسَّرة في شتى الأَنحاء ، ومُيسَّرة في البر ، والبحر ، وميسرة إِلى مسافات قريبة ، ومسافات بعيدة . وكذلك موقع مبارك ، بارك اللّه فيه ، وبارك حوله ، وجعل فيه الكعبة المشرفة ، ومسجد الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، والمسجد الأَقصى .

والثانية : ثروة عظيمة في باطن الأَرض ، تنتظر عزم الإنسان ، وعزيمة الإيمان . وخيرات فوق الأرض ، وجنان وفواكه ، وأنهار . ومناخ متنوع ، ممطر وجاف ، وصحراء ، وحرّ وقرّ ، ولكل مناخ بركته وخيره . حتى يكاد يستطيع الموقع الوسط أَن يستغني بخيراته ، ويستقلّ على قوة وعزة ، إِذا صحت العزيمة وصدق الجهد .

والثالثة : موج هائل من الكتلة البشريّة ، قابلة للنمو والزيادة وما تزال مع ذلك كثافة السكان ضعيفة في كثير من المناطق . تدعو إِلى زيادة التوالد ، حتى تظل أُمّة الإسلام هي أُمّة الخير والبركة ، وأُمّة التكاثر والمنعة ، لخير الإنسان ونعمته ، لا لشقائه وفساده ، لخير الإنسان كله .

موقع وسط ، يتميّز بخير كثير ، وثروات في باطن الأَرض وظاهرها ، وبركات من السماء ، وموج بشري كبير ...! ذلك حتى لا يكون للإنسان المسلم في هذه الأَرض حجة يتعلل بها ، أوعذر يبرر به تقصيره ، وهوانه ، وضياعه .فمصادر القوّة المادية كلها مُيسَّرة للإنسان المسلم ، فما عليه إِلا أَن يصدق اللّه ، وينهض إِلى واجب العبادة التي خلق لها ، ويوفي بعهد الاستخلاف الذي وجد من أَجله ، ويؤدي الأَمانة التي حملها .

مساحة العالم الإسلامي في آسيا، أفريقيا، أوربا، أُستراليا، وجزر المحيطات هي بحدود «٣٠ر١٢٧ر٦٠٩» كيلو متراً مربَّعاً تضم من السكان بحدود (٥٦٦ر٤٥٢ر٠٠٠) نسمة حسب إحصائية عام ١٩٧٢م. فتكون كثافة السكان آنذاك بحدود ١٩ شخص لكل كيلو متر مربع واحد. وحسب إحصائية ١٩٨٠م تكون بحدود ٢٢ شخص في الكيلو متر المربع الواحد ولكنها تنخفض في بعض المناطق إلى أقل من أربعة اشخاص، وترتفع إلى حدود ٥٠٠ شخص للكيلو متر المربع الواحد في مناطق أخرى.

هذه المساحة، وهذا العدد من السكان، وطبيعة التوزيع السكاني، والثروات المدفونة، والثروات المنتجة، ومستوى الصناعة، يدعو بكل إلحاح إلى دراسة إيمانية، أمينة، واعية، تساعد الدعوة الإسلامية، وتساعد «لقاء المؤمنين»، على حسن النهج، وصدق الممارسة، وأَمانة التوعية.

إن النظم الإدارية، والأوضاع الاقتصادية، ومستوى العلم، ومدى ارتباط هذا كله بمنهاج الله، ونوعية الارتباط، والقدرة البشريّة على جودة الإبداع، في وضع النظام، ورسم النهج، يساعد كثيراً على التخلص مما يمتص الجهد البشريّ، ويقتل ويمزق العزيمة.

إنّ «الجهد البشريّ» يحتاج إلى «القدوة الرائدة» إلى الجيل القرآني، الذي سنتحدث عنه في الفصل المقبل. كما أَنَّه يحتاج إلى التربة الخصبة، والهواء النقيّ، والأَمن النفسيّ، وقبل ذلك كله، يحتاج إلى العقيدة الواحدة، التي تجمعه كله، ليصبَّ بركة وخيراً في «لقاء المؤمنين»، دون أَن يتمزّق، دون أن يتفرّق ....!

إن خصائص لقاء المؤمنين، كما وردت في «الجزء الأَوّل»، إذا توافرتْ في الجهد البشريّ، جمعته، وغذته، وقوّته، ونمّته، ليندفع في مجرى واحد، نوراً وبركة، وخيراً علىالإنسان، في الأَرض كلها.

والإسلام، وهو يقدر أَهمية الجهد البشريّ والطاقة البشرية، فإنه يضع القواعد لرعاية هذه الطاقة وحمايتها. ولا نستطيع هنا أنّ نلم بجميع هذه القواعد المفصّلة في منهاج اللّه، ولكننا نشير بإيجاز إلى أهمها:

١- العقيدة والإيمان، وما يتبع ذلك من تصورات فكرية، وقواعد خلقية، ومنهج حياة متكامل يرعى الإنسان في كل لحظاته، بينه وبين نفسه، مع خالقه وربه، مع أَهله وأَقربائه وأَرحامه، مع أَهل حيّه، ومدينته، وقطره، مع جاره وأَصدقائه، مع المسلمين عامة، وكذلك مع سائر خلق اللّه. يرعاه في عمله وفي خلوته، مع الأَشجار والورود وسائر النباتات، مع الحيوانات، مع سائر المخلوقات ...!

٢- المسئولية الفرديّة التي تجعل المسلم ينطلق من مبادرة ذاتية، وبحوافز إيمانية، تُسقط عنه الأَنانية، وتحميه من العزلة والضمور، أَو التمرد والغرور. وتبتدئ المسئولية الفردية مع العقيدة والإيمان، حين يتلو المسلم آيات اللّه:

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (الأنعام: ٩٤)

﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ (مريم: ٩٥)

٣- مسئولية الجماعة والأُمّة: وتبرز هذه المسئولية للجماعة والأُمّة من خلال الرحمة التي وسعت كلّ شيء، ومن خلال العذاب والعقاب الذي لا يترك أَحداً، عدلاً من اللّه العليم الخبير الحكيم ...

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف : ١٥٦)

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

(الأنفال : ٢٥)

وتبرز كذلك من خلال الخطاب الربّانيّ والنّداء العلويّ، من اللّه القويّ العزيز، وهو يخاطب عباده بقوله.

(يا أيّها الذين آمنوا .....) وقوله: **(ولتكن منكم أُمّة يدعون إلى الخير)**. وبقوله: **(وإنّ هذه أُمّتكم أُمّة واحدة)** وتبرز مسئولية الأُمّة والجماعة في آيات عديدة وأحاديث كثيرة، سبق ذكرها في فصول سابقة من «لقاء المؤمنين».

٤- ترابط المسئوليّة الفرديّة ومسئولية الأُمّة، من خلال التنسيق والتكامل، ومن خلال البذل والتعاون، ومن خلال العبادات والطاعات، ومن خلال معظم التكاليف الشرعية، والممارسات الإيمانية. فالصلاة فيها النافلة التي يستحب أن يؤديها الإنسان في بيته، وفيها الفريضة التي تؤدى جماعة في المسجد على زيادة في الأجر والثواب. وكذلك الحجّ الذي يجمع الأُمّة كلها، وصلاة الجمعة التي تجمع أهل الحيّ أو البلد. وكثير من ذلك.

﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (المائدة : ٢)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (الصف : ٤)

٥- معرفة المسلم لحدوده ومكانه، ووسعه وطاقته، وكذلك منازل الآخرين. حتى تحفظ الجهود وتصان، ويدوم الود ولا ينقطع. ولقد سبق إيراد هذا الموضوع، مع البيّنة من آيات وأحاديث، في كتابنا «**دور المنهاج الربّاني في الدعوة الإسلامية**»، وكتابنا «**ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية**»[1] وكتابنا «**لقاء المؤمنين**» الجزء الأول.

٦- رعاية الموهبة وتنميتها، وصيانة الوسع والطاقة وتوجيههما، لتأخذ كلّ طاقة مكانها، وتؤدي كلّ موهبة واجبها، على عبادة وطاعة. ذلك لأَن اللّه لا يكلف نفساً إِلا وسعها. فمن هذا التكليف وجب على الأُمّة أَن تضع كلّ طاقة في مكانها، حتى يؤدّي كلٌّ وسع طاعته، وعبادته، وتكاليفه.

٧- النموّ والتكاثر. فهذه قاعدة الإسلام الثابتة في رعاية الطاقة البشريّة، من حيث النمو والتكاثر، ليكون هذا النمو أحد مصادر القوّة والعزة، والسلطة والمنعة. وليس للإسلام في هذا الأمر سياسة أُخرى. وقد راجت في العالم الإسلامي «بضائع» شتى، من هنا وهناك، تدعو لتحديد النسل، تحت ألف شعار من فلسفة، أو اقتصاد، أو اجتماع، أو سياسة. والإسلام يرفض كل هذه الشعارات والفلسفات.

وهذا المبدأ الإسلامي العظيم في رعاية الطاقة البشرية، لا يؤخذ معزولاً عن غيره من القواعد، ولا يؤخذ معزولاً عن التصور الإيماني الشامل. إِنه مرتبط كل الارتباط بسائر القواعد: إيماناً وعقيدة ونهجاً.

وإِننا حين نذكر هذا الأَمر نفرّق بين حالتين: الحالة الأُولى هي التي تمثل سياسة أُمّة، ونهج دولة، وقاعدة تشريع وقانون. ففي هذه الحالة ليس للإسلام إِلا قول واحد، ورأي ثابت، كما ذكرنا. والحالة الثانية هي

---

(١) أصبح اسمه في طبعته الثالثة: «الشورى وممارستها الإيمانية».

الحالات الفردية، والظروف الخاصة، التي ترتبط بواقع معين، وظروف محددة، وهذه الحالة الثانية ليست موضع بحثنا هنا. ولكننا نبحث الحالة الأُولى التي تتعلق بالسياسة العامّة والقانون العام.

عن معقل بن يسار رضي اللّه عنه، قال: جاء رجل إلى النبيّ صلى اللّه عليه وسلم فقال: **يا رسول اللّه أصبت امرأة ذات جمال وحسب وإنَّها لا تلد أفأتزوجها؟ قال: لا. ثم أتاه الثانية فنهاه. ثم الثالثة فقال: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم»**.

(رواه أبو داود والنسائي والحاكم وصححه) [1]

٨- الولاء الإيماني: إنه الولاء النابع من الإيمان، كما عرضناه في الجزء الأَول من «لقاء المؤمنين». وعلى أَساس من هذا الولاء تنشأ العلاقات والارتباطات، وتوُجّه الجهود، وتدفع الطاقات، حتى يظل لجهد المؤمنين صفتان أساسيتان:

(أ) تلاقي الجهود كلها لتصب في مجرى واحد. لا تتبعثر ولا تضيع، ولا تتعارض.

(ب) استقلال الجهود، وصفاء المجرى. استقلال الجهود حتى تظل مرتبطة بالإيمان، مبذولة للمؤمنين، لا يستغلها عدو، ولا يسخرها كافر، ولا يمزّقها منافق.

حين تصبح جهود المؤمنين حرّة نقية، صافية، مجتمعة، فإنَّها تصبّ كلها حينئذٍ في مجرى واحد، مجرى الإيمان، وسبيل الإحسان، على صراط مستقيم. حين يتحقّق هذا، عندئذ يكون المسلمون قد قطعوا شوطاً

(١) أبو داود: كتاب النكاح (٦). باب (٤). حديث (٢٠٥٠)، النسائي: كتاب النكاح (٢٦). باب (١١). حديث (٣٢٢٧).

بعيداً في طريق الإيمان، وتحقيق معنى لقاء المؤمنين. دون أن يشوّه هذا المعنى أي لون من العصبيّات التي تتخفّى برداء الإسلام، مهما زها بريقها.

ولا يتحقق إلّا إذا تحققت خصائص لقاء المؤمنين، في واقع الحياة، في واقع الإنسان، ومضى اللقاء، بخصائصه هذه، على صراط مستقيم، ونهج قويم، رسمه لهم رب العالمين.

إنّ دراسة سريعة، تكفي لتكشف لنا الفاجعة الكبيرة، حين نرى، الطاقات والمواهب من العالم الإسلامي تصب جهدها هنا وهناك، بعيداً عن أهلها، عن أُمّتها، عن مجرى الإيمان، وسبيل الإحسان.

إن كثيراً من الشعوب في الأَرض، أَصابت خيراً كثيراً، بجهود أَبناء العالم الإسلامي، ثم بثروات وخيرات العالم الإسلامي. كم من الشباب الذين حصلوا على أعلى الدرجات العلميّة، جَرّدتهم تلك الشعوب من إيمانهم، من ولائهم، ثمَّ سخَّرتهم، هم وعلمهم، ومالهم وأعصابهم،ولحمهم، ودمهم لخدمتها ....! كم من الملايين؟!.

ولا نلوم الأَعداء، ولكنّنا نلوم أَنفسنا، حين دفعنا مواهبنا، لتهرب من واقعها المؤلم، وتفر من لهيب السياط، وجنون العصيّ، وفقدان الأَمن، واستباحة الأَموال والأَعراض، تحت شعارات الحريّة، والعدالة، والوطنيّة، والقوميّة، .... إلخ.

ونلاحظ مقابل ذلك، سياسة الإسلام، سياسة الإيمان، سياسة الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم حين رعى المواهب والطاقات، وصبر على مواقف، وخطط لمستقبل، فإذا جميع المواهب العسكريّة، والقياديّة، والفكرية التي كانت في صفوف المشركين، تنقلب فإذا هي في خدمة الإيمان، ودعوة الرحمن.

حسان بن ثابت رضي اللّه عنه ، موهبة أَدبية نصرت الإسلام ، واعتزت بالإيمان . خالد بن الوليد رضي اللّه عنه ، موهبة فذّة ، وعبقريَّة عسكريّة . عَمْرو بن العاص ، رجل الإدارة والسياسة والدهاء . وكثير غيرهم ظلوا فترات تطول أَو تقصر في صفوف المشركين ، ثم إِذا هم قوة من قوى الإسلام . وكل طاقة تأخذ مكانها ، وكلّ موهبة تجد فسحتها ، في ظل رعاية حانية . إِننا لا نتحدث هنا عن المواهب التي دخلت الإسلام مبكرة ، فحملت مع النبيّ صلى اللّه عليه وسلم ما عهد به إِليها ، كأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي اللّه عنهم ، وسائر الصحابة الأَفذاذ . وإِن كانوا جميعاً يمثلون عظمة رعاية الإسلام للطاقة البشريّة . ولكننا نهدف إِلى أن نشير إِشارة سريعة إِلى الطاقات التي دخلت الإسلام متأخرة فأُخذت مكانها لتؤدي واجبها في طاعة وأمانة . لقد كان كسب الجهد البشريّ ، والموهبة والطاقة هدفاً وسياسة ، ونهجاً . وكان من النهج كذلك متابعة البناء والإعداد ، والتربية والتكوين ، لتظل مدرسة النبوّة ممتدة إِلى يوم القيامة ، تمدّ العصور كلها بالجيل المؤمن ، والدعاة العاملين ، والمواهب المتفتحة .

* * *

الفصل الثاني

• أولـــو الألبـــاب •

« العلماء العاملون ، ورثة الأنبياء ، الطائفة الظاهرة »

« أُولوا الألباب » هم الجيل الذي يصوغه القرآن والسنّة ، ويرعاه منهاج اللّه ، ويرويه نبع الإيمان ، وتحنو عليه ظلال الصدق اليقين .

إنّ « لقاء المؤمنين » يحتاج إلى « الجهد البشريّ » لينطلق به ، فهذه سنّة اللّه في الحياة الدنيا كما عرضنا سابقاً . ولكن هذا الجهد يبتدئ من نقطة . ولقد كانت سنّة اللّه في الذين خلوا من قبل ، أَن ينطلق الجهد من النبوّة المرسلة ، والرحمة المهداة . حتى ختمت الرسالة بمحمد صلى اللّه عليه وسلم . ثم أصبحت بعد ذلك مهمة أصحاب محمد صلى اللّه عليه وسلم ، الذين توفّي وهو عنهم راض . ثم أَصبحت بعد ذلك مهمة العلماء ، ورثة الأنبياء ، وروّاد الحق ، والمجاهدين العاملين ، على مرّ العصور والأَجيال حتى يرث اللّه الأَرض ومن عليها . إنهم « أولو الألباب » .

فمحمد صلى اللّه عليه وسلم خاتم النبيين والرسل :

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٤٠)

فلا ينتظر أحد النبوّة بعد محمد صلى اللّه عليه وسلم أبداً . ولذلك جعل اللّه مهمة الدعوة بعد محمد صلى اللّه عليه وسلم في أَصحابه ، وفي أُمّته .

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ (آل عمران : ١٤٤)

فلم يرض اللَّه سبحانه وتعالى أن يرتبط مستقبل الدعوة بحياة محمد صلى اللَّه عليه وسلم، وهو خير خلقه، وأحبهم إليه. ولم يرضَ من أصحابه ولا الصادقين من أمته أَن ينقلبوا عن الدعوة أبداً : (**أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم** ...) . ومن أَراد أَن يرتد أَو ينقلب على عقبيه فليفعل ، فلن يضرّ اللَّه شيئاً ، وسيكون هو الخاسر ....! (**ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر اللَّه شيئاً** ...) . نعم، لن يضرّ اللَّه شيئاً ، وسيكون هو الخاسر ، وستمضي الدعوة في الأَرض قوة وثباتاً ، بعزائم الصادقين الشاكرين : (**وسيجزي اللَّه الشاكرين**) . ذلك لأَن الشاكرين هم الذين حملوا أعباءها ، ومضوا على طاعة ويقين . وليسوا الذين حملوا راية وهم نائمون ، ولكنهم المؤمنون العاملون ، الصادقون . وإنّ صدق جيل من الأَجيال ، لا يحمل بركته وحقه وشرفه إِلا من صدق صدقه ، وعانى معاناته ، دون أن يبدّل . ولا يربط الأَجيال الصادقة ألقاب متجدّدة ورايات متنوعة ، إلا لقب الإسلام وراية الإسلام .

وكذلك :

﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (التوبة : ١٠٠)

جيل ممتدّ إِلى يوم القيامة ، يحمل الدعوة إِلى اللَّه ورسوله صلى اللَّه عليه

وسلم للناس على مر العصور والأَجيال. جيل ممتد: يبتدئ بالسابقين الأَولين من المهاجرين والأَنصار، ويستمر بالذين اتبعوهم بإحسان رضي اللّٰه عنهم ورضوا عنه ....!

وسيمضي هذا الجيل المؤمن مع العصور كلها، جيلاً ظاهراً، لا يتوقف ولا يتعطل. ذلك لأن اللّٰه أراد أن تظلّ دعوته ماضية في الأَرض، يحملها المؤمنون الصادقون، لا يتوقفون، مهما اعترضتهم الصخور الصلاد، أو تناوشتهم المحن والصعاب، أَو خالفهم الأَهل والصحاب سيمضي هذا الجيل ظاهراً، لأَن ذلك أَمر اللّٰه، وقدر اللّٰه، واللّٰه غالب على أَمره.

عن المغيرة بن شعبة عن النبيّ صلى اللّٰه عليه وسلم قال: «لا تزال طائفة من أُمتي ظاهرين على الحق يقاتلون» وهم أَهل العلم.

(أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام، ومسلم وأبو داود)[1]

وكذلك أَخرج البخاري في نفس كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة رواية أُخرى: عن المغيرة بن شعبة عن النبيّ صلى اللّٰه عليه وسلم قال: **«لا تزال طائفة من أُمّتي ظاهرين حتى يأتيهم أَمر اللّٰه وهم ظاهرون».**

والظهورُ أَساسه التمسّك بالكتاب والسنّة، تمسك إيمان وعلم، وتدبّرٍ وممارسة. ثم من أَوجهه أيضاً مضيُّ الدعوة، وأَداء الأُمانة، والوفاء بالعهد، والقيام بالاستخلاف، ثم يصبر العاملون على ما يلقون، لا يبدّلون ولا يغيرون:

---

(١) البخاري: كتاب الاعتصام (٩٦). باب (١٠). حديث (٧٣١١)، مسلم: كتاب (٣٣). باب (٥٣). حديث (١٩٢٠-١٩٢٤)، أبو داود: كتاب الجهاد (٥). باب (٤) حديث (٢٤٨٤).

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ (لقمان : ١٧)

ومن أوجه الظهور كذلك النصر والظفر ، حتى تكون الطائفة هذه التي ذكرها رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ظاهرة القوة والسلطان . ذلك حين يأذن اللّٰه بهذا النّصر بعدله وحكمته وسننه التي يُمضيها في هذه الحياة الدنيا .

هذه الطائفة ، هي الجيل المؤمن القويّ الذي نعنيه . الجيل المؤمن القويّ الممتدّ في التاريخ البشريّ ، يحمل أعباء الدعوة إلى اللّٰه ، في صحبة النبوّة المباركة ، حتى إذا خُتِمتْ النُّبوّة ، واكتملت الرسالة ، وانقطع الوحي ، مضت هذه الطائفة على هذا الأَمر ، ظاهرة ، صابرة ، لا يضرها من خالفها .

هذه الطائفة ، هم ورثة الأَنبياء :

عن أبي الدرداء رضي اللّٰه عنه قال : سمعت رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم يقول : « من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهّل اللّٰه له طريقاً إلى الجنّة . وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً بما صنع . وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأَرض حتى الحيتان في الماء . وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . وإنّ العلماء ورثة الأَنبياء . وإنّ الأَنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما وَرَّثُوا العلم . فمن أَخذه أخذ بحظ وافر » .

(رواه أبو داود والترمذي)[1]

والعلماء الذين هم ورثة الأَنبياء ، هم الذين يحملون أمانة الدعوة ، يقومون بها عن إيمان وعلم بكتاب اللّٰه وسنّة نبيه صلى اللّٰه عليه وسلم ،

---

(١) أبو داود : كتاب العلم (١٩) . باب (١) حديث (٣٦٤١) . الترمذي : كتاب العلم (٤٢) باب (٢) . حديث (٢٦٤٦) ، ابن ماجة المقدمة . باب (٢٠) . حديث (٢٣٦) .

وتدبّر ، وعمل وسعي ، في الواقع البشريّ ، يعونه ويدرسونه ، حتى يصح منهم النهج ويستقيم الدرب . فلا تقعد بهم الغفلة والعجز عن أُمورها ، ولا يدفعهم الغرور إلى فتنة . العلماء الذين هم ورثة الأَنبياء هم الطائفة الظاهرة التي ذكرها رسول اللّه . العلماء الذين هم ورثة الأَنبياء ، هم الجيل المؤمن الممتدّ مع التاريخ البشريّ ، يكون العلم لديهم قائماً علىالإيمان الصادق ، ودافعاً إلى العمل الصالح ، إلى الأَمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إلى الجهاد والجلاد ، إلىالعمل الصالح والصبر .

العلماء هم موهبة الأُمّة ووسعها وطاقتها . فهم الجيل الربّانيّ ، الذين يصوغهم منهاج اللّه ، ويجمعهم الإيمان ، ويتبعون من سبقهم بإحسان .

لا نعني بذلك طبقة محدّدة ، ولا لوناً معيناً ، ولا زيّاً خاصّاً ، ولا شعارات ، ولا رايات . إننا هنا نعني قلوباً مؤمنة ، وصدوراً واعية ، حتى إذا صدقت القلوب المؤمنة ، وصدقت الصدور الواعية ، أصبح الإيمان ، والعلم ، والموهبة ، والخبرة ، تصوغ للإنسان نهجه ، ولباسه ، وطعامه ، وعمله ، ومسلكه كلّه .

الذي نعنيه هنا : المعادن من الناس ، معادن الذهب والفضة يجلوها القرآن ، وتتلألأ مع الإيمان ، وتنطلق في صدق وإحسان .

عن أَبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبيّ صلى اللّه عليه وسلم قال : « الناس معادن كالذهب والفضة ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَقُهُوا ، والأَرواح جنود مجنّدة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

(رواه مسلم)[1]

والفقه هو العلم بالمنهاج الربّانيّ والواقع البشريّ والقدرة على ممارسة

(١) مسلم : كتاب البر والصلة والآداب (٤٥) . باب (٤٩) . حديث (٢٦٣٨) .

الإيمان ، وممارسة منهاج اللّه في واقع الحياة ، ممارسة تقوم على الإيمان والعلم والموهبة . وبقدر ما يزيد الإيمان أَو العلم ، أَو الموهبة ، فإن الفقه يزيد . والموهبة التي نعنيها هي تلك التي تقوم على الإيمان والعلم .

إننا نعني هذه القوّة التي يصوّرها لنا الحديث الشريف . الوسع المتمكن في الفطرة ، والموهبة المشتعلة في النَّفس . حتى إذا جاء الفقه ، أَبْرز الطاقة والموهبة ، وأَبرز الوسع والمقدرة .

إن الدعوة لا تستطيع أَن تظلّ عالة على الوسع المحدود ، والجهد المكدود ، والطاقة المنهكة ، والموهبة المتدنّية . إنّ الإنتاج البشريّ في الحياة الدنيا ، جعله اللّه مرتبطاً بمستوى الجهد البشريّ ، من حيث موهبته ومستواه ، وبذله وعطاؤه ، وجده واجتهاده ، وخبرته ومرانه ، وعلمه وفنه . إن الصانع البارع يقدم لك القطعة المتقنة ، والصانع البليد يقدم لك القطعة المتدنّية .

إنها سنّة اللّه في هذه الحياة الدنيا ، حتى يتمايز الناس في وسعهم ، وطاقتهم ، وجهدهم ، وبذلهم ، وحتى يقوم الدليل ، وتظهر البيّنة على هذا الوسع أو ذاك . ولكلّ وسع مكان ، ولكل طاقة دور ، دون أن يتنافس الوسع على غير عدالة ، أَو تتنافس الطاقات على غير أَمانة .

فلقاء المؤمنين يحتاج إلى همّة قويّة ، وزنود مشدودة ، ومواهب ممتدّة ، حتى تستطيع أَن تحمل الأَمانة بقوة وعزيمة ، وتمضي بها بصبر وإنابة ، وحتى تستطيع أَن تقدم إلى سائر المواهب والطاقات حاجتها ، وأَن تضع الناس في مواضعها . ثم تصبح جميع الطاقات أَدناها وأعلاها متكاملة مترابطة ، كل واحدة تؤدي دورها في منزلتها الأمينة .

ولننظر في حديث الرسول صلى اللّه عليه وسلم إلى أبي ذرٍّ رضي اللّه

عنه ، حين طلب الإمارة . فما طعن في دينه وتقواه ، ولا أَخذ عليه مسألته ودعواه . وإنما عرض إلى وسعه وطاقته ، وإلى قدرته وموهبته ، وإلى قوته أَو ضعفه ، في الأَمر الذي جاء يطلبه ، أَلا وهو الإمارة :

عن أبي ذر رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : « يا أبا ذر إني أَراك ضعيفاً ، وإني أُحب لك ما أُحبّ لنفسي ، لا تأمرنّ على اثنين ، ولا تولّينّ مال يتيم » .

(رواه مسلم وأَبو داود ، ورواه النَّسائي)[1]

فهذا هو مقدار وسعه وطاقته في ميدان الإمارة ، وولاية مال اليتيم ، حيث نهاه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أَن يلي من ذلك شيئاً . وقد قال له : « إني أُحب لك ما أحب لنفسي » . فما أَعظم هذا الحب . ومن هذا الحب العظيم ، نصح له وأبان . ولم يكن هناك مجال لمجاملة . ولكنه أُسلوب النبوّة العظيم ، حين جمع حبه لأَبي ذر ، مع بيان ضعف أبي ذر ، حتى يكون التلقّي أطيب للنفس ، وأسعد لها .

هذه طاقة مؤمنة صادقة ، لأَنّ الرسول صلى اللّه عليه وسلم يحبُّها ، ويحب لها ما يحبّ لنفسه ، ولكنه وضع الوسع والطاقة والموهبة في موضعها الحقّ بأحسن أسلوب ، وأطيب كلمة . ولكن لأبي ذر رضي اللّه عنه دوره العظيم في الدعوة ، وجهده المبارك في لقاء المؤمنين ، متصلاً ، مترابطاً مع سائر الجهود والطاقات فإذا لم يكن قوياً في ميدان السلطة والإمارة فله ميادينه الأُخرى التي كان قوياً فيها . إنّ الطائفة الظاهرة ، إنّ العلماء ، إن ورثة الأَنبياء ، موهبة ممتدّة في الجيل المؤمن ، يدفعها بذلها

---

(١) مسلم : كتاب الإمارة (٣٣) . باب (٣) . حديث (١٨٢٦) ، أبو داود : كتاب الوصايا (١٢) . باب (٤) . حديث (٢٨٦٨) ، النسائي : كتاب الوصايا (٣٠) . باب (١٠) . حديث (٣٦٦٧) .

وعطاؤها ، وإيمانها وعلمها ، وموهبتها ، إلى مكانها الحق ، ودرجتها الصحيحة . إنهم « **أولو الألباب** » يأخذ كل منهم منزلته العادلة الأمينة .

إن الطائفة الظاهرة ، والعلماء ، وورثة الأنبياء ، هم الجيل القرآنيّ ، الذي يصوغ المنهاج الربّانيّ مواهبهم ، ويضع منازلهم ، ويدفع سواعدهم . في هذه الطائفة ، يأخذ كل منهم مكانه الحق ، ومنزلته العادلة ، بيسر وسهولة .

ولقد ذكر اللَّه سبحانه وتعالى منزلة العلماء :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

(الزمر : ٩)

ولكن منزلة العلماء هذه لا تقتصر على مظاهر من تفخيم وتكريم ، وإنما يقوم أساسها على ما يبذله العلماء في كل مواطن البذل . فيكونون أول الناس وفاء بالعهد مع اللَّه ، وأصدق الناس في ميادين الجهاد ، وأكرم الناس في بذل المال ، وأسرع الناس إلى العمل الصالح كله . حتى إذا عرف الناس عنهم ذلك ، أوفوهم حقهم من تكريم واحترام ، لأنهم أولو الألباب ، كما عرّفهم القرآن الكريم .

ويظل احترام منازل الناس ، وترتيبها حتى في الصلاة :

عن عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « ليَلِني منكم أُولو الأحلام والنُّهَى . ثم الذين يلونهم – ثلاثاً – وإياكم وهيشات الأسواق » .

(رواه مسلم)[1]

---

(١) مسلم : كتاب الصلاة (٤) . باب (٢٨) . حديث (٤٣٢) .

وكذلك في الدفن:

عن جابر رضي الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يجمع بَيْنَ الرجلين من قتلى أُحد– يعني في القبر– ثم يقول: «أيهما أكثر أَخذاً بالقرآن» فإذا أُشير إلى أحدهما قدّمه في اللحد

(رواه البخاري)(1)

وكذلك في السّنّ، والقرآن، والوالي المقسط:

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه. وإكرام ذي السلطان المقسط»

(رواه أبو داود)(2)

وعن عمرو بن شعيب عن أَبيه عن جدّه رضي الله عنهم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس منا من لا يرحم صغيرنا ولا يعرف شرف كبيرنا»

(حديث صحيح رواه أبو داود والترمذي)(3)

وذكر عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم»

(ذكره مسلم في أول صحيحه تعليقاً وأبو داود وذكره الحاكم وقال: حديث صحيح)(4)

وإذا تتبعنا سائر الأَحاديث، واهتدينا بهدي كتاب الله، نجد أَن منازل الناس لها أَمارات وعلامات، لا يضلّ عنها مؤمن. فلقد جعل الإسلام

---

(1) البخاري فتح الباري: كتاب الجنائز (٢٣). باب (٧٥). حديث (١٣٤٧).

(2) أبو داود: كتاب الأدب (٣٥). باب (٢٣). حديث (٤٨٤٣).

(3) أبو داود: كتاب الأدب (٣٥). باب ( ). حديث ( )، والترمذي: كتاب البر والصلة والآداب (٢٨). باب (١٥). حديث (١٩١٩).

(4) مسلم: في المقدمة، وأبو داود: كتاب الأدب (٣٥). باب (٢٣). حديث (٢٨٤٢).

ميزاناً دقيقاً ، يزن الناس ، ويحدّد منازلهم ، ويبيّن مواضعهم ، على مسئوليات وتكاليف ، وبذل وجهد .

ففي الجيل المؤمن إذاً يسهل أَن يأخذ كل مؤمن مكانه ، وأَن ينزل منزلته ، ذلك حين يُلجَمُ الهوى ، ويُحبَس التناجش ، وتصدق الأُخوة في اللَّه ، وتوزن الأُمور بميزان الإِسلام . ويتسابق النّاس في البذل والعطاء ، لا في المغنم والاسترخاء .

في أَجواء الهوى ، والعصبيّات الهائجة ، يتقدم الغِنَى ، ويَبْرز النفوذ ، ويضطرب الميزان . فيبحث الناس عندئذ عن موازين جديدة ، يمكن أن تُطلى بطلاء الإِسلام . فتنزوي المواهب والقدرات ، ويَضمر البذل والعطاء ، وتغلب العصبيّة ، والجاهلية .

« **أولو الألباب** » ، هم الجيل الذي يصوغه منهاج اللَّه قرآناً وسنّة ، ويزيده البذل والممارسة قوّة ، وإيماناً وعلماً . هم العصبة المؤمنة العاملة ، المتميزة في بذلها وعطائها وممارستها الإيمانية ، تميّزاً يدفعها في الجيل المؤمن إِلى منازلها الحقّة ، ومواقعها العادلة ، لا من أجل مظاهر ، ولكن صوناً للجهد ، وحماية للدعوة ، وطاعة للّه .

قد تكون هناك صعوبة كبيرة في تحديد خصائص هذه العصبة المؤمنة ، والطائفة الظاهرة ، والعلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، في نقاط موجزة قليلة . إنّ وصفها المفصّل معروض في كتاب اللَّه ، وفي سنّة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، ولكننا هنا نحاول أن نجمع أهمّ الخصائص الرئيسة بخطوطها العامة ، من خلال ما عرضنا سابقاً من آيات كريمة وأَحاديث شريفة .

إِننا نعرض هذه النقاط الرئيسة ، كما وردت في الآيات والأَحاديث ،

لتكون دليلاً للمؤمن وهو يَدْرُسُ الناس، ويدعو الناس، ويربي الأَجيال. لتكون أَساس الميزان الذي يَزِن به الرجال، ليعرفَ منازلهم، ويدفع به مواهبهم. لتكون الدليل في مواقف شتى، وممارسات متنوعة.

قد نستطيع أن نحصرها في أربع نقاط رئيسة:

١ - **المعدن والفِطْرة**: ولقد سَبَقَ عرض الآيات والأَحاديث المتعلّقة في هذا الموضوع، في أكثر من موضع، مما يغني عن إِعادتها هنا. إِن معدن الإنسان يكشف لنا عن خصائص كثيرة في طبيعته، ووسعه، وقدرته، وموهبته، وأَخلاقه. إِن الفطرة السليمة تنبئ عن الاستعداد الوافر لتلقي رسالة اللّه، وتدبّر آيات اللّه، والانطلاق بها في الأَرض دعوة وتبليغاً. إِن المعدن والفطرة ينبئانك عن خصائص متعددة: كرم أو بخل، مروءة أَو لؤم، رجولة أَو هوان، وفاء أَو غَدْر، صدق أَو كذب، موهبة أَو بلادة، قوة أَو ضعف...... إِلى غير من ذلك من الخصائص التي تساعد على تحديد الصفات وجوهر الإنسان. إِلى المعدن والفطرة تتجه الأنظار دراسة وبحثاً، حتى نجد الذهب والفضة ونميزهما عن غيرهما من المعادن.

٢ - **الإِيمان وَأماراته**: ولقد سبق كذلك عرض هذا الموضوع. وإِننا نعرضه هنا من ناحية أُخرى. من ناحية أنه أساس الميزان الذي نزن الرجال به، ونزن المعادن به، وندرس الفطرة من خلاله. إِننا نفعل ذلك من حيث الظاهر لنا. آخذين بالأمارات والدلائل، دون أن نحاول شقّ الصدور لمعرفة النيّة بالظن والتخمين. فإن النية لا يعلمها إِلّا اللّه. ولكنّ الإِيمان والنيّة الصادقة لها أماراتها، واللّه سبحانه وتعالى يمحّصَ عباده المؤمنين، في مواقف تتجلّى فيها الأمارات، حتى لا ينجح مكر منافق أو كيد عدوّ، إلا في الغافلين الجاهلين.

إن الإيمان يجلو المعدن حتى يشع جوهره وتبين خصائصه. فالكرم مثلاً لا وزن له إذا لم يكن نابعاً من إيمان، مرتبطاً بعقيدة. ولكن حين تدعو الرجل الكريم إلى الإسلام، فإذا استجاب فإن الإيمان يبرز كرمه، ويظهر أثره، حتى ينال ما كتبه اللّٰه من بركة في الدنيا وأجر في الآخرة. وقس على ذلك سائر خصائص المعدن النفيس، والجوهر الكريم حين يجلوها الإيمان. والإيمان ينمّي الموهبة، ويكشف الوسع، ويبرز الطاقة. فذلك عمر ابن الخطاب رضي اللّٰه عنه، كان شيئاً ما في الجاهلية، لا تكاد تحسُّ بنواحي عظمته، ونفاسة معدنه إلا إحساساً خفيّاً. فهي مدفونة تحت ركام هائل من أوضار الجاهليّة والكفر. فلما دخل الإيمان قلبه، أزاح الركام، وطهّر النفس وغسل القلب والضلوع وجلا المواهب. فإذا عمر رضي اللّٰه عنه رجل التاريخ، وموهبة القيادة، وعبقرية الإيمان. وقس على ذلك الكثير الكثير من أصحاب رسول االلّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم، الذين جلا الإيمان معادنهم فدفعهم إلى ساحة التاريخ مواهب وعبقريّات، أنّى التفتَّ وجدتها تتزاحم في بطولات وشهادة. إنهم «أولو الألباب». والإيمان وحده هو الذي يعطي العمل جوهر التكريم، ومظنّة القبول. ولنتدبّر حديث رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم.

عن عائشة رضي اللّٰه عنها قالت يا رسول اللّٰه: ابن جُدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذاك نافعه؟ قال: «لا ينفعه إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»

(رواه مسلم)[1]

٣ – العلم: لقد سبق في أكثر من موضع أَنْ بَيَّنَّا أَنّ العلم الذي نعنيه هو أَمران: العلم بمنهاج اللّٰه – قرآناً وسنّة – والعلم بالواقع البشريّ. والعلوم التخصصيّة في أمور الدنيا كالطب والهندسة وغيرهما تدخل في إطار العلم بالواقع.

---

(١) مسلم: كتاب القدر (٤٦). باب (٨). حديث (٢٦٦٤).

والعلم والسعي إليه هو النتيجة الطبيعية للإيمان الصادق. إن المؤمن يدرك بعد أن يقرّ بالشهادتين أنّ عليه تكاليف لا يستطيع أداءها إلا إذا علمها وعلم طريقة أدائها والواقع الذي ستؤدى فيه. وإذا غفل المؤمن عن هذه الحقيقة، وأسلم نفسه إلى الكسل والتراخي، اضطرب إيمانه، واختلَّ ميزانه. حتى يضعف إلى هوان وخسران، أَو ينجرف في فتنة وضلال.

فالرجل المؤمن ينهض ليأخذ من العلم قدر وسعه وطاقته، وما يوفي بمسئوليّته وأَمانته. إنه لا يختفي وراء أعذار يختلقها، ولا علل ينتحلها، ليخدع نفسه، ويخدع النّاس. إنّ المؤمن الصادق، الذي جلا الإيمان معدنه، ينهض إلى تكاليفه نهوض عزيمة وتصميم. وأوّل هذه التكاليف العلم وأول العلم منهاج اللَّه. وقد سبق أَن عرضنا كذلك الآيات والأَحاديث عن العلم، في أكثر من موضع.

والعلم كما عرّفناه سابقاً، العلم الذي يصدر عن الإيمان، يتفاعل معه، فإذا هو ينمّي الإيمان، ثم ينمّي الإيمانُ العلمَ، وهكذا يعمل الإيمان والعلم بعد ذلك معاً، ليجلوا المعدن والفطرة، حتى يشعّ الجوهر، وتبرز الخصائص.

سنعود في أَبحاث مقبلة، نتحدث عن العلم. ولكننا هنا نعرضه كأمارة من أمارات «الطائفة الظاهرة»، «العلماء»، «ورثة الأنبياء»، معدن الجدّ، وجوهر العقيدة. ونحصره بقاعدتين كبيرتين: المنهاج الربّاني، والواقع البشريّ، كما أسلفنا سابقاً.

إنّ «لقاء المؤمنين» لا يستطيع أن ينهض على أكتاف الجهلاء، ولا أَكتاف الضعفاء، ولا شطط الأَهواء. إنه يحتاج إلى المعدن الكريم، والإيمان الصافي، والعلم الصادق، ليلتقي ذلك كله في فطرة المؤمن السليمة، قوّة، وموهبة، وإبداعاً.

الجيل المؤمن هو الجيل الذي يُلبّي دعوة الإيمان، ويستجيب إلى نداء الإسلام. إنه الأُمّة المؤمنة، إنهم المؤمنون، إنهم جنود الدعوة، وأبناء العقيدة. ففي هذا الجيل، تجد مستويات متباينة، وقدرات مختلفة، ومواهب مرتفعة أو متدنّية، وشتى أنواع المعادن. ولكنّ هؤلاء كلهم مؤمنون، مكلفون، محاسبون. فيهم الضعيف وفيهم القوي، كما ورد في الحديث الشريف الذي ذكرناه سابقاً، ونذكّر به ثانية هنا:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن القويّ خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلّ خير. احرص على ما ينفعك. واستعن بالله ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا. ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل. فإن لو تفتح عمل الشيطان».

(رواه مسلم)[1]

فهنالك إذن المؤمن الضعيف. والمؤمن القوي. وفي الميدان متسع لكل طاقة ووسع، على أَن لا تذهب الطاقات هدراً في صراع الهوى والرغبات، والتحاسد والتناجش، والكبر والغرور. والحديث الشريف يعالج نفسيات المؤمنين الأَقوياء والضعفاء. ويرسم معالم لهم إلى القوّة والطمأنينة، ليبلغ كل مؤمن مكانه ووسعه. «احرص على ما ينفعك». وليس النفع هنا ما يزينه الشيطان من أَبواب الظلم، والمصالح الدنيوية والأَهواء.....! ولكنه ما ينفعك لتكون مؤمناً قويّاً، لتجعل قوتك في خدمة إيمانك. واستعن بالله .....! فالاستعانة بالله باب عظيم من أبواب القوّة، قوة الإيمان. وهو باب مفتوح للصادقين، ونبع رائق للمؤمنين الظامئين. ولا تعجز.....! قاعدة ثالثة من قواعد القوة. تأمر المؤمن أن لا

(١) مسلم: كتاب القدر (٤٦). باب (٨). حديث (٢٦٦٤).

يقف مشلولاً ، عاجزاً حائراً فليستخدم ما وهبه اللّه من مصادر شتى ، ليجد المخرج ، ويصل إلى الفَرَج ، بحرصه على ما ينفعه كما شرحنا ، وبالاستعانة باللّه . ويمضي هذا الحديث الشريف ، متناسقاً مع سائر الآيات والأَحاديث التي تمد المؤمن بالقوة ، والعون ، والأمل ، والرجاء....! لا ليبلغ دنيا مؤثرة ، ولا لينصر هوى ، متبعاً ، ولكن ليلزم الحقّ ، وينصر الحقّ حيثما كان ، فهذا الذي ينفعه ، وهذا الذي يسأل عون اللّه من أجله .

فهنالك مؤمن قويّ ، وهنالك مؤمن ضعيف ، وفي كل خير . وعلى كلّ مؤمن أن يجمع من أَسباب القوة ما هو في إطار وسعه ، وحدود طاقته ، ليضع ذلك كلّه في خدمة دينه ، وطاعة ربه . بذلك أيضاً ، يأخذ كل وسع مكانه ، حتى تتناسق الجهود ، وتتحد العزائم .

« والطائفة الظاهرة » ، التي نعنيها هي الطائفة القويّة ، هي المعادن كالذهب والفضة ، هم العلماء ، هم ورثة الأنبياء . هم الذين يتقدمون الصفوف في ميادين البذل والعطاء ، والصدق والجهاد ، قبل أن يبحثوا عن منازل التكريم ، ومظاهر التبجيل . إنهم أولو الألباب .

إنهم رجال العلم الذين قام علمهم على معدنهم الكريم ، وإيمانهم القويّ ، فاجتمعت فيهم قوّة إلى قوة : قوّة المعدن والفطرة ، وقوّة الإيمان والعلم ، فكانوا أُولي الأَلباب .

إنهم أَهل الفطنة والكياسة ، وليسوا من أَهل البلادة والخمول . إنّهم أَهل النشاط والحركة ، وليسوا من أَهل الراحة والكسل . إنهم أَهل الموهبة ، أُولو الأَلباب ، العالمون ، العاملون ، العابدون ، الشاكرون ، السائحون ، الذاكرون ، إلى غير ذلك من الصفات التي عددها كتاب اللّه ، مما لو اجتمعت كلها في رجُل ، جعلته قوة ، ودفعته إلى قوة . إنهم المعدن الكريم

الذي يصوغه منهاج اللّه ، ويجلوه الإيمان والعلم ، وتدفعه الموهبة ليكون من « أُولي الألباب » .

٤ - الخبرة والممارسة الإيمانية :

إن « الطائفة الظاهرة » ، إنّ « العلماء » ، إنّ « ورثة الأنبياء » ، إنّ هذا الجيل القويّ ، تحت أَيّ اسم سمّيته ، لا تظهر خصائصه ، ولا تبرز مواهبه ، وهو في صومعة الرهبان ، وعزلة الهوان . إنّ وسعه وطاقته تَتفجرُ في الميدان ، وتنكشف في ساحة العمل ، وتصقل في حرارة الجهد ، وشدة البذل ، وقوة الممارسة .

إنّ النقاط الثلاثة السابقة الذكر : المعدن والفطرة ، والإيمان واليقين ، والعلم ، لا تظهر حقائقها وهي مدفونة تحت ركام وأَنقاض . ولكنها تشع وتلمع في ميادين العمل الصالح ، وساحات الممارسة الإيمانية ، وبركات الجهد والجهاد ، ونعمة العمل الدائب .

فمن خلال الممارسة الإيمانية : يُجلى المعدن ، وتستقيم الفطرة ، وينمو الإيمان بإذن اللّه ، ويشتد العلم ، ثم تتماسك هذه الخصائص كلها تماسكاً قويّاً ، لتعطي صورة الموهبة ، و قوة الوسع ، وعظمة الطاقة . وتصبح الخصائص كلها متماسكة ، مترابطة ، متناسقة ، لتكون الشخصية الواحدة ، والنفسيّة المتميزة ، والقدرة البارزة ، لتكون الشخصية المؤمنة المتوازنة ، المتماسكة . فمن خلال الممارسة الإيمانية ، من خلال العلم والبذل والجهد ، تتحرك خصائص المعدن الكريم ، وطبيعة الفطرة السويّة ، وتتحرك عناصر الإيمان ، وقوى العلم . تتحرك هذه كلها ، لتتفاعل فيما بينها ، فتترابط وتتماسك ، فتكون الموهبة ، وتكون الطاقة ، في عمل وحركة ، وتصوغ « أُولي الألباب » .

إنّ الممارسة الإيمانية ، أو العمل الصالح ، تتميز عن أيّ عمل آخر يقوم به الإنسان ، بخصائص شتى سبق أن أوجزناها في كتابنا « الشورى وممارستها الإيمانية » ونعيد تأكيدها هنا : الشمول والامتداد لتشمل مختلف ميادين الحياة في الأُمة ، المبادرة الذاتية تحرّكها الحوافز الإيمانية ، المداومّة والإتقان ، النموّ والتطوُّر ، وقبل ذلك كله المراقبة وصدق النيّة والتوجُه إلى اللّه سبحانه وتعالى ، ثم الإشراف والتوجيه والإعداد والتدريب .

إنَّ الممارسة الإيمانية التي تتميَّز بهذه الخصائص تستطيع بإذن اللّه تعالى أَن تقدم للمؤمن العامل ، خبرة وزاداً ، يصقل المعدن ويجلوه ، ينمي الإيمان والعلم ، ويربط ذلك كله في شخصيّة مؤمنة متوازنة ، تدفع إلى الساحة رجلاً من الطائفة الظاهرة ، من العلماء ، من ورثة الأَنبياء من أُولي الألباب .

هذا الجيل ، بهذه الخصائص ، يمتد بعون اللّه إلى جميع الميادين في حياة الأُمة ، حتى تجد الموهبة في هذا الميدان وذاك . إنك تجد الموهبة العسكرية ، والموهبة السياسية ، وكذلك سائر المواهب من إدارية ، وتخطيطية ، واجتماعية ، وعلميّة ، وأَدبية ، واقتصادية ، تتماسك كلها في أُمّة واحدة لها رب واحد ، ودين واحد .

لقد تحدثنا في الفصل الأول من هذا الباب عن الجيل المؤمن . ولقد أردنا بذلك عرض دور الطاقة البشرية ، واهتمام الإسلام بدور الجهد البشري ، وضرورة قيام الجيل المؤمن ، الذي يستوعب القدرات المؤمنة كلها ، مهما اختلفت مستوياتها ، وتنوعت خصائصها ، وتعددت درجاتها .

إنّ الجيل المؤمن يمثل الأُمّة المؤمنة كلها ، يمثل المؤمنين كلهم ، يمثل صفّ الإيمان ، وجند الرحمن .

وفي هذا الفصل استعرضنا الموهبة في الجيل المؤمن، والقدرة المتميزة، والوسع المتمكن، والطاقة المعطية. إنّنا نستعرض الخصائص التي تستطيع أَن تتحمل الأَمانة والمسئولية، وتتقدم إلى منزلتها، لا بمالها، ولا بعصبيتها، ولا بجاهليتها. ولكنها تتقدم بجهد مبذول، وعرق مصبوب، وصدق مشهود، وقدرة عالية، وكفاءة بادية. إنها تتقدم إلى منزلتها بسهولة ويسر من حيث الطهارة من التناجش والتحاسد، فقد خطت خطواتها بنيّة خالصة للَّه، وعزيمة ثابتة. وكذلك تتقدم إلى منزلتها بمعاناة وشدّة، من حيث عظمة التضحية التي تبذلها، وامتداد الجهاد الذي تعيشه، بذل خالص للَّه، وجهاد طاهر للَّه. إنها الموهبة التي تستطيع أَن تجابه الأَحداث، وتقارع الأَعداء، بقدرة مؤمنة، وفطنة صادقة. إنها الموهبة التي تحمل العبء فلا تنهار تحته، وتحمل المسئولية فلا تفرّط فيها. وتحمل الأَمانة فلا تضيعها. إنهم «أُولو الأَلباب».

سمّها ما شئت. ولكن خصائصها واضحة بينة، وميزاتها بارزة ظاهرة.

هذه الطائفة الظاهرة، التي تمضي مع الزمن كله، ظاهرةً، ظافرة، لا يضرّها من خالفها، هذه هي الموهبة التي نعنيها. وهي التي تحمل الخصائص التي ذكرناها، لتجعل من هذه الطائفة «أُولي الأَلباب».

وجميع هذه الخصائص، تتجمع لتحقق في هذه الطائفة، في هذا الجيل، التفوّق في ثلاث قضايا أساسية:

أولاً: الإيمان بكامل عناصره وتدبر منهاج اللَّه قرآناً وسنة، تدبر إيمان ويقين، وتدبر عمر وحياة.

ثانياً: الوعي في فهم الواقع البشريّ، وعياً إيمانيّاً من خلال منهاج اللَّه.

ثالثاً: القدرة على ممارسة منهاج اللَّه في الواقع البشريّ.

وفي كلّ ناحية من هذه النواحي الثلاث تبرز الموهبة الممتدة، وينكشف الوسع القادر، وتتضح الحركة والنشاط. ويجتمع ذلك كله ليبرز «الممارسة الإيمانية» لمنهاج الله في الواقع البشريّ، بكل خصائصها، وميزاتها، وقوتها. يجتمع ذلك كله ليبرز «العمل الصالح» بكل عظمته، وبركته، وخيره، في امتداد وشمول، في ميادين الحياة كلها، يطرقها طرقاً قوياً. فإذا «العلماء العاملون» حركة دائبة، ونشاط مستمر، ونهج بيّن، ووعي نافذ. وإذا هم حياة ممتدة في الأُمّة كلها، وظل وبَلال يُزيح الهجير، ونور دفّاق يرفع الحجب والظلام.

تجتمع هذه الخصائص كلها في الطائفة الظاهرة، في العلماء العاملين، في ورثة الأنبياء، حتى يكون سلوكهم، وحركتهم، ونشاطهم، إسلاماً حيّاً، إسلاماً ناطقاً، وإيماناً منيراً، وقرآناً وسنّة، يقيمون البرهان، ويقيمون الحجة. إنهم «أولو الألباب».

تراهم في عبادتهم خاشعين، وفي جهادهم باذلين، وفي محنتهم صابرين، وفي دعواهم صادقين.

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ (الأحزاب: ٢٣)

هم في ميدان التجارة والاقتصاد، مثلاً، كما وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، يجاهدون في أنفسهم حتى يكونوا على التقوى والبرّ والصدق:

عن رفاعة رضي الله عنه أنه خرج مع النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المصلّى فرأى الناس يتبايعون فقال: «يا معشر التجار فرفعوا أعناقهم وأَبصارهم إجابة له، فقال: إن التجار يبعثون يوم القيامة فجّاراً إلا من

اتقى اللّه وبرّ وصدق. وفي رواية: «التاجر الصدوق الأَمين مع النبيين والصديقين والشهداء».

(رواهما الترمذي)[1]

وإِذا خالطوا الناس كانوا على أَحسن رفقة، وأَصدق عشرة، وأَلين سجية، وأَطيب كلمة، وأَفطن حسّ، وأذكى وعي، وأَوفى عهد، وأَبعد عن الفتنة، وأَنجى من مكيدة، وأَسلم من مكر:

ففي الحديث المرفوع عن ابن عمر رضي اللّه عنهما: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أَذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أَذاهم».

(رواه أحمد والترمذي وابن ماجه)[2]

وعن النواس بن سمعان الأنصاري رضي اللّه عنه قال: سألت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن البر والإثم، فقال: «البرّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس».

(رواه مسلم والترمذي)[3]

وكذلك:

عن أبي ذر رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «اتق اللّه حيثما كنت وأَتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن».

(رواه الترمذي)[4]

---

(١) الترمذي: كتاب البيوع (١٢). باب (٢٤). حديث (٢٢٠٩)، (٢٢١٠).

(٢) أحمد: المسند (٢/ ٤٢)، الفتح: (١٩/ ١٧٠)، الترمذي: كتاب صفة القيامة (٣٨). باب (٥٥). حديث (٢٥٠٧)، ابن ماجه: أبواب الفتن (٣١). باب (٢٣) حديث (٤٠٨١).

(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب (٤٥). باب (٥). حديث (٢٥٥٣).

(٤) الترمذي: كتاب البر والصلة والآداب (٢٨): باب (٥٥). حديث (١٩٧٨).

وكذلك :

عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تبسمك في وجه أخيك لك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في أَرض الضلال لك صدقة ، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة ، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة » .

(رواه الترمذي)[1]

فهذه خصال الخير ، وسجايا الإحسان . هم على هذه الأخلاق مع الناس ، ولكنهم أهل بصر وبصيرة ، وخبرة وحكمة .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا حليم إلاّ ذو عَثْرَة ، ولا حكيم إلا ذو تجربة » .

(رواه أحمد والترمذي والحاكم)[2]

هذه هي الخبرة والممارسة ، يصوغها رسول الله صلى الله عليه وسلم في أوجز عبارة ، وأوضح بيان ، وأقرب مأخذ . هذه هي الخبرة والممارسة ، في الواقع البشريّ حيث يحوّل الإيمان عثرة الرجل إلى حلم ، وتجربته إلى حكمة . والحلم والحكمة يجعلان الرجل عالمًا عاملاً ، ويجعلانه من أُولي الألباب .

هذا الجيل المؤمن القوي ، هذا الجيل الذي يحمل المعدن الكريم ، والفطرة السليمة ، والإيمان الصافي ، والعلم القويّ والموهبة المتميزة ، حتى يزداد مع الممارسة إيماناً وعلماً ، وخبرة وزاداً ، هذا الجيل ، لم نجد له كلمة جامعة أَحب مما سمّاهم به القرآن الكريم . إنهم « أُولو الألباب » .

---

(١) الترمذي : كتاب البر والصلة والآداب (٢٨) . باب (٣٦) حديث (١٩٥٦) .
(٢) أحمد : المسند (٨/٣) ، الفتح : (١٩/ ١٨٠) ، الترمذي : كتاب البر والصلة والآداب (٢٨) . باب (٨٦) حديث (٢٠٣٣) .

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (الزمر : ١٧، ١٨)

صفات واضحة بيّنة، محددة مشرقة : اجتنبوا عبادة الطاغوت، أنابوا إلى الله، يستمعون القول بوعي وميزان، فلا يُخدعون، ولا يضلّون، ويعرفون القول الحق، والكلمة الباطلة، فيتبعون أَحسن القول. إنهم على هدى من الله إنهم أُولو الألباب. فواضح هنا أَنهم من أهل الموهبة الممتدة، والوسع المتمكن، على أَساس من إيمان وعلم ومعدن وفطرة.

وكذلك :

﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾

(البقرة : ١٩٧)

﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (البقرة : ٢٦٩)

وصفتان أُخريان بارزتان : التقوى التي تكون زاداً خير زاد، والحكمة التي يؤتيها الله لَهُم. ومن هذه الحكمة تقوم الذكرى، والتفكر والتدبر، والعمل والسعي، (وما يذّكر إلا أُولو الألباب).

والتذكر صفة هامة رئيسة في أُولي الألباب. يؤكدها القرآن الكريم ويُلحُّ عليها. فهي الصفة التي تحتوي سائر الصفات وتجمعها :

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (الرعد : ١٩)

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (إبراهيم : ٥٢)

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (ص : ٢٩)

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

(الزمر : ٩)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الزمر : ٢١)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝٥٣ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

(غافر : ٥٣، ٥٤)

فارتبطت الذكرى، وارتبط التذكر، في هذه الآيات الكريمة بخصائص هامة : معرفة الحق الذي أُنزل من عند الله معرفة علم واتباع وتدبر، تدبر آيات الله في الكون تدبر إيمان وعلم، ومتابعة وملاحظة لسنن الله في الحياة الدنيا، كالنبات والزرع مختلفاً ألوانه، ثم ينمو ويزدهر، ثم يصفرّ ثم يكون حطاماً. فهذا علم وتدبر وعبرة. ثم هدى من عند الله. وارتبطت كذلك في الآيات السابقة بالحكمة والتقوى.

وصفة أخرى لأُولي الألباب :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ

﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف : ١١١)

إنها العبرة التي يستخلصها أُولو الألباب من قصص مضى ، فتعيها قلوبهم ، وعياً وتدبّراً ، وعظة وتفكراً ، حتى يعلموا أنّ القرآن حق ، فما كان حديثاً يفترى ....!

فإذا جمعنا هذه الخصائص المميزة لأُولي الألباب ، وضمّ بعضها إلى بعض ، في أجواء الآيات الكريمة ، والتنزيل الحقّ ، إذا جمعنا هذا كلّه ، برزت لنا خصائص القوة والعزيمة ، والموهبة والفطنة ، والوسع والطاقة ، والمعدن الكريم والفطرة السليمة ، والإيمان والتقوى ، والعلم والمعرفة ، والتفكّر والتدبّر ، والسعي والعمل ، والبذل والعطاء . إنّه الجيل القوي الذي يستطيع أن يتقدم ليحمل أعباء دعوة ، وأَمانة رسالة ، على صبر وثبات ، لا يتفلّتون ولو خالفهم من خالفهم ، ظاهرين بتمسّكهم بكتاب اللّه وسنّة نبيه صلى اللّه عليه وسلم ، علماء عاملون ، وورثة للأَنبياء .

هذه هي الطائفة التي تخرج من قلب الجيل المؤمن ، لتتقدم بمعدنها وفطرتها ، وإيمانها وعلمها ، وبذلها وعطائها ، وموهبتها وقوتها .

إذن لا نقصد بالجيل المؤمن أن تصبح الأُمة كلها فرداً فرداً على مستوى ثابت عالٍ من الإيمان والعلم والخبرة والبذل . ولا نعني بالجيل المؤمن أن يبلغ عدداً محدداً ثابتاً ، فذلك أَمر يقرره الواقع وأَحواله وحاجاته . ولا نعني كذلك أن بناء الجيل المؤمن عملية تنتهي وتتوقف في مرحلة ما أَو في زمن ما .

ولكننا نعني بالجيل المؤمن هو الجيل الذي يكون ثمرة نجاح الهدفين

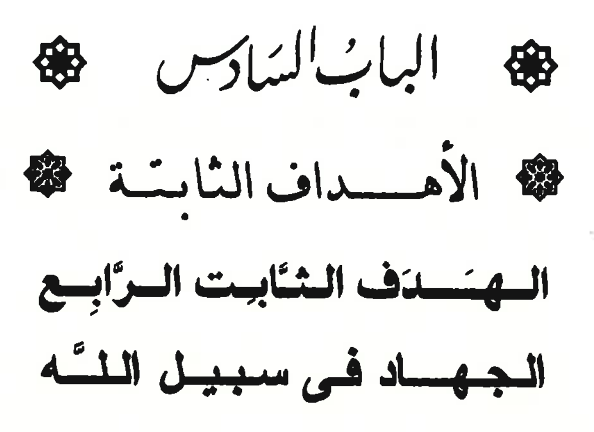
الثابتين الأول والثاني : الدعوة والبلاغ ، والبناء والتربية . وهذا النجاح يفرض توافر الخصائص الربانية التي أَمر اللّه بها ، والتي وعد اللّه عباده بالنصر والتمكين إِذا هم أَوفوا بها .

ونعني كذلك بالجيل المؤمن أَن يكون هو الجيل القادر بإمكاناته التي يطلبها الإسلام قادراً على المضيّ إِلى الهدف الذي يليه ، هدف الجهاد في سبيل اللّه وسائر الأهداف الثابتة التالية ، وأَن يتحمل مسؤولية الإعداد والتخطيط لكل هدف والمضيّ إليه مستوعباً وسعه وطاقته دون توانٍ وعجز .

وهو الجيل الذي يظل قلبه معلقاً بالجنة حقّاً ، لا شعاراً تُدوِّى به الحناجر والندوات ويختفي في الميادين والساحات .

هذا الهدف الثالث الثابت يعمل معه في الوقت نفسه الهدفان السابقان ويمضيان معه لتحقيق سائر الأهداف . وهذا الهدف ، مع ارتباطه بالأهداف السابقة ، فإنه كذلك مرتبط بالهدف الأسمى والأكبر – الجنة ، لتظلّ الدعوة الإسلامية ماضية أبد الدهر على ترابط أهدافها ، تقذف في الميدان الأَجيال المؤمنة دون توقف ، لبناء حياة نظيفة للإنسان على الأُرض ، لمحاربة الفتنة والفساد والجريمة والظلم ، وإقامة الحق والعدل والأَمن ، ولتحمل رسالة اللّه إِلى الناس ، رسالة الإِيمان والتوحيد ، ولتخرج الناس من عبادة العباد والأَوثان إِلى عبادة اللّه الذي لا إِله إلا هو .

الجيل المؤمن هو الجيل الذي تتوافر فيه الخصائص الربانية التي أمر اللّه بها ، وهو بذلك ثمرة نجاح الهدفين الأول والثاني ، وهو الجيل الذي يحمل معه الأَهداف الثابتة الثلاثة الأولى ويمضي لتحقيق سائر الأهداف الثابتة ماضياً بثقة واطمئنان إِلى الهدف الأَكبر والأَسمى الجنة – على نهج واضح جليّ .



الباب السادس

الأهداف الثابتة

الهدف الثابت الرابع

الجهاد فى سبيل الله

الباب السادس

الهدف الثابت الرابع

الجهاد في سبيل الله

حين ندرس الجهاد في هذا الفصل، ندرسه على أَنّه هدف ثابت من أَهداف لقاء المؤمنين. هدف ينضمّ إلى سائر الأهداف لتمثّل كلها منارات مشرقة في مسيرة طويلة. إنّه الهدف الرابع. إنه هدف يُشرق بقوّة، فيزيح ظلمة، ويوقظ من غفلة، ويصحِّحُ مَسيرة.

ولعله من المفيد أن ندرس معنى لفظة «الجهاد» وأَصلها، عسى أَن يفيدنا هذا في سلامة التصور. ونحن نعيش مع الآيات الكريمة، والأَحاديث الشريفة.

الجُهد، بفتح وضم الجيم: الطاقة والوسع.

الجَهد، بفتح الجيم فقط: المشقَة، وقيل: المبالغة والغاية.

جَهَدَ يجهَد جَهْداً: جدّ، اجتهد، جهد الدّابة جَهْدًا: بلغ جهدها، وحمل عليها في السير فوق طاقتها كأجهدها.

جَهَدَ بزيد: امتحنه عن الخير وغيره.

جهد المرضُ فلانًا (والتعب، والحب)، يجهَدُه جَهْدًا: هَزَله.

جَهَدَ اللبنَ: من المجاز، أخرج زبْدَه.

جَهَدَ الطعامَ: اشتهاه، أَو أَكثر من أكله.

جَهِدَ عيشه: نَكِدَ، واشتد، وعيش مجهود.

أَرْضٌ جَهاد : صلبة ، لا نبات فيها ، مستوية ، غليظة ، والصحراء جَهاد .

الجِهادُ : القتال مع العدو ، كالمجاهدة

والجهادُ هو المبالغة واستفراغُ ما في الوسع والطاقة من قول أو فِعل .

وحقيقة الجهاد كما قال الرّاغب : استفراغ الوسع والجُهد فيما لا يُرتضى وهو ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر ، والشيطان ، والنفس [١] .

ولقد وردت هذه اللفظة الكريمة في كتاب اللّه في سور مكية ، وفي سور مدنية . ونحن نعلم أن المسلمين في مكة لم يرفعوا سيفاً مع العدو ، وما دخلوا قتالاً . ولكنها تظل تحمل المعنى العظيم وهو استفراغ الوسع والطاقة في مجاهدة العدو ، ومجاهدة النفس ، ومجاهدة الشيطان .

ففي سورة الحجّ وهي سورة مدنية كانت الآية :

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ (الحج : ٧٨)

فنرى أن هذه الكلمات من الآية : وجاهدوا في اللّه حقّ جهاده ، جمعت كلَّ ضروب الجهاد وأبوابه ، من قتال العدو ، ومن الإعداد لذلك ، ومن بذل المال وبذل النفس ، ومجاهدة الشهوات ، ومجاهدة الشيطان ، ووسوسته ، وبالسلاح ، واللسان ، والأدب ، والفكر ، والسياسة والاقتصاد ، جهاداً كاملاً يستوعب طاقة الأُمّة كلّها ، ويستوعب مواهبها ، وقدراتها . فذلك أصل معنى الجهاد ، كما سبق أعلاه ، وهو

(١) تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي .

معنى مستمرّ ممتدّ لا يتوقف : استفراغ الوسع والطاقة .

وسورة العنكبوت مكية . فاستمع إلى جَلبة الجهاد في ميدان التربية والإعداد ، والبناء والتكوين :

﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

(العنكبوت : ٥ - ٧)

فارتبط الجهاد بصدق النيّة ، وسلامة التوجه إلى اللّٰه ، وحسن الرجاء في لقائه . وأعطى الجهاد ثمرته إيماناً وعملاً صالحاً جزاؤه التكفير عن السيئات ، وجزاؤه أحسن الذي كانوا يعملون . قال الحسن البصري :

(إنّ الرجل ليجاهد وما ضرب يوماً من الدهر بسيف) .

وكذلك في سورة العنكبوت :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(العنكبوت : ٦٩)

والذين جاهدوا فينا : جاهدوا أنفسهم وهواهم ، وجاهدوا الشيطان وما يزيّنه ، وجاهدوا أعداء الدين .... إنه جهاد جامع لكل أبواب العمل والجهاد ، مادام مرتبطاً باللّٰه ، على نهج إيمانّي ، ودرب ربّانيّ ، مستوفياً شرائط الإيمان ، وصدق النية ، وقواعد العقيدة .

وعن عائشة ، قالتْ : قلتُ : يا رسول اللّٰه ! على النساء جهاد ؟ قال : « نعم ، عليهنّ جهاد لا قتال فيه : الحجّ والعمرة » . (رواه ابن ماجه)[1]

(١) ابن ماجه : أبواب المناسك (٢٠) . باب (٨) حديث (٢٩٣٣) .

ففي هذا الحديث الشريف كان الحجُّ باباً من أَبواب الجهاد. وهو جهاد للرجال والنساء. ولكنه جهاد لا قتال فيه.

وعن أبي رافع مولى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنّ عبد اللّه بن مسعود حدثه، أَن النبيّ صلى اللّه عليه وسلم قال: «ما من نبيّ بعثه اللّه قبلي إلّا كان له من أُمّته حواريون، وأصحاب يأخذون بسنّته، ويقتدون بأَمره، ثم تخلّف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون. فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

(رواه مسلم)[1]

وهنا تجتمع أَبواب شتى من الجهاد: فهو باليد وما تحمله من عدّة وسلاح، وهو باللسان وما يدفعه من شعر أَو نثر أَو كلمة يجاهد بها، وهو بالقلب نيّة ودعاء وتوبة ولجوء إلى اللّه.

وعن أنس أَنّ النبيّ صلى اللّه عليه وسلم قال: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأَنفسكم وأَلسنتكم».

(أخرجه أبو داود)[2]

وامتدّ الجهاد هنا إلى أن شمل المال والنفس وما يقوى عليه اللسان إعلاماً ودعاية، عزّة للمؤمنين وتخذيلاً للمشركين، ونصحاً للّه ولرسوله صلى اللّه عليه وسلم، ولكتابه، ولأئمة المسلمين، وعامتهم.

وعن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي اللّه عنهما قال: جاء رجل إلى

---

(١) مسلم: كتاب الإيمان (١). باب (٢٠). حديث (٥٠).

(٢) أبو داود: كتاب الجهاد (٩). باب (٨١). حديث (٢٥٠٤).

النبيّ صلى اللّه عليه وسلم ، فاستأذنه ، في الجهاد ، فقال : « أَحَيٌّ والداك ؟ » قال : نعم ، قال : « ففيهما فجاهد ».

(رواه الخمسة)[1]

وهذا باب آخر من أَبواب الجهاد . ألا وهو برّ الوالدين ، وما أعظمه من جهاد . وقد قال اللّه سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (الإسراء : ٢٣)

من اللغة العربية وأُصولها ، ومن منهاج اللّه قرآناً وسنّة ، نرى أَن معنى « الجهاد » و« جاهد » أصبح أكثر وضوحاً وإشراقاً . ونستطيع أَن نخرج من العرض السابق لمعاني اللغة ، والآيات الكريمة ، والأَحاديث الشريفة ، بثلاث صور وظلال لاستعمال كلمة « الجهاد » ومشتقاتها :

١- جهاد النفس والشيطان ، وأَعمال البرّ والإحسان ، والطاعة والعبادة على مشقة وجهد وبذل ، بنيّة صادقة للّه .

٢- الجهاد العسكري والقتال ، بكل ما يتبعه مع صدق النيّة واستكمال شروطه الإيمانية .

٣- الجهاد الشامل العام الذي يشمل كلّ أبواب البذل والجهد طاعة وعبادة للّه .

ولكننا في بحثنا هذا نحاول أَن نتحدث عن الجهاد في سبيل اللّه بمعناه

---

(١) البخاري فتح الباري : كتاب الجهاد والسير (٣٦) . باب (١٣٨) . حديث (٣٠٠٤) ، مسلم : كتاب البر والصلة والآداب (٤٥) . باب (١) . حديث (٢٥٤٩) ، النسائي : كتاب الجهاد (٢٥) باب (٥) . حديث (٣١٠٣) ، أحمد : المسند (٢/ ١٦٥ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ، ١٩٧ ، ٢٢١) ، الفتح : (٣٦/١٩) ، الترمذي : كتاب الجهاد (٢٤) . باب (٢) حديث (١٦٧١) .

العام مع التركيز على القتال. ومع هذا الاعتبار فإننا لا نكون في حقيقة الأَمر أَغفلنا باباً من أَبواب الجهاد. لأن الجهاد العسكري، كما سنبين بعد قليل، هو مرحلة من نهج، والجهاد بأبوابه كلها يمضي مع النهج خطوة خطوة. فإن الممارسة الإيمانية، والعمل الصالح، لا يكاد يخلو من جهد يبذله المؤمن، ومعاناة يمر فيها، ومجاهدة يقاسيها، ليستوعب ذلك كله وسعه وطاقته.

ولا نبحث «الجهاد» هنا لنفصّل في كلّ أَحكامه ووسائله، وآدابه وأَبوابه، ولكننا نبحثه هنا من حيث هو هدف ثابت في لقاء المؤمنين، لنعرف مكانه ودوره، وارتباطه بسائر أَهداف لقاء المؤمنين. فنعرض من كل أَمر ملامح تساعد على وضوح الهدف.

وإذ كان بعض المسلمين اختلفوا في مبرراته ووجوبه، فإننا لسنا هنا لنناقش هذا القول أَو ذاك. فلنا نهج في الاستفادة مما نتلوه من آيات في كتاب اللّه، خلاف الجدل الذي يشغل المجالس والصحائف، ولا ينهض بالمسلمين إلى ميدان. فإنْ قال فريق إنّ الجهاد فرض لردّ العدوان، فإننا نقول: إنَّ العدوان واقع على المسلمين منذ بعث محمد صلى اللّه عليه وسلم، حتى يومنا هذا. وإن قال فريق آخر: إنه فرض في كل حال، سواء أَوقع عدوان أَم لم يقع، فإننا نقول هذه الميادين مفتحة فاصدقوا اللّه فيها. وعندما ندرس الجهاد كهدف من أَهداف لقاء المؤمنين مرتبطاً بسائر الأَهداف ارتباط عقيدة ونهج، فإن الصورة تشرق مع الآيات ونورها، والأَحاديث وبشرها.

١- معنى «في سبيل اللّه»:

إذا كنا عرفنا معنى كلمة الجهاد ومشتقاتها من أصول اللغة ومن

منهاج الله قرآناً وسنّة، دون أَن نلجأ إِلى تأويل، فإنّنا سنحاول أَن نفهم معنى «في سبيل الله» من المنهاج الربّانيّ، على نفس الأُسلوب، حتى نتجنّب الزلل إِن شاء الله. ونقترب من الصواب، على قدر ما يُيَسِّرُهُ الله لنا.

إِن الأُمّة المسلمة مكلفة شرعاً بواجب لا يحلّ النكوص عنه. أَلا وهو الدعوة إِلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، كما عرضناه في الصفحات السابقة، الهدف الأول من الأَهداف الثابته في لقاء المؤمنين. وهذا الهدف الأَول الثابت مرتبط بالهدف الأَكبر للقاء المؤمنين: الجنّة. وهو مرتبط كذلك بسائر الأَهداف الثابتة.

والجهاد في سبيل الله هدف من الأَهداف الثابتة، مرتبط هو نفسه بسائر الأَهداف كلها، مرتبط بالهدف الأَكبر - الجنّة. ومرتبط بالهدف الأَول من الأَهداف الثابتة - الدعوة. والدعوة تحتاج إِلى رجالها ودعاتها، وإِلى أَرضها وثرواتها، وإِلى جندها وقادتها، وإِلى نهجها وخطتها. إِنها تحتاج إِلى ذلك كله، وكثير غيره، حتى تمضي في الأَرض كلها، وحتى تُفَتَّحَ لها الدروب والأَبواب.

فالجهاد في سبيل الله إِذن هو لحماية الدعوة، لحماية المسلمين: أَنفساً ودياراً وثروات ومنهجاً، وكذلك لدفع الدعوة في الأَرض لتبلغ النّاس، لنشر كلمة الإِسلام، وإِعلاء كلمة الله، حين لا تنفع الحكمة والموعظة الحسنة، ولا يكفي جهاد اللسان والبيان، وجهاد السياحة والبلاغ، وحين تُصَدُّ الدعوة عن غايتها، وتقفل الدروب والمسالك أَمامها، وتبذل الجهود لخنقها.

فالجهاد إِذن وسيلة من وسائل الدعوة إِلى الله ورسوله صلى الله عليه

وسلم، وقوة من قواها، لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة اللّه الواحد الأحد. وليمضي الجيل المؤمن بالدعوة، بكل قواها، وسلامة نهجها، حتى تكون كلمة اللّه هي العليا.

فحين يدافع المسلمون عن ديارهم، فذلك جهاد في سبيل اللّه إذا صدقوا النيّة، ولم يبدّلوا الراية. وحين يتواثبون ليبلّغوا دعوة اللّه إلى الناس، في صف مرصوص، وجند متماسك، وسلاح مشهور، على طهارة نفس، وصدق إيمان ونيّة، وسلامة علم ونهج، فذلك جهاد في سبيل اللّه، ما دامت الكلمة لم تعد تبلغ، والحكمة تُرَدّ، والموعظة الحسنة لا تجد مسلكاً. إنّ محاولات بعض الناس في تشويه حقائق الإسلام في دعاوة مضللة، أو فتنة كاذبة، يجب أَن لا يصدَّنا عن إعلان كلمة الحق، بوضوح نهج وقوة دليل.

والقتال الشرعيّ هو قتال في سبيل اللّه، لا في سبيل أي شيء آخر. ولا يكون الجهاد جهاداً شرعيّاً حتى يكون في سبيل اللّه حقّاً، مستوفياً لجميع خصائص الجهاد في منهاج اللّه. ولقد سبق أَنْ عرضنا في الفصول السابقة آية وحديثاً يشرحان ظلّاً من ظلال « في سبيل اللّه ». ولقد رأَينا كيف أَنَّ الجهاد في سبيل اللّه، غاية من غايات الدعوة، وهدف من أَهداف لقاء المؤمنين، يمتدّ على درب طويل، لينقلنا إلى هدف ثابت آخر من أَهداف لقاء المؤمنين، سنعرض له في فصل مقبل: « لتكون كلمة اللّه هي العليا ». فَمَعْنَى « في سبيل اللّه » يصبح مع هذه الظلال « لتكون كلمة اللّه هي العليا ». ويأتي تفصيل هذه الخصائص وامتدادها في منهاج اللّه، ليوضّح لنا معنى في سبيل اللّه جهاداً، وإنفاقاً، وعلماً، وعملاً صالحاً، وطاعة، وعبادة، وسائر ما يجاهد به المؤمن ليحقق الهدف الثابت: « لتكون كلمة اللّه

هي العليا » . إنّها قواعد ربانيّة .

وفي الحديث الشريف :

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبيّ صلى اللّه عليه وسلم قال : « أمرتُ أَن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا اللّه فمن قال لا إله إلا اللّه فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على اللّه » .

(رواه الخمسة)[1]

إذن فالقتال أمر من عند اللّه لرسوله صلى اللّه عليه وسلم ولأُمَّته بخصائصها التي حدّدها منهاج اللّه . ومنها أن تكون هذه الأمة صفا وحدّا كالبنيان المرصوص .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (الصف : ٤)

أما غاية القتال فهي واضحة بينة : « حتى يقولوا لا إله إلا اللّه » . إنَّ هذه القضية هي محور الحياة ، محور الدّعوة ، محور الجهاد .

وعن أنس رضي اللّه عنه عن النبيّ صلى اللّه عليه وسلم قال : « أمرت أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أَنْ لا إله إلا اللّه وأَنَّ محمدًا عبده ورسوله وأَن يستقبلوا قبلتنا وأَن يأكلوا ذبيحتنا وأَنْ يُصلّوا صلاتنا . فإذا فعلوا ذلك حَرُمَتْ علينا دماؤهم وأموالهم إِلا بحقها ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين » .

(رواه أصحاب السنن)[2]

---

(١) البخاري فتح الباري : كتاب الزكاة (٢٤) . باب (١) . حديث (١٣٩٩) ، مسلم : كتاب الإيمان (١) . باب (٨) حديث (٢٠) ، (٢١) ، (٢٢) ، أبو داود : كتاب الزكاة (٣) . حديث (١٥٥٦) ، كتاب الجهاد (٩) . باب (١٠٤) . حديث (٢٦٤٠) .

(٢) نفس الهامش السابق .

إنها القضية ذاتها، والأَمر المنزّل من عند اللّه ذاته. إنه تأكيد، وتكرار، وإِلحاح، بشدّة وقوة، حتى لا تبقى فرجة لشك.

ولكننا نأمل أَن يكون العرض السابق قد بيَّن لنا أَنَّ القتال ليس عملية ارتجال، وليس عملية عاطفة خالية من قوّة الوعي والإعداد، وسلامة النهج، وعبقريّة الخطة. إنها ليست عملاً آليّاً يقوم به المسلمون، في ظل بعض المظاهر، وهم غافلون عن الحقيقة والجوهر وغارقون، في جدل ومظهر.

وأول هذه القواعد هو صدق النيّة والإخلاص. وأيّ شائبة تشوبها فقد أبطلت العمل، وضيّعت الأجر، وأَساءت إِلى الدعوة الإِسلامية، وزعزعت من صفاء لقاء المؤمنين:

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه: أن رجلاً قال: يا رسول اللّه، رجل يريد الـجهاد في سبيل اللّه، وهو يبتغي من عرض الدنيا؟ فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «لا أجر له، فأعظم ذلك الناس. وقالوا للرجل: عد لرسول اللّه، لعلك لم تفهمه. فقال يا رسول اللّه، رجل يريد الجهاد في سبيل اللّه، وهو يبتغي من عرض الدنيا؟ قال: لا أجر له. فقالوا للرجل: عد لرسول اللّه، فقال له الثالثة، فقال: لا أجر له».

(أخرجه أبو داود)[1]

ونعيد الحديث الذي سبق ذكره لأَهميّته، ولكثرة ما يحدّد من خصائص:

عن أبي موسى الأشعري رضي اللّه عنه: «سُئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن الرجل: يقاتل شجاعة، ويقاتل حميّة، ويقاتل رياءً: أيّ

(١) أبو داود: كتاب الجهاد (٩). باب (٢٥). حديث (٢٥١٦).

ذلك في سبيل اللّه؟ فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «من قاتل لتكون كلمة اللّه هي العليا». وزاد في رواية: فهو في سبيل اللّه».

(أخرجه الخمسة)[1]

صفاء في النيّة لا تشوبه شائبة من شوائب عرض الدنيا. نعمت الشجاعة للمؤمن، على أن لا تَفسد النِّية، ولا تكون هي القصد. وكذلك الحميّة المؤمنة. وبئس الرياء، فإنه يفسد كل نيّة. إن هذا الحديث الشريف ليوضح النيّة وكيف يكون صفاؤها، ويعرض الهدف ويبينه، ويشرح معنى «في سبيل اللّه»، شرحاً يقطع كلّ شبهة.

عن سعيد بن زيد رضي اللّه عنه قال: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتِل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد» وفي رواية للنّسائي جاء فيها: «ومن قتل دون أهله فهو شهيد».

(رواه الترمذي وأبو داود والنسائي)[2]

من قتل دون ماله ....، من قتل دون دمه ....، من قتل دون دينه ....، من قتل دون أهله ......! هذه هي ركائز حياة المؤمن في الدنيا: روحه ودمه، ماله، دينه، أهله. وبهذه القوى، وهذه الركائز يجاهد في سبيل اللّه، يجاهد لتكون كلمة اللّه هي العليا .....! هي أساس

(١) البخاري (فتح الباري): كتاب الجهاد (٥٦). باب (١٥). حديث (٢٨١٠)، مسلم: كتاب الإمارة (٣٢). باب (٤٢). حديث (١٩٠٤)، الترمذي: كتاب فضائل الجهاد (٣٢). باب (١٦). حديث (١٦٤٦)، أبو داود: كتاب الجهاد (٩). باب (٢٦). حديث (٢٥١٧)، النسائي: كتاب الجهاد (٢٥). باب (٢١). حديث (٣١٣٦).

(٢) الترمذي: كتاب الديات (١٤). باب (٢٢). حديث (١٤٢١). أبو داود: كتاب السنة (٣٤). باب (٣٢). حديث (٤٧٧٢)، النسائي: كتاب تحريم الدم (٣٧). باب (٢٢). حديث (٤٠٨٤-٤٠٩٤).

كلّ قوّة يجمعها ليمضي على الدرب ، ليحقق أهداف لقاء المؤمنين . فهي إذن تستحق الرعاية ، والحماية ، والصون . وتستحق أَن يدافع عنها ، ويبذل دونها نفسه ، ما دامت هذه القوى مرتبطة في نفسه ، ونيّته ، بالهدف الأكبر ، والغاية الأَوسع : لتكون كلمة اللّه هي العليا .....، في سبيل اللّه .....، الدعوة إلى اللّه ورسوله صلى اللّه عليه وسلم ، لقاء المؤمنين .....، الجنّة .....! ما دامت هذه القوى المادية التي يدافع عنها ، مرتبطة كلّ الارتباط ، دون أَيّ شائبة من رياء ، أَو عرض من عرض الدنيا ، بهذه الأَهداف الربانيّة ، ما دام هو يدافع عنها ، ونيّته صادقة مع اللّه ، خالصة للّه ، مرتبطة بهذه الأَهداف الربانيّة ، فإن قتل فهو شهيد . وإن غاب هذا الارتباط ، أو فسدت النيّة ، فكيف تأتي الشهادة ..؟!

ولا نحبّ أَن يختلط الأَمر على قلب المسلم ، فيحسب كلَّ من مات دون ماله ، أو أهله ، أو أرضه ، أو داره ، شهيدًا ، حتى ولو دفعه إلى ذلك حميّة جاهلية ، وكبر دنيوي ، وعصبيّة إقليمية ، أَو قومية جاهليّة ، أو عرض من الدنيا . لا ....! إنّ الصورة الإيمانيّة تختلف عن ذلك كلّ الاختلاف . فلا بدّ أَن تكون النيّة مبرّأَة من كل ذلك ، نقيّة من كل شائبة ، خالصة للّه تعالى دون أيّ شبهة ، مرتبطة بلقاء المؤمنين وأهدافه ، متعلّقة بالدعوة وغاياتها ، مشدودة إلى هناك .... هناك ....، على طريق ممتدّ ، يمُدّه الجهاد لتكون كلمة اللّه وحدَها هي العليا ، إلى هناك ...، إلى الجنّةّ ! وبدون ذلك يبطل العمل ، ويذهب الأَجر ، ولا تكون شهادة .

٢ – ملامح من خصائص الجهاد في سبيل اللّه :

والأَحاديث الشريفة في هذا الباب كثيرة . إنها أَحاديث تُفصِّل في خصائص الجهاد في سبيل اللّه ، في كل خاصية من خصائصه ، كما فصلت

هنا في النيّة . وبهذا الأُسلوب وحده ، لا بسواه ، نستطيع أَن نعرف معاني الأَلفاظ : « في سبيل اللّه » ، وغيرها .

ونورد أَدناه بعض الأَحاديث ، لنوضح طرفاً من هذه الخصائص . إِننا نأْخذ قبسات ولمحات :

عن أَنس بن مالك رضي اللّه عنه : « أَنَّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : من انتهب فليس منا » . (أخرجه الترمذي)[1]

وعنه رضي اللّه عنه كذلك قال : كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا غزا قال : « اللهم أَنت عضدي ونصيري ، بك أَصول ، وبك أقاتل » .
(رواه مسلم ورواه الترمذي وأبو داود)[2]

عن جابر بن عبد اللّه رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « الحرب خدعة » .
(أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود)[3]

وكلمة خدعة وردت في مختلف الروايات على ثلاثة أوجه[4] .

خَدْعة : أي ينقضي أمرها بخَدْعة واحدة من القتال ، فإذا خدع القاتل مرة واحدة فليس له إقالة وهي مصدر مرّة .

خُدْعة : وهي الاسم من الخداع .

---

(١) الترمذي : كتاب السير (٢٢) . باب (٤٠) . حديث (١٦٠١) .

(٢) مسلم : كتاب الجهاد والسير (٣٢) . باب (٦) . حديث (١٧٤٢) ، الترمذي : كتاب الدعوات (٤٩) . باب (١٢٢) . حديث (٣٥٨٤) .

(٣) البخاري (فتح الباري) : كتاب الجهاد (٥٦) . باب (١٥٧) . حديث (٣٠٢٩ ، ٣٠٣٠) ، مسلم : كتاب الجهاد والسير (٣٢) . باب (٥) . حديث (١٧٣٩ ، ١٧٤٠) ، أبو داود : كتاب الجهاد (٩) . باب (١٠١) . حديث (٢٦٣٦ ، ٢٦٣٧) .

(٤) « النهاية » .

خُدَعة : مثل لُعَبَة ، ضُحَكة ، الحرب تخدع الرجال وتمنّيهم ولا تقي لهم . وهنا بمعنى كثيرة الخداع .

عن معاذ بن جبل رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « الغزو غزوان ، فأمّا من ابتغى وجه اللَّه ، وأَطاع الإمام ، وأَنفق الكريمة ، وياسر الشريك ، واجتنب الفساد ، فإنّ نومه ونبهه أجر كله ، وأمّا من غزا فخراً ورياء وسمعة ، وعصى الإمام ، وأفسد في الأَرض ، فإنه لم يرجع بالكفاف » .

(أخرجه مالك وأبو داود والنسائي) [١]

ونلاحظ هنا : « وأَطاع الإِمام ... » . فلم يستعمل لفظة أخرى ، وإنّما نصّ على الإِمام الذي يقيم منهاج اللَّه في الأَرض ، ويجاهد في سبيل اللَّه على نحو ما عرضنا . فإنْ أقامه ، وأوفى بأمانته فهو الإِمام . وتظلّ لفظة الإِمام تحمل مدلولها الشرعيّ ، وجميع ظلالها من منهاج اللَّه .

عن أبي موسى الأَشعري رضي اللَّه عنه قال : كان النبيّ صلى اللَّه عليه وسلم إِذا بعث أَحدًا من أَصحابه في بعض أَمره قال : « بشّروا ولا تنفّروا ، ويسّروا ولا تعسّروا » .

(أخرجه مسلم) [٢]

عن أنس بن مالك رضي اللَّه عنه : « أَنّ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم كان إِذا بعث جيشاً قال : انطلقوا باسم اللَّه ، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ،

---

(١) مالك الموطأ بمعناه : كتاب الجهاد حديث (٩٦٦) ، أبو داود : كتاب الجهاد (٩) . باب (٢٥) . حديث (٢٥١٥) ، النسائي : كتاب الجهاد (٢٥) . باب (٤٦) . حديث (٣١٨١) .

(٢) مسلم : كتاب الجهاد والسير (٣٢) . باب (٣) . حديث (١٧٣٢) .

ولا طفلاً صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلّوا، وضمّوا غنائمكم، وأصلحوا وأَحسنوا، إِنّ اللّه يحب المحسنين».

(أخرجه أبو داود)[1]

وهكذا يكون الجهاد: انطلقوا باسم اللّه، باسم اللّه وحده لا شريك له. لا يَرفع راية أخرى، أو شعاراً آخر. وهكذا تأخذ اللفظة الكريمة: «في سبيل اللّه»، معنى ممتداً، يتسع كلما أوردنا نصوصاً أخرى.

إننا هنا نورد أَمثلة وقبسات ولكنّ منهاج اللّه يعرض تفاصيل الجهاد في سبيل اللّه، خصائصه، وأَحكامه، وآدابه، وأَهدافه، حتى لا يبقى فرصة لجدال، إِلا لمنافق، أَو جاهل، أَوعدو. وإِن المقاتلين ليحتاجون أَن يدرسوا هذه القواعد كلها، بدقة وبتفصيل، قبل أن ينزلوا إِلى الميدان، فتتحول الميادين إِلى صراع دعاية، وحرب دنيا، ومجازر وحوش، وفتنة أَهواء.

ما أَحوج العالم كلّه إِلى هذه القواعد. ما أَحوجه إِلى الجهاد في سبيل اللّه، لتُرَوَّض الوحوش، ويعمَّ الأَمن بين العباد.

إِنَ المقاتلين، إِذا أَرادوا حقّاً أَن يكون قتالهم جهاداً في سبيل اللّه، عليهم أَن يدرسوا هذه القواعد، وكثيراً غيرها، وأَن يؤمنوا بها، وأَن يتدرَّبوا على ممارستها في واقع الحياة، من خلال المنهاج الربّانيّ، قبل أَن يطلقوا رصاصة، قد تعود ويلاتها عليهم، وقد تدمّرهم تدميراً....!

تمتد خصائص الجهاد في سبيل اللّه في منهاج اللّه حتى تأخذ صورتها المتكاملة. ولم تكن هذه الخصائص محدودة في فترة أو مخنوقة في أَرض. ولكنها امتدت مع الدعوة إِلى اللّه ورسوله صلى اللّه عليه وسلم، امتدت مع الزمن والأَرض.

---

(١) أبو داود: كتاب الجهاد (٩). باب (٩٠). حديث (٢٦١٤).

فهذه وصية الخليفة أبي بكر لعمرو بن العاص رضي اللّه عنهما إذ استعمله على جيوش الشام [1] :

« يا عمرو ! اتق اللّه في سرائرك وعلانيتك واستحيه ، فإنه يراك ويرى عملك . وقد رأيت تقديمي إيّاك على من هم أقدم سابقة منك ، ومن كان أَعظم غِنيً عن الإِسلام وَأهله منك . فكن من عُمّال الآخرة ، وأَردْ بما تعمل وجه اللّه ، وكن والداً لمن معك ، ولا تكشفنّ الناس عن أستارهم واكتفِ بعلانيتهم ، وكن مجدّاً في أمرك ، واصدق اللقاء إِذا لاقيت ولا تجبن ، وتقدم في الغلول وعاقب عليه . وإذا وعظت أصحابك فأَوجز ، وأَصلح نفسك تصلح لك رعيتك » .

هكذا تمتد خصائص الجهاد في سبيل اللّه ، امتداداً يعز اللّه به دينه ، وينصر به أَولياءه .

ومن كتاب أبي بكر رضي اللّه عنه إِلى عامة الجند مع خالد رضي اللّه عنه :

« .... أما بعد ، فالحمد للّه الذي أَنجز وعده ، وصدق عبده ، وهزم الأَحزاب وحده . وقد وعد اللّه المؤمنين وعداً لا خلف فيه ، وقولاً لا ريب فيه . وقد فرض الجهاد على عباده فرضاً مفروضاً. فقال تبارك وتعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ

(١) حياة الصحابة جـ ٢ ص ٢٦٣ .

لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1] (البقرة: ٢١٦)

وأخرج مالك عن رجل من أهل الكوفة أَنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كتب إلى عامل جيش كان بعثه، أنّه بلغني أَنّ رجالاً منكم يطلبون العلج حتى إذا اشتد في الجبل، وامتنع فقال الرجل «مترس» - يقول: لا تخف، فإذا أدركه قتله. وإني - والذي نفسي بيده - لا يبلغني أَنَّ أَحداً فعل ذلك إلا ضربت عنقه[2].

ونجد في وصيّة عمر بن الخطاب لأَبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما، زادا كثيرًا من خصائص الجهاد في سبيل الله.

«أوصيك بتقوى الله الذي يبقى، ويفنى ما سواه، الذي هدانا من الضلالة، وأَخرجنا من الظلمات إلى النور، وقد استعملتك على جند ابن الوليد فقم بأَمرهم الذي يحق عليك. لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم. (أي تبعث رائداً يرود المكان ويتعرّف عليه)، وتعلم كيف مأتاه، ولا تبعث سريّة إلا في كثف من الناس (جماعة)، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة وقد أبلاك الله بي وأبلاني بك. فغمض بصرك عن الدنيا واله قلبك عنها. وإياك أَن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك، فقد رأيت مصارعهم».

(أخرجه ابن جرير ج ٤ ص ٥٤ عن صالح بن كيسان)[3]

وهكذا تظل خصائص الجهاد في سبيل الله تبرز، وتتضح، وتمتدّ، مع الآيات الكريمة، والأَحاديث الشريفة، والممارسة في الواقع البشريّ: في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وسيرة الخلفاء الراشدين. وليس من الإنصاف أَن نأخذ حديثاً واحداً، يشير إلى قضية محددة، لنخرج منه

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ٣١٣.

(٢) حياة الصحابة جـ٢ ص ٢٤٤.

(٣) حياة الصحابة جـ ٢ ص ٢٧٠.

بحكم عام. وإنما يخرج الحكم العام من خلال تناسق الصورة الكاملة للجهاد في المنهاج الربانيّ. فلو أخذنا الحديث: «من قتل دون ماله فهو شهيد .... إلخ».، فقد يلتبس المعنى على جاهل أو منافق، وقد تضطرب الصورة في الرأي العام، تحت أبواق الدّعاوة المضللة، حين يتوهّم النّاس أنّ كلّ من قتل دون ماله فهو شهيد. حتى ولو كان يقاتل تحت راية جاهليّة، أو رياء، أو سمعة ....، مما يفسد النيّة، ويقتل القصد. ولكن حين نربط هذا الحديث الشريف، مع حديث أبي هريرة عن النيّة، وحديث أبي موسى الأشعري، عن معنى في سبيل الله، وحين نربطه مع الممارسة الإيمانية في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، فإنّ الصورة تتضح، والحكم يبين، ولا يضلّ عنها إلا عدوٌّ منافق.

وهكذا نرى أنّ كثيراً من «الألفاظ»، أو «التعابير»، أو «الأحكام»، نجد تفسيرها، ومعناها، وظلالها، في منهاج الله، على صورة واضحة ميسّرة، تغنينا عن التورّط في الخوض في خلافات، وجدل، لا يفيد في ممارسة إيمانية، أو عمل صالح، ولا يفيد في إبراز حقّ على باطل. ولكنه خلاف وجدل يدفع إلى الهوى، ويدفعه الهوى، ويفتح أبواباً واسعة لشياطين الإنس والجنّ. ذلك لأن المؤمن يبحث عن التفسير والمعاني والظلال، كي يباشر عملاً صالحاً، ويمارس قاعدة إيمانيّة. وما أشقى الأمّة التي يتحوّل الجهاد فيها إلى قواعد فلسفية، ونظريات جدليّة، تميت العزيمة، وتقتل الهمّة، وتغلق الميادين، وتحبط الإعداد والتدريب، وتخلط النهج في ظلمة وعتمة.

٣- الجهاد في سبيل الله مع آيات الله:

ونود الآن أن نعود إلى ما كان يجب أن نبدأ به، ألا وهي الآيات الكريمة. ولكنّنا نعتبر البداية السابقة، تمهيداً لفهم الآيات، ومقدّمة لعرض

الصورة . وآيات الجهاد والقتال في القرآن الكريم ممتدة . إنها ممتدة امتداد الدعوة ، وامتداد التبليغ ، وامتداد الرسالة ، حتى استُكمِلت الرسالة ، وانقطع الوحي ، وانتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، فعند ذلك كانت جميع قواعد الجهاد في سبيل الله مستوفاة كل الاستيفاء في منهاج الله ، آيات وأحاديث ، لتقدم أعظم صورة مشرقة ، متناسقة ، للقتال في حياة الإنسان كله على هذه الأَرض . وما أَحوج البشريّة كلها اليوم إلى هذه القواعد ، وقد كادوا ينقلبون إلى وحوش ضارية .....! ولكن هل من مُبلّغ .....!

ففي سورة الحج .

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج : ٣٩، ٤٠)

لا نريد أن نحقق الآن هل هذه هي أَول آية نزلت في القتال أَم غيرها ، على خلاف بين المفسّرين ، جزاهم الله عنا وعن المسلمين خيراً ، فيما قدّموا من علم كريم في هذا الشأن . ولكننا نريد أَن نستكمل قدر المستطاع صورة الجهاد في سبيل الله . وهذه الآية الكريمة من أوائل ما نزل في القتال . وإنّها لتعطي الإذن بالقتال ، حيث لم يكن القتال قبل هذه المرحلة مشروعاً . فلقد كانت الدعوة تمضي على نهج وخطة ، لم يكن القتال من هذه الخطة في مرحلة منها ، ثم شرعه الله في مرحلة أُخرى ، والنهج ماض ، والخطة

ماضية ، بجهد بشريّ ، على سنن اللّه التي لا تتبدّل ، ولكن في رعاية حانية من اللّه ربّ العالمين :

(وإنّ اللّه على نصرهم لقدير ....) .

نعم إن اللّه قدير على كل شيء ....! ولكن سبقت كلمته :

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

(الفتح : ٢٣)

وكذلك :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

(محمد : ٤)

وتمضي الآية الكريمة : الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أَن يقولوا ربّنا اللّه ....! إذن هي الدعوة ....! إنّ ذنبهم أنّهم كانوا يقولون ربّنا اللّه ....! وهنا نذكر قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾

(فصلت : ٣٠- ٣٢)

(إنّ الذين قالوا ربّنا اللّه ...) هم الذين يحملون أَمانة الدعوة ، ويمضون ليبلّغوا الناس ، فيتعرّضون للأَذى ، والخوف ، والحزن ....! فتتنزل الملائكة

عليهم بالسكينة والبشرى والأَمن. ويؤمّن اللّٰه لهم الحماية وفق سننه. ومن سننه: (**ولولا دفع اللّٰه الناس بعضهم ببعض لهدمت .....**). ومن سننه: (**تتنزّل عليهم الملائكة ..**). وسنن أُخرى كثيرة معروضة في منهاج اللّٰه.

(**ولينصرن اللّٰه من ينصره...**). وكيف ينصر الناسُ اللّٰه...! إِنّهم ينصرونه حين يمضون ليبلّغوا رسالة اللّٰه، ويدعون إِلى اللّٰه ورسوله صلى اللّٰه عليه وسلم، بالوسائل المشروعة، على نهج ووعي، بالحكمة والموعظة الحسنة، ويصبرون على ما يلقون، وبالجهاد والقتال في سبيل اللّٰه، فيبذلون المال والنفس. وهكذا يظلُّ محور القضيّة هي الدعوة إِلى اللّٰه ورسوله صلى اللّٰه عليه وسلم، وتبليغ رسالته، وسيظل هذا الأَمر ماضياً حتى يرث اللّٰه الأَرض ومن عليها. وتظل الصوامع والبيع والصلوات والمساجد تحميها سنة اللّٰه في دفع الناس بعضهم ببعض، ذلك أنّها مراكز الدعوة، حيث يذكر اسم اللّٰه كثيراً ....!

وفي سورة البقرة:

﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٩٢ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(البقرة: ١٩٠-١٩٣)

(**وقاتلوا في سبيل اللّٰه الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا .....**). إِنَّ الدعوة ماضية. إِنّها يجب أَن تظلّ ماضية. ولكنّ الكافرين لا يريدون ذلك، إنهم ينهضون ليصدوا عن سبيل اللّٰه ويقاتلوا المؤمنين قتالاً ظالماً، وعدواناً أَثيماً.

(**الذين يقاتلونكم** ....) . من هم ...؟ ولماذا يقاتلون المؤمنين ....؟ وفي الآية السابقة في سورة الحج إجابة على ذلك كله . أوّلاً : إنّه قتال ظالم ...، « **أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا** ...» ! فالكفار إذن هم الظالمون وهم المعتدون . ولكن ما السبب في قيامهم للقتال والعدوان ....؟ إنه عدوان بغير حق ... إلا أن يقول المؤمنون ربّنا الله ....! إذن هي قضية المعركة ، ومحور الجهاد : « **أن يقولوا ربّنا الله** » وهكذا نجد الآيات الكريمة متناسقة ، مترابطة ، يفسّر بعضها بعضا ، في القلوب المؤمنة ، التي لا تبحث عن التشابه ابتغاء التأويل والفتنة ....! وتعود هذه الآية الكريمة لتؤكد قضية الجهاد ، ودعوى القتال ، ومحور ذلك كله : « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** .....» نعم ....، حتى لا تكون فتنة .....! حتى لا يُصَدَّ الناس عن دين الله ، ولا تقف مسيرة الدعوة ، فيفتن الناس عن دينهم ، ويقعون في الشرك . والفتنة هنا هي الشرك والخروج عن دين الله . وتمضي تتمة الآية لتؤكد هذا المعنى : « **ويكون الدين لله** ....» . نعم ، هي إذن القضيّة ، وهي محور الجهاد في سبيل الله ، حتى يكون الدين لله ، وحتى لا تكون فتنة . وهي أَمر واحد تتناسق مع سائر الغايات التي سبقت : لتكون كلمة الله هي العليا ، في سبيل الله ، ليكون الدين لله ، حتى لا تكون فتنة ....! .

ونؤكد ثانية هنا عظمة تناسق الآيات الكريمة ، وإشراقة المعاني والظلال ، لتمدّ للمؤمنين درباً منيراً ، وصراطاً مستقيماً ، ينفي الجدل ويدفع العمل . وتمضي الآية الكريمة لتؤكد وتقرر المبدأ ذاته : « **فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين** » . فمن هم الظالمون ...؟ لقد حدَّدتهم الآية السابقة في سورة الحج ، وآيات أُخرى كثيرة في كتاب الله ، وأَحاديث كثيرة . إنهم الذين يصدون عن سبيل الله ، والذين يحاربون دعوة الله . وجُنْدَ الله .....!

وتتوالى الآيات في كتاب الله عن الجهاد والقتال ، وتتسع الصورة ،

وتتضح معالمها. ولكننا هنا نشير إلى قبسات وملامح قدر الجهد. ومنهاج الله - قرآناً وسنة -، هو وحده الذي يعطي الصورة كاملة، بكل دقائقها، وتفاصيلها، وألوانها......!

ويثبّت الجهاد قاعدة من قواعد الإيمان:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

(التوبة: ١١١)

إنّه عهد مع الله.... «ومن أوفي بعهده من الله».....؟ إنّه الجهاد في سبيل الله، إنه البشرى..... «فاستبشروا»......! إنّ جزاءه الجنّة...! ما أعظم فضل الله على عباده....! إنه بيع...! ربح البيع لمن صَدّق وصَدَق.....! وارتبطت أهداف لقاء المؤمنين، والتقت كلها هناك..... هناك..... في الجنّة...! إنّه عهد قديم، وجهاد ماض مع دعوة الله: في التوراة والإنجيل والقرآن......!

وتمضي الآيات الكريمة لتجعل القتال واجباً لا انفكاك منه، إلا لعذر شرعيّ بيّنه الله في كتابه، أو لنفاق ووهن...!

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢١٦)

فارتبط الجهاد بالعقيدة ارتباط إيمان ويقين. ووضحت الصورة، وبانت معالمها ....! وتوالت الآيات الكريمة، تزيد الوضوح وتبرز المعالم. وأصبح الجهاد في سبيل اللّٰه باباً من أبواب الدعوة.

إنّ القول بأنّ القتال جائز فقط عند حدوث اعتداء مباشر على المؤمنين، قول لا يحمل الصورة القرآنية كاملة. فلا بدّ من أن نفهم معنى الاعتداء، ولا بد من أن يكون الفهم من خلال منهاج اللّٰه، لا من خلال رغبات وأمانٍ، ولا ندوات وأرائك. واللّٰه سبحانه وتعالى يعلم أَنّ أعداء دينه سيظلون هم المعتدين، وسيظلّ اعتداؤهم قتالاً، وفتنة، وكيداً، ومكراً ....! ولم يرضَ اللّٰه لعباده المؤمنين أَن يقابلوا ذلك بسذاجة ووهن.

واستمع إلى آيات اللّٰه تقرع وتوقظ ...... :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾

(البقرة: ٢١٧)

فالمعركة إذن ماضية بقدر اللّٰه. وسيكون الاعتداء من الكافرين مستمراً دون توقف. وسيكون الاعتداء قتالاً، ما وجدوا فرصة لذلك، أو مكراً، أو فتنة ......، وستظل غايتهم «**حتى يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا ....**» فما هي جدوى بحث جواز القتال أو وجوبه عند حدوث اعتداء على المؤمنين، والاعتداء واقع، مستمرّ، ماض. والتاريخ

شاهد ....، والقرآن يقرّر .....! . ولذلك جاء حكم الله واضحاً بيّناً لا لبْس فيه، يعرض سنّة من سنن الله، وقانوناً من قوانينه، وأمراً مُنزّلاً من لدنه: (**كُتب عليكم القتال وهو كرْهٌ لكم** .....)

ويتكرر هذا المشهد في القرآن الكريم في أكثر من موضع، ليشرح موقف الكافرين والمنافقين وكلّ أعداء الله، وليعلّم الله المؤمنين، وليرسم لهم الطريق المستقيم، ويضع لهم النهج القويم.

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ (البقرة: ١٠٩)

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ (البقرة: ١٢٠)

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (آل عمران: ٧٢)

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٣٠)

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴾

(التوبة: ٨- ١٠)

نعم ....، «**وأولئك هم المعتدون**». لم يتركوا باباً من أبواب الاعتداء

إلا ولجوه، ولا باباً من أبواب الفتنة إلا سعوا إليه ...! إنها قصّة قرون طويلة ...، وأجيال متوالية... إنها معركة بين الكفر والإيمان ...! لم يبتدئ بها المؤمنون عدواناً. لقد كان المؤمنون حملة رسالة اللّه، ودعوة اللّه، يقودهم الأنبياء. لقد قام التاريخ ليشهد، وجاءت الآيات الكريمة لتقرّر. وما على المؤمنين إلا أَن يعوا حقائق منهاج اللّه، والواقع الذي يعيشونه، فينهضوا إلى ممارسة صادقة لمنهاج اللّه في واقعهم. فهو يضع لهم النهج لكل موقف، والنّور على الدرب ...! إنّ اللّه سبحانه وتعالى يريد لدعوته أن تمضي في الأرض، وأَن تمضي مع الزمن، فوضع لها النهج، وشرع لهمُ الأَحكام ....! وبيّن للناس ما يشاء من سننه ....!

٤- الجهاد العسكريّ مرحلة ممتدة في نهج:

ولم يكن الجهاد، أو القتال، هو الباب الوحيد للدعوة، ولا الطريق الوحيد لنشرها، ولا السبيل الوحيد لتحقيق أهدافها. وإذا كانت الدعوة قد ابتدأت بالبلاغ والتبيين، فإنّها قد جمعت في مسيرتها المباركة كلّ الأساليب، وشرع منهاج اللّه لها أطيب الوسائل، وأزكى السُّبُل.

لقد كان البلاغ والتبيين هو الخطوة الأولى في درب مبارك. ولقد كانت الحكمة والموعظة الحسنة كذلك توجيهاً ربانيّاً، ماضياً مع الزمن، وكان هذا يتطلب الصبر على الأَذى، والمضيّ في الدعوة بلاغاً وتبييناً، وإعداداً وتدريباً، حتى تجد الكلمة طريقها إلى الآذان والقلوب.

كان الهدف إذن واضحاً، والغاية جليّة، تتجه كلها، وتنصب طرقها، في إبلاغ الرسالة، وبيان الدعوة، وشق الطريق إلى الآذان والقلوب، حتى تجد الكلمة سبيلها، فتستقر في أحناء الصدور، وتخفق مع القلوب، وتجري في العروق: إيماناً، وعلماً، وإعداداً وعملاً ....!

وكان على الدَّعوة أَن تجابه الواقع البشريّ مجابهة عملية واقعيّة ، تقوم على قواعد منهاج اللَّه الذي يتنزّل به الوحي ، وفهم الواقع البشريّ الذي تعمل فيه . ذلك كله في رعاية حانية من اللَّه ، رعاية توجّه ، وتحمي ، وتبني ، وتصون . وكانت كل قوى الدعوة تعمل بصورة دائبة نشيطة ، وتضع خطتها على ضوء ذلك كله ، لتدفع الكيد والمكر ، وتشقُّ الدرب .

وكان من مظاهر الواقع البشريّ آنذاك ، ومن خصائص المجتمع في مكة والجزيرة عامة ، أَن ينشأ الفتى مطبوعاً على الفروسية ، من ركوب الخيل ، والرماية ، واستعمال السيف . كانت هذه ميدان منافسة ، ومجال تفاخر ، وحلبة سباق . والفتى يشتهر أَمره ببطولته ، وبيانه ، وأَخلاقه . وكان السلاح في أيدي النَّاس لا حواجز تمنعه . فالناس كلهم ، أو معظمهم ، أهل فروسيّة وقتال .

ومع توافر السلاح في أيدي الناس ، فلم تلجأ الدعوة في تلك المرحلة إليه . ومع اشتداد الأَذى والعدوان ، ووحشية التعذيب والإجرام ، كان سلاح الدعوة الأَول هو الصبر ، والعمل الدائب ، والتفكير المستمر ، وقيام الليل ، والإعداد والتدريب ، في خشوع للَّه طاهر ، وإنابة صادقة ، وعبادة قويّة ، وسعي دائب . لا جدل ولا لجاج ، ولا فلسفة ولا شقاق . آيات تتنزل ، يفهمها الجميع ، فينهضون لتنفيذها ، والتزام أَحكامها ونهجها .

لقد استفاد المسلمون من وسائل المجتمع المتوافرة آنذاك أَكرم استفادة ، دون أَن يساوموا على دين وعقيدة ، أَو ينهاروا في فتنة ، أَو يختفوا في أَكناف الضلال ، أَو يخنقوا أَنفسهم أَشباح ظلام .

لقد استفاد من شاء من المسلمين من قاعدة « الجوار » . ورفض بعضهم ذلك . ولم يؤد اختلاف الممارسة إِلى جدل وشقاق . واستفاد المسلمون أطهر استفادة من العلاقات القائمة ، والصلات الممدودة ، والأَرحام

الموصولة . وكل فائدة يجنونها لم تكن لتضيّع حقّاً ، أو تطعن عهداً ، أَو تخون أَمانة ، أَو تغشّ ، أَو تكذب ، أَو تساوم على عقيدة ودين ، أَو تنقض عهدها مع اللَّه .....!

لقد كانت الجماعة المؤمنة ، تضع لكل حدث موقفاً ، وخطة ، ونهجاً ، ماضية في دربها إِلى اللَّه : عقيدتها ثابتة واضحة ، أَهدافها قويّة جليّة مشرقة ، دربها مستقيم .....! وكانت الهجرة الأُولى إِلى الحبشة ، ثم كانت الهجرة الثانية ، عندما اشتد الأذى ، وعظم التعذيب ، وحميت فتنة الكافرين .

ومضت سنوات ، مع العمل الدائب الصبور ، ولم يتجاوز عدد المؤمنين الأَربعين رجلاً سنوات طويلة وزيادة الأَعداد بطيئة ، هادئة .....!

ولقد مرّت الدعوة الإِسلامية ، منذ انطلاقتها في مكة المكرمة بمراحل عدة ، وظروف متباينة ، والدعوة إِلى اللَّه ورسوله صلى اللَّه عليه وسلم ، ماضية تشقّ سبيلها ، والآيات تتنزّل ، والرسول صلى اللَّه عليه وسلم يعمل في الواقع البشريّ ، نبيّاً ورسولاً وقائداً : يدعو ويربّي ، ويُعدّ ويبني ، ويضع الخطة والنهج ، على ضوء الرسالة التي تتنزل ، والواقع الذي يعيشه . مضت الدعوة تشقّ طريقها ، ولم تتوقف أبداً ، مع شدّة المقاومة ، وعنف الإفساد ، وإِجرام الوسيلة ، وهول المكر والكيد . لقد استخدمت قريش كلَّ طاقتها ، وعبقرية رجالها ، ومكر دهاتها ، ومال أغنيائها ، وفتنة مجتمعها .....، استخدمت ذلك كله على صورة رهيبة ، بشعة في المكر والإجرام . وقد عظم مكرها إِلى درجة كبيرة ، عظم حتى أصبح مكراً يشترك فيه الشيطان نفسه على هيئة رجل ، يشترك الشيطان نفسه مع شياطين الإنس ،ليضعوا خطة ، ويمكروا مكراً ، ويكيدوا كيداً .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (الأنفال : ٣٠)

وَلَكَمْ حاولت قريش أن تجد المبرر للفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى تخرج من ذلك دون أن تستعدي القبائل وبني هاشم، ودون أن تشوّه سمعتها ومكانتها، ودون أن تحطم أعرافاً وتقاليد كانت مقدسة لديهم. وما كان لها أن تبلغ ذلك إلا أن تستفزّ الرسول صلى الله عليه وسلم، وتستدرجه، إلى معركة سلاح، وجولة سيف، فتبلغ غايتها، حين كان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتمّ إعداداً، وحين كانت الخطة لم تستكمل غايتها، ولم تبلغ مرحلة اللقاء العسكري ....! كم تمنّت قريش لو ينجح استفزازها، وينجح استدراجها، حتى تستأصل الدعوة كلها من جذورها. ولكن مكرها خاب، وكيدها غاب ...! «**ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**».

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٣ - ٧٧)

إذن، تعددت وسائل المكر والكيد، وشطّت أهدافها، والقرآن والسنّة والسيرة تعرض لنا النماذج الحيّة على هول المكر والكيد.

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ (إبراهيم: ٤٦)

ومع هول هذا المكر فقد فشلت قريش، وهانت خطتها، وضاعت غايتها، ولم تبلغ من قصدها شيئاً، بالرغم من كل وسائل الاستفزاز، والاستدراج، والإغراء. فإنّ خطة الإيمان كانت أدق وأكمل، ونهج الإيمان أَصلب وأَهدى. فما استجاب المسلمون لاستفزاز أو استدراج يوفّر لقريش فرصتها، لتفتك بالدعوة كلّها، تقتيلاً وتمزيقاً، في جولة سيوف ورماح وسهام. أعيتهم الحيلة، حتى شاركهم الشيطان، فرأوا أَن يغتالوا قائد الدعوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، غيلة تشترك فيها القبائل. لا بدّ إِذن من القتل... ولو غيلة ...!.

﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾

(النمل: ٥٠)

ولو استجاب الرسول صلى اللّه عليه وسلم، أَو المسلمون، إلى فتنة الاستفزاز أَو الاستدراج، فربَّما وجدت قريش فرصتها، لتدخل المعركة، فتحاول استئصال شأفة الدعوة.

ولكنَّ الرسول صلى اللّه عليه وسلم، والمسلمين، والدعوة كلها: ثبتوا أمام هذا المكر دون أَن ينزلقوا. ثبتوا دون أن تغفو أعينهم، أو تنام قلوبهم، وهم أَشدُّ ما يكونون حذراً، وعملاً، وإعداداً، وتفكيراً، وتدبّراً. ثبتوا وهم ملتزمون بدين يتنزّل به الوحي من عند اللّه، وملتزمون بدعوة واحدة ماضية في الأَرض، تحمل الرسالة وتبلّغ الأَمانة، وملتزمون بصفٍّ متراص واحد يحمل أَمانة الدين ورسالة الدعوة، ملتزمون بصفّ واحد فقط، لا صفوف مبعثرة هنا وهناك، ملتزمون بصف واحد كالبنيان المرصوص، مؤمنون، متوكّلون، يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، وإذا غضبوا يغفرون، يستجيبون لربهم، يقيمون الصلاة، ويقومون بالعبادة كلها، وينفقون مما رزقهم اللّه، وأمرهم شورى بينهم، يغضبون ويرضون للّه، لا

تشدُّهم حبال عصبيّة جاهليّة ، مهما تزيّنت وتزخرفت ، ولا تُفَرِّقُهم حبائل كفر ونفاق .

لا يصح أَنْ نتصور أَنّ الجماعة المؤمنة لم تكن عاملة ، واعية ، نشطة ، أَو أَنهم كانوا في سهوة ينتظرون . إِنّما الصورة الحقيقية هي أنه كان للجماعة المؤمنة خطة ونهج ، يرسمونه على ضوء الوحي الذي يتنزّل ، والواقع الذي يعيشون فيه . كان لهم خطة محكمة استوعبت كلّ إِيمانهم ، علمهم ، مواهبهم . كانوا منظمين في صورة تطابق ذلك الواقع ، على درجة جعلتهم صفّاً واحداً كأنّهم بنيان مرصوص . كانت رابطتهم محدَّدة ، هي أُخوة الإسلام ، وخصائص لقائهم مميزة واضحة . وعقيدتهم جليّة قوية . ولذلك كانت خطتهم واعية ، تجابه كل موقف بموقف أشد ذكاء ، وأعمق تخطيطاً ، وأبعد غاية . كانت لهم عقيدة هي مصدر تخطيطهم وتحديد مواقفهم ، وكانوا يدركون الواقع الذي يعملون فيه دراسة دقيقة ....! جابهوا التعذيب بالصبر والبذل ، وقابلوا شدّة التعذيب في مرحلة أخرى بالهجرة إِلى الحبشة ، واستعانوا بالكتمان على ضوء ما يحتاجونه في واقعهم. وعملوا في مختلف ميادين الحياة ما وجدوا لذلك سبيلاً ، في التجارة ، والسلاح والسياسة .... إِلخ حتى عرفوا الواقع ودرسوه ووعوه . ورسم الرَّسول صلى اللَّه عليه وسلم خطته للهجرة إِلى المدينة ، رسماً استكمل كل العناصر التي تخطر على قلب بشر ، مستفيداً من وسائل المجتمع آنذاك ، على أصدق تعامل ، وأوفى عهد ، منه صلى اللَّه عليه وسلم ومن جماعته . فاختاروا في بعض المواقف من غير المسلمين من يصلح لهذا الموقف أَو ذاك ، اختاروا عن علم ، وتجربة ، ووعي ، لا عن غفلة ، وسهوة ، وغفوة ...! فكانت خطة الهجرة محكمة بالغة الإحكام . ومضت الدعوة الإسلامية إِعداداً وبناءً وتخطيطاً ، ونهجاً ، على صراط مستقيم . عقيدة

عظيمة ، وطاقة بشريّة قويّة ، وإيمان وعلم وموهبة ...!

ولقد كان الرسول صلى اللّه عليه وسلم يعلم أَن اللقاء العسكريّ مع الكافرين أَمر قادم لا محالة . فإصرار الكافرين على العدوان كان واضحاً . وإِصرارهم على منع الدعوة من أَن تمضي كان جليّاً . والصدّ عن سبيل اللّه كان قويّاً . **وفي رواية أبي يعلى والطبراني حين تعرض عقبة بن أبي مُعيط للرسول صلى اللّه عليه وسلم في الكعبة ، بعد وفاة عمه أبي طالب : ... فقام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فلما قضي صلاته مرّ بهم ، وهم جلوس في ظل الكعبة ، فقال : « يا معشر قريش أما والذي نفسي بيده ما أُرسلت إِليكم إلّا بالذبح » ، وأشار بيده إِلى حلقه . فقال أَبو جهل : « يا محمد ما كنت جهولاً » فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « أَنت منهم »** . فإن دلَّ على شيء ، فإنّما يدلّ على هذه النظرة البعيدة ، العميقة ، في التخطيط والنهج ، في رعاية الوحي الذي يتنزل . إِنّ اللّه سبحانه وتعالى يعلم ما سيكون من أَمر قريش ، ومن كبرهم ، وعنادهم على الكفر ، وصدّهم عن سبيل اللّه ... إِنّ اللّه يعلم ذلك كله ، وهو قادر على أَن يهلك قريشاً في لحظات . ولكنّ سنّة اللّه ظلت ماضية ، لتمضي الدعوة على سنن اللّه في الكون ، تمضي من خلال الجهد البشريّ ، في ظلّ رحمة اللّه وعونه وتأييده ، لعباده الصادقين .

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

(الأحزاب : ٦٢)

ولقد استنفذ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كل الوسائل : الكلمة الطيبة ، والحكمة ، والموعظة الحسنة ، والصبر ، والرويّة ، دون أَن تتورط الدعوة باستفزاز ، أو استدراج ، أو خديعة ، أو مكر ....! ومضت الدعوة

على خطتها، ونهجها، خطة مدروسة، ونهج مستقيم. وكلّ ذلك يقوم على إيمان وعلم بالوحي الذي يتنزَّل، والواقع الذي يدعون فيه. وبركة اللَّه تحيط بكل ذلك، تحيط بجهد المؤمنين، بالخطة، والنهج، والجهد، والسعي، ....! ليكون ذلك كله قدوة للبشريّة، وأسوة للعاملين. وإذا استغرقت هذه المرحلة عشر سنين مثلاً آنذاك من الخطة، فلا يعني أن عدد السنين هو العنصر الذي يحتذى. فذلك عنصر يحدِّده الواقع البشريّ. ولم يتورّط المسلمون بحلف آثم، أو مساومة.

ولقد ظلَّت الدعوة سرّاً لا يجهر بها الرسول صلى اللَّه عليه وسلم مدة سنتين آنذاك. ولكنها في زمن آخر قد تقصرُ هذه الفترة أَو تطول. وكانت الدعوة سرّاً لا يجهر بها، ولكنها لم تكن حركة باطنيّة، تختفي معالمها، وتطوى قواعدها، وتغيب أَحاجي مع الزمن. إنها كانت نوراً قويّاً. ولكنها مراحل للعمل، رسمها منهاج اللَّه، لتكون أسوة للبشريّة كلها، وهي تحمل رسالة اللَّه إلى الناس، على خطة مدروسة، ونهج واعٍ، ينفي الغفلة، والارتجال، والاسترخاء.

وكان الوحي الكريم يتنزل آيات بيّنات، ليُري الدعوة طريقها، ولتنتقل من مرحلة إلى مرحلة. فنزلت الآيات تأمر بالجهر بالدعوة على مراحل، وأسلوب، وقواعد. ونزلت تأذن بالقتال، على أسلوب، وقواعد. وكان اللَّه سبحانه وتعالى يَتعهَّد الدعوة، وهي تمرُّ من مرحلة إلى مرحلة، وفي أُمورها كلها، ليتعلّم المؤمنون عظمة التخطيط، وأهمية النهج، وخطورة الدراسة، على إيمان، وعلم، ومواهب تعمل، ثم يمضوا مع الزمن يخططون كما تعلموا، وينهجون كما تدرَّبوا.

فالجهاد إذن ليس أمراً ارتجالياً، تفرضه العاطفة، والاستفزاز،

والاستدراج ، والمكر والكيد ، على أُناس غافلين لاهين . إنما الجهاد خطوة في نهج واع ، متكامل مدروس . إنه يقوم على أسس ضروريّة له ، تعدُّها الخطة لها وتقيمها . وهو يهدف ويمضي ليحقق أَهدافاً ربّانيّة ، تشملها الخطة الواعية المدروسة . إن الخطوة التائهة في البيداء لا تبلغ هدفاً ....!

والجهاد ليس مهمة المرضى والضعفاء والمنافقين . إنَّ الجهاد مهمة المؤمنين ، مهمة لقاء المؤمنين ، حين تتحقق خصائصه ، وتبرز عناصره ، ويستقيم نهجه ، وتصدق خطته وعزيمته . إنّه عمل في سبيل اللّه ، وفي اللّه ، وللّه ...!

إنّ الجهاد ثمرة إعداد أُمّة ، وبناء لقاء ، وصدق عهد ، ووفاء أَمانة ، وقيام عبادة . إنّه جهد عظيم في خط طويل ، طويل ... يمتد إلى يوم القيامة .

وإذا كان حديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، كما أَوردناه سابقاً ، وهو يخاطب قُريشاً في الكعبة : « .... **ما أُرسلت إليكم إلّا بالذبح** » ، إذا كان هذا الحديث الشريف ، يكشف عن جزء من الخطة والنهج ، في موقف عظم فيه البلاء ، فإن ذلك كان من وحي اللّه : « **ما أُرسلت إليكم إلّا بالذبح** » . فذلك أمر اللّه ، فهو الذي يعلم الغيب وحده . وينزّل على عبده ما يشاء . وخطة الدّعوة ، حين يضعها لقاء المؤمنين على أساس من منهاج اللّه ، والواقع البشريّ ، فإنها تظلّ دائماً في رعاية اللّه ، وظلال الرحمة ، وأنداء الإيمان ، ما صدق الموكب ، ونصحت الكتيبة ، وصحّت النيّة والعزيمة .

ومع ذلك كله ، فليس الحديث السابق وحده يكشف عن دور الجهاد العسكريّ ، في دعوة اللّه . فإنّ القرآن الكريم ، والآيات البيّنات ، تكشف كذلك عن هذا الجانب ، في مرحلة لم يكن فيها قتال . وإنّما هنالك إعداد طويل ، وتربية شديدة ، وبناء مرصوص . تعرض لنا سورة المزمّل جانباً منه ،

وتعرض لنا دور الجهاد العسكريّ في دعوة اللّه في الأَرض الممتدة والأَزمنة الممتدة:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ (المزمل: ٢٠)

تنزلت هذه الآية الكريمة في مرحلة الإعداد والبناء، في مرحلة قيام الليل، وتلاوة القرآن الكريم، في مرحلة الجمع، والبناء، والعلم، والعبادة.... في هذه المرحلة نزل قوله تعالى: «**علم أن سيكون منكم مرضى.... وآخرون يقاتلون في سبيل اللّه .....**» إنّه علم اللّه، أَنزله في كتابه ليعلمه المؤمنون.

وإنّه قتال في سبيل اللّه، في سبيل اللّه فقط، وليس في أَيّ سبيل آخر. و« سبيل اللّه »، وقد عرضنا طرفاً منه، يُفصّله منهاج اللّه آيات وأَحاديث.

ولا يعني ذلك أَنّ القتال مهمّة عفويّة، ووليدة خاطر، ونزوة دعيّ، ووثبة جاهل، وفتنة منافق. لا يعني ذلك أَن يهرع المسلم إِلى سيفه يقطع الرءوس، أو إِلى بندقيته يحصد الأَنفس، على غير هدى، وعلى غير سبيل اللّه. ولا يعني كذلك أن يندفع المسلم في حبائل مكيدة، تدفعه إِلى هلاكه وهلاك أُمته، في ظلال عاطفة مشبوبة، وحمّى شعار هائج، فيُسحق المسلمون، ويدمَّر العاملون. ثم يدلف الشيطان يزيّن مصارع الفتنة، وموارد الهلاك. حتى إِذا قُضيَ الأَمر على ضحايا وضحايا، أَطلال وأطلال، أَخذ التلاوم مأخذه، وغرق الجمع يدفع عن نفسه ويدافع، ويبرئ ساحته

وينافح، فيطوى السلاح، وتنشر الأَلسنة، وتموج الإشاعة ...!.

وكذلك لا يعني ذلك أن يظلّ المسلمون لاهين غافلين لا هم يقاتلون ولا هم يُعدّون، ويخفون هوانَهم بأَعذار وفلسفة، كأنهم يَفرّون من الميدان ويكرهون الموت، ويُحبُّون الحياة الدنيا في وهن وضياع يُفرِّق المسلمين شيعاً وأَحزاباً.

ويظلُّ في حياة المسلمين، عبر القرون الطويلة، دروس واسعة، وعبر ممتدة، وعظات حيّة، لمن امتلأ قلبه بنور اللّٰه، وآيات اللّٰه، فتفتح صدره للموعظة والعبرة، والحكمة والنهج.

إِنَّنا نعرض هذه اللمحات هنا، عن الجهاد في سبيل اللّٰه، على قدر ما نرى أَنّ له علاقة بلقاء المؤمنين وأَهدافه، والدعوة إِلى اللّٰه ورسوله ووسائلها، دون أَن ندَّعي أَنّنا أَوفينا بحث الجهاد في سبيل اللّٰه حقّه. ولكننا نؤكد أَننا هنا، أَو في أَيّ بحث آخر، لا نستطيع بلوغ الإحاطة الكاملة، فإيفاء البحث حقَّه، وشمول الإحاطة به، دون اضطراب أَو اختلاف، لا نستطيع بلوغه أَبدا إلا في منهاج اللّٰه - قرآناً وسنّة -. فهناك، في مدرسة النبوّة، مدرسة الإسلام، في صحبة مباركة لمنهاج اللّٰه، صحبة عمر وحياة، ندرس الجهاد في سبيل اللّٰه آيات بينات في صدور المؤمنين العاملين. ولكننا نعرض قبسات، ونرفع شبهات، وندعو إِلى كتاب اللّٰه ومنهاج اللّٰه، لنبينّ، ونوضح، ونذكّر.

فالجهاد في سبيل اللّٰه ليس هدفاً منفصلاً عن الدعوة، معزولاً عن غاياتها وأُسسها وقواعدها. إِنَّ الجهاد العسكري - القتال - فُرِض في الإسلام حتى تمتد دعوة اللّٰه في الأَرض، لتكون كلمة اللّٰه هي العليا. إن القتال لم يُفرض لتحقيق فتوحات، أَو استعمار أراض وشعوب، أَو جمع

ثروات وخيرات، أو ركض وراء دنيا، مهما كان شكلها أو لونها. إنّ الجهاد في سبيل اللّه مرتبط بالدعوة ارتباطاً كاملاً. يدور القتال لأَجل الدعوة، ويتوقف لأجل الدعوة، ويمضي لأجل الدعوة. يمضي ذلك كله لتمتدّ الدعوة وتنتشر، أو لتُحمَى وتُعزّ. لتُصان ويدافع عنها: أرضاً، ومالاً، وعرضاً، وشرفاً، وجنداً.... وسائر قوى الدعوة .....!

إذا انعزل القتال عن الدعوة بصورة أَو بأُخرى، وإذا فقد أَهدافه الإيمانية، وخصائصه الربانيّة، فَقَد جوهره وحقيقته، وأَصبح قتالاً كقتال سائر الناس في الأَرض: عدواناً وظلماً، واستعماراً، ونهباً، وجرائم تتلوها جرائم، حمية جاهليّة ....!

والجهاد ليس حديث أَرائك وندوات، ولكنه حديث ميادين، وحديث ساحات. إنه حديث جنود تبذل مالها ونفسها في سبيل اللّه، فلا تجعل الجهاد فلسفة وجدلاً. وعندما هانت العزائم، ووهنت القوى، كثر الجدل حول الجهاد وفلسفته، وكتاب اللّه وسنّة رسوله صلى اللّه عليه وسلم يُغني عن أيّ حديث عن الجهاد ....!

إن النهج والخطة، تتطلّب القوة والإعداد والبناء، قواعد تمضي كُلُّها مع الجهاد في سبيل اللّه، ليستوعب الجهاد حقيقة وسع الأُمّة وطاقتها. واسمع إلى قوله سبحانه وتعالى يشير إلى محور من محاور البناء في الدعوة، وفي الجهاد:

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

(الأنفال: ٦٠)

هكذا تمضي الأُمّة المؤمنة في حياتها : إعداداً وبناء ، وعبادة وطاعة . إعداد القوة والخير ، ومدّ البركة والنور ، للإنسان على الأرض كلها . هكذا تمضي الأُمّة المؤمنة في حياتها ، وهي تحمل همَّ الإنسان على الأرض كلها ، همَّ المساكين والفقراء ، والضعفاء والمظلومين . إنّها تحمل همهم وقضيّتهم وهي تؤمن أنّ « شهادة لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه » ، على حقيقتها الصادقة ، وصورتها المشرقة ، هي وحدها التي تحمل السعادة للإنسان في الأرض كلها . وتحمل قضيّة الأقوياء والأغنياء حتى لا يأخذهم الكبر فيقعوا في فتنة .

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (النساء : ٧٥)

إذن هي قضية الإنسان ، يحملها الإسلام : دعوة وجهاداً في جميع العصور والأجيال . وبدون هذا الاتساع ، تنخنق الدعوة ، وينخنق الجهاد في سبيل اللّه . وتتحجّر الأُمّة على قضايا تمزّقها وتفتّتها ، في إقليمية هائجة أَو قومية مائجة ، على هرج ومرج .

ومع مضيّ الجهاد في حياة الأُمّة المؤمنة ، في لقاء المؤمنين بكلّ خصائصه ، قد تقع معاهدة ، أَو جنوح للسلم . قد يحدث هذا والجهاد بكلّ معانيه التي عرضناها سابقاً ماضٍ في سبيل اللّه ، إعداداً ، وإنفاقاً ، وبناء ، وعلماً ، وصفّاً مرصوصاً . هناك فقط حين تتوافر خصائص لقاء المؤمنين ، وتشتد رابطة لقاء المؤمنين ، هناك فقط ، يمكن أَن نعتبر الهدنة ، والمعاهدة ، والجنوح للسلم ، مما يجيزه الإسلام ، والإسلام قويٌّ عزيز ، يُجيزُ أَو يرفض ، يسمح أو يمنع ، في أُمّة قويّة عزيزة .

أَمّا إِذا ضعف المسلمون وهان شأنهم، فلا حق لأَحد أَن يعتبر الهدنة وأمثالها فقهاً إِسلامياً لأَنّ الهدنة في تلك الحالة قد تكون ثمرة واقع وهوان لا ثمرة فقه وجهاد.

إِنّ فقه الإسلام، هو فقه القوّة والمنعة. وأَمّا الهوان والضياع، الذي يكون نتيجة ما كسبته أَيدينا، فحرام أَن نضع فقهه مع فقه الإسلام. فللضياع والهوان فقهه الخاص به.

إِنّ الأُمّة المؤمنة تستطيع أَن تستأنف مسيرتها في أيِّ لحظة، مهما اشتد الكرب وعظم البلاء إِنّها تستطيع ذلك إِذا أَخلصت النيّة، وصدق الإيمان، وطهرت القلوب، ونما العلم بالمنهاج الربانيّ: إِيماناً وتدبّراً وممارسة، لتنطلق المواهب، في حماية من اللّه، وبركة ونور.

إِنّ درب الإيمان ممدود. فمن أَراد اللّه له الهداية فلينهض إِليه. وإِنّ رابطة المؤمنين بيّنة، وإِنّ خصائص لقاء المؤمنين مشرقة، وإِنّ شرائط الإيمان والعهد من عند اللّه.

الجهاد في سبيل اللّه لا يدرس معزولاً عن قواعد الإيمان، وأُسس الدعوة. إِنه ليس قضية مستقلة، يمكن عرضها تحت أَيّ راية، أَو إِلباسها أَيَّ لباس.

الجهاد في سبيل اللّه هو مهمّة العصبة المؤمنة التي صدقت في إِيمانها وعلمها، وارتبطت مع الإسلام ارتباطاً متيناً، لا ترفع راية سواه ولا تعتزّ بشعار غيره. لا تساوم على دين وعقيدة، ولا تطرح كلَّ يوم راية. أَعزها الإيمان، والعلم، والبذل، والنهج ....!

الجهاد في سبيل اللّه جزء من نهج إِيمانيّ متكامل، جزء من عمل دعوة، ووثبة أُمّة، أُمّة الإسلام في لقاء المؤمنين، بكل خصائصه. لا يقوم

الجهاد في سبيل اللّٰه إذا فُقد النهج الإيماني ، وغابتْ معالمه ، وطويتْ ساحته ، وغلب الضجيج ، وعلا الهرج ....!

الجهاد في سبيل اللّٰه ثمرة إعداد طويل ، وجمع كريم ، ونهج قويم ، إعداد قوة ترهب أعداء اللّٰه ، وجيل يشب ، وكيان ثابت ، وعقيدة راسخة . فإذا لم تكن هنالك العقيدة المتمكّنة من النفوس إيمانًا وعلماً وعملاً ، وإذا لم يَكُنْ هناك الجيل المؤمن المتوثب ، وإذا لم يكن هناك النهج الكامل ، والخط المستقيم ، إذا لم يكن هنالك الكيان المتماسك .... إذا لم يكن هنالك الإعداد ، والقوّة ، .... إذا لم يكن هذا كله ... فكيف يكون الجهاد في سبيل اللّٰه ...!

الجهاد في سبيل اللّٰه هو مهمة أُمّة . وبهذا المعنى نتحدث عنه . ووسيلة دعوة . إنّه عمل عظيم ، ووثبة كريمة ، وغاية نبيلة .

فالجهاد إذن هو في سبيل اللّٰه ، هو لنشر دعوة اللّٰه في الأرض ، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة اللّٰه الواحد الأَحد . وفي معظم آيات الجهاد ، تأتي لفظة الجهاد مقرونة بلفظة « في سبيل اللّٰه » ، أَو « في اللّٰه » أَو « فينا » ، وإذا لم ترد مثل هذه الكلمات فإنها تكون مفهومة ضمناً ، بحيث يظلّ الجهاد في الإسلام جهاداً في سبيل اللّٰه فقط ، وليس في سبيل أي شيء آخر . ومعنى في سبيل اللّٰه ، يفسّره منهاج اللّٰه قرآناً وسنّة . وقد سبق حديث رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ، الذي بيّن بصورة قاطعة أن من قاتل لتكون كلمة اللّٰه هي العليا فهو في سبيل اللّٰه . ولا يوجد بعد ذلك تفسير أَوضح ، ولا أَدق ، من هذا التفسير . ولكنّ منهاج اللّٰه آياتٍ وأَحاديث تزيد المعنى عمقاً وظلالاً .

وتبقى المسئوليّة هي مسئوليّة الإنسان ، مسئولية المؤمن ، ليمارس في

واقعه المتبدّل قواعد الجهاد ، بإيمان ، وعلم ، وخبرة ، ونهج وإعداد . تبقى المسئوليّة مسئوليّته من خلال الابتلاء والتمحيص ، حتى يستطيع المسلم أن يحقق معنى الوفاء بالأَمانة ، والقيام بالاستخلاف ، وأَداء العبادة ، كما هو الحال في سائر الممارسات الإيمانيّة في الحياة الدنيا . ولا يستطيع المسلم أَن ينهض إِلى الممارسة الأَمينة ، إلا إذا وعى منهاج اللّه إيماناً وعلماً وتدريباً ، ووعى واقعه وعياً أميناً ، من خلال منهاج اللّه ، كلٌّ قدر وسعه وطاقته ، ومسئوليَّته وأَمانته .

أَما إِذا اضطرب الإيمان ، أَو اضطرب العلم بمنهاج اللّه ، لاضطراب الإيمان ، أو الجهد ، أَو اضطراب واختلاط المصادر ، فإنّ الممارسة الإيمانيّة ستضطرب وإِن فهم الواقع سيضطرب كذلك ، وهذا بدوره يضاعف من اضطراب الممارسة الإيمانيّة .

ويمضي المؤمنون جميعهم في موكب النور ، في ميدان الجهاد في سبيل اللّه ، ميدان سباق ومنافسة ، ميدان تزاحم وتراصّ . تتجمع فيه قوى الإيمان ، وثمرات الإعداد ، ورباط الخيل ...! إعداد طويل : إِعداد الفرسان إِيماناً وعلماً وتدريباً وقتالاً ، إِعداد الميدان موقعاً وحركة ، إِعداد القوى كلها ، والسلاح كله ، إِعداد يمضي على وعي كبير ، ونهج قويم ، وصحوة مباركة ...!

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

(الأنفال : ٦٠)

يمضي المؤمنون في ميدان سباق ، ليتمايزوا ، وليأخذ كل مؤمن مكانه ،

وموقعه ودرجته، على قدر نيّته التي يعلمها اللّه وحده، وعلى قدر سابقته، وعلى قدر جهده وبذله. واللّه أعلم بعباده، لا يظلم أَحداً.

والقرآن الكريم يميّز أَولاً بين صنفين من المؤمنين: القاعدون من المؤمنين غيرُ أُولي الضرر، والمجاهدون في سبيل اللّه بأَموالهم وأَنفسهم. إِنه كما ذكرنا ميدان سباق، وتنافس:

﴿ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ (المطففين: ٢٦)

﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾

(النساء: ٩٥)

نعم فضل اللّه المجاهدين على القاعدين أَجراً عظيماً.

﴿ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴾ (النساء: ٩٦)

نعم ...! إِنّها درجات. والناس يتراحمون ويتسابقون على درجات الدنيا ....!

ويُميز القرآن الكريم كذلك بين صنفين آخرين:

﴿ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ (الحديد: ١٠)

ميزان دقيق وضعه اللّه ، ودرجات بيّنها رحمة منه ، ومنازل أعدها فضلاً منه . إنه ميزان ، وإنها درجات من عند اللّه ، وليس من عند أَحد من البشر : « **وكلّاً وعد اللّه الحسنى واللّه بما تعملون خبير** » .

(**والذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا أُولئك أعظم درجة**) . لقد كانت أيام عسر فالإنفاق فيها عظيم ، وكانت أَيام بناء فالجهد فيها كريم ، وكانت أيام شدة فالقتال فيها بلاء شديد . كانت الدعوة تبنى والإقبال محدود ، وأَما بعد الفتح فأقبلت الوفود ، وكثرت الخيرات ، ودخل الناس في دين اللّه أفواجاً .

﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ (النصر : ١ ، ٣)

أُولئك هم السابقون .....! أُولئك هم الذين تعهَّدَتْهم الدعوة إعداداً وبناءً ، علماً وتدريباً ، جمعاً ونظاماً . أُولئك الذين بذلوا حين ضنّ الناس بالبذل ، وجادوا حين بخل النّاس ، وأَقبلوا حين تراجع النَّاس .

ومع هذا العرض السَّريع ، نجد أَنّ كلمة « في سبيل اللّه » تأخذ عمقاً أَبعد ، ومعنى أوسع ، وظلاّ أَكبر ، مع توالي الآيات والأَحاديث . فنجدها مقرونة مرَّةً بالجهاد ، فهو جهاد في سبيل اللّه ، ومرَّةً بالإنفاق ، فهو إِنفاق في سبيل اللّه ، والموت في سبيل اللّه ، والقتال في سبيل اللّه ، أُحصروا في سبيل اللّه ، لما أصابهم في سبيل اللّه ، هاجروا في سبيل اللّه ، إذا ضربتم في سبيل اللّه ، انفروا في سبيل اللّه ، وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل اللّه ، ذلك بأَنّهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل اللّه ...، ولا

تتبع الهوى فيضلَّك عن سبيل اللَّه ، يصدون عن سبيل اللَّه ، ...! وهكذا مع كلّ آية يزداد المعنى وضوحاً ، وتمتدّ الظلال . ويظلّ يجمع الظلال كلَّها ، والمعاني كلها ، أمر واحد رئيسيّ هو الدعوة إلى اللَّه ورسوله صلى اللَّه عليه وسلم ، الدعوة إلى منهاج اللَّه . فالدعوة هي التي تجمع الإنفاق ، والجهاد والقتال ، والحصر ، والهجرة ، والنفرة ، والضرب ، والنصب ، والمخمصة ، والظمأ ... إلخ . الدعوة إلى اللَّه ورسوله صلى اللَّه عليه وسلم ، هي التي تجمع الجهود كلها ، لتضعها على صراط مستقيم ، على درب منير ، « **في سبيل اللَّه** » . وفي الميدان تنجلي المعاني .

وإذا كانت الدعوة قد انتقلت إلى مرحلة جديدة بعد الهجرة من مكة إلى المدينة ، فإنها انتقلت كذلك إلى مرحلة جديدة بعد فتح مكة . ولقد بيَّنت لنا الآية الكريمة السابقة ظلّاً من هذه المرحلة ، وصورة عن هذه النُّقلة .

وكذلك فإن حديث رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ، يزيد من ظلال هذه المرحلة ، ويمد من صورة النهج والتخطيط .

عن ابن عباس ، عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم ، قال يوم الفتح : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة ، وإذا استنفرتم فانفروا » .

(رواه الخمسة)

لقد كانت المدينة المنوّرة مركز الدعوة ، وكانت خطة الدعوة تقتضي أَن تتجمَّع الطاقات والقدرات هناك ، لتنصهر كلها في بوتقة الإيمان ، ولترتبط كلها بأُخوّة الإيمان ، ولتصب جهودَها كلها في مجرى واحد ، مجرى الإيمان . فلا تتبعثر القوى ، ولا تتمزّق المواهب . ولذلك كانت الهجرة باباً عظيماً من أبواب الدعوة ، وعملاً كبيراً من أَعمالها ، يرتبط من خلال الآيات الكريمة ، بالإيمان والجهاد .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الأنفال : ٧٢)

هكذا كانت منزلة الهجرة في تلك المرحلة . لقد كانت الهجرة سبباً من أَسباب القوة وجزءاً في نهج الدعوة . الهجرة إِلى المدينة المنوّرة .

وعندما امتدَّت الدعوة ، وفتح اللّه مكة للمسلمين ، ورزقهم النصر ، مضت الدعوة في امتدادها ، وانتشارها ، فكراً وعقيدة ، عدداً وجنداً ، أرضاً ومراكز ، .... إلخ . وتوقفت الهجرة تلك إِلى المدينة ، عند ذلك . وأَمّا الجهاد ، فقد استمرّ ماضياً ، وسيستمر ماضياً إِلى يوم القيامة . وسيظل الجهاد في سبيل اللّه مقروناً بالنيّة ، كما ورد في الحديث الشريف : « ...... **ولكن جهاد ونيّة** » وسيظلّ الجهاد ، مع اقترانه بالنيّة ، مقترناً كذلك بالنهج والتخطيط ، ليكون عمل إِعداد وبناء ، وثمرة تجمّع ولقاء ، ووثبة عزيمة ومضاء ، وميدان تمحيص وابتلاء .....!

وفي ختام هذه الكلمة الموجزة عن الجهاد ، نتطلع إِلى واقعنا اليوم ، فنرى اختلاط الرايات والشعارات ، واضطراب الصورة ، وعمق الغفوة والغفلة . ونرى كذلك كثرة القتلى والصرعى . وليس لأحد من الناس أن يدعي الشهادة لأَحد ، فذلك أمر لا يعلمه إِلا اللّه وحده . ولكنّ منهاج اللّه بَيَّنَ خصائص الشهادة ، وسبيلها ، وظلت كلها معلقة بالنيّة . والنيّة لا نعلم من أَمرها شيئاً . وكل الذي نستطيعه هو أَن نتحرّى خصائص الشهادة

وشرائطها ، كما فصلها منهاج اللّه ، رايات ، وشعارات ، وجهداً ، وبذلاً ، ونهجاً ، فإذا استوفى أحد من الناس هذه الخصائص ، دعونا له بالخير ، ووكلنا نيّته إلى اللّه سبحانه وتعالى ، ورجونا له الشهادة . ولا تمضي الشهادة تحت راية جاهليّة ، ونيّة جاهليّة ، ودعوى جاهلية ، مهما حملت معها من بريق الزخارف ، ولمعة الأوهام .

إنّ أهم ما يمكن أن نخلص إليه ، حين نطالع واقعنا اليوم ، أننا في غنى عن كل جدال ، أو خلاف فكريّ ، يقتل الوقت والعزم ، والعمل والبذل . إننا بحاجة إلى إيمان راسخ ، وعلم قويّ ، ومواهب قادرة ، وخطة محكمة . إننا بحاجة إلى نيّة صادقة ، وصحوة صادقة . وإننا لا نيأس لأنه :

﴿ ....يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (يوسف : ٨٧)

وإذا كانت الهجرة إلى المدينة المنوّرة ، قد توقفت بعد فتح مكة المكرّمة ، كما في الحديث الشريف :

عن ابن عباس رضي اللّه عنها عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال يوم الفتح : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة ، وإذا استنفرتم فانفروا » .

(رواه الخمسة) [١]

---

(١) البخاري فتح الباري : كتاب الحج والجهاد والإمارة (٢٨) . باب (١٠) . حديث (١٨٣٤) ، مسلم : كتاب الحج (١٥) . باب (٨٢) . حديث (١٣٥٣) ، كتاب الإمارة (٣٣) . باب (١٩) . حديث (١٣٥٣) ، أبو داود : كتاب الجهاد (٩) . باب (٢) . حديث (٢٤٨٠) ، الترمذي : كتاب السير (٢٢) . باب (٣٣) . حديث (١٥٩٠) ، النسائي : كتاب البيعة (٣٩) . باب (١٥) . حديث (٤١٦٩) .

إذا كانت هذه الهجرة المباركة توقفت وأُغلقت بعد الفتح ، فإن الهجرة العامة في حياة المؤمنين العاملين المجاهدين ، في لقاء المؤمنين ، ماضية إلى يوم القيامة .

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء : ١٠٠)

وعن معاوية رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها » . (رواه أبو داود)[1]

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ستكون هجرة بعد هجرة ، فخيار أهل الأَرض أَلزمهم مُهاجَر إبراهيم . ويبقى في الأَرض شرار أَهلها تلفظهم أَرضوهم تَقذُرهم نفس الله وتحشرهم النار مع القردة والخنازير » . (رواه أبو داود)[2]

وللنسائي :

« لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار » .

فالهجرة إذن ماضية في حياة المؤمنين ، في لقاء المؤمنين ، وهم ماضون في الدعوة إلى الله ، يطرقون أبواب الجهاد كلها ، لتكون كلمة الله هي العليا ، على درب ممدود إلى الجنّة . إنّ لقاء المؤمنين يمضي في الأَرض

(١) أبو داود : كتاب الجهاد (٩) . باب (٣) حديث (٢٤٨٢) .
(٢) أبو داود : كتاب الجهاد (٩) . باب (٣) . حديث (٢٤٨٢) .

يحمل قضيّة الإنسان ، والأَجيال والعصور حتى تقوم الساعة . فلا بد إِذن أَن تظل الهجرة ماضية في حياة المؤمن . ونود أن نلخّص ما عرضناه في هذا الفصل في نقاط موجزة محدَّدة :

١ - إِنّ « الجهاد في سبيل اللّه » واضح في منهاج اللّه وضوحاً يقطع كل أَبواب الجدل والخلاف والشقاق ، لمن أَراد أَن يعمل ، وينهض ، على أُسس منهاج اللّه إيماناً وعلماً ، على تناسق وتكامل بين جميع التكاليف والمسئوليات .

٢ - إِنّ الجهاد في سبيل اللّه هو وسيلة من وسائل الدعوة إِلى اللّه ورسوله صلى اللّه عليه وسلم ، لإخراج الناس من عبادة العباد لعبادة اللّه وحده ، ولتكون كلمة اللّه هي العليا ...! وهذا هو معنى « في سبيل اللّه » ....!

٣ - إِن أَهمَّ خصائص الجهاد في سبيل اللّه هي النيّة الصادقة الخالصة للّه رب العالمين ، فمن ابتغى عرض الدنيا فقد بطل الأَجر .

٤ - يكون القتال دون المال والأَرض والعرض والأَهل جهاداً في سبيل اللّه ، ومن يقتل دون ذلك فهو شهيد ، وذلك عندما ترتبط هذه كلّها بالعقيدة والدين ، وعندما تصدق النيّة ، ويخلص العمل للّه سبحانه وتعالى ، في طريق الدعوة .

٥ - للجهاد في سبيل اللّه خصائص يتميز بها ، يحددها منهاج اللّه - قرآناً وسنة - ، وتبينها سيرة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وسيرة الخلفاء الراشدين . نذكر منها لمحات : لا انتهاب ، يعتبر المجاهد أَنَّ اللّه سبحانه وتعالى هو عضده ونصيره ، ومنه وحده النصر ، به يقاتل ، وبه يصول ، الحرب خدعة ، إنفاق الكريمة ، إِطاعة الإمام ، اجتناب الفساد ، مياسرة الشريك ، تبشير وتيسير لا تنفير ولا تعسير ، الانطلاق باسم اللّه ، لا يُقتل

شيخ فان ، ولا طفل صغير ، ولا امرأة ، ولا غلول ، بل إصلاح وإحسان ، لا خيانة ولا غدر ... إلى غير ذلك مما هو مفصل في الآيات والأحاديث والوصايا .

٦ - توضح الآيات الكريمة أن الجهاد شرع حتى تمضيَ الدعوة في طريقها ، لا يعطلها الظالمون ، الذين يصدون عن سبيل اللّٰه ، والذين أخرجوا المؤمنين بغير حق إلّا أنهم أَعلنوا دعوتهم ، وقالوا كلمتهم ، وبلّغوا رسالة ربهم .

٧ - إنّ المؤمنين لا يعتدون . وإنّ اللّٰه لا يحبّ المعتدين . ولكنّ الكافرين بدأوا في عدوانهم على دين اللّٰه مع أول الرسالات ، ومضوا في عدوانهم مع كلِّ رسالة . ولقد علم اللّٰه أنهم سيستمرون بعدوانهم الظالم هذا دائماً ، حتى يَرُدُّوا المؤمنين إلى الكفر إن استطاعوا ، وسيكون عدوانهم مكراً ، وكيداً ، وغدراً ، وقتالاً مكشوفاً وحشيّاً ، وفتنة بعد فتنة . وقام التاريخ يشهد على ذلك ، وجاءت رسالة اللّٰه تقرّر . وهكذا جاء حكم اللّٰه ، وأمر اللّٰه ، لعباده المؤمنين واضحاً بيّناً : « **كتب عليكم القتال ...** » .

٨ - نجد أَن غايات الجهاد في سبيل اللّٰه مهما اختلفت ألفاظ تحديدها ، فهي كلها تهدف إلى أَمر واحد وهو نشر الدعوة لتكون كلمة اللّٰه هي العليا . ونجد أن معظم التعابير ترد على النحو التالي :

الجهاد في سبيل اللّٰه .

والذين جاهدوا فينا .

جاهدوا في اللّٰه .

لتكون كلمة اللّٰه هي العليا .

ليكون الدين للّه .

حتى لا تكون فتنة .

بأَنّ لهم الجنّة .

وتدور هذه الأَلفاظ كلها حول محور واحد ومعنى واحد، تزيده الآيات والأَحاديث عمقاً ووضوحاً . وترتبط كلها في هدف نهائي واحد ، ألا وهو الجنّة . وهكذا ترتبط أهداف لقاء المؤمنين ، ترابط تناسق وتكامل .

٩ - الجهاد في سبيل اللّه ليس لصد العدوان فحسب . فصد العدوان بالمعنى المعروف لدى الناس وجه من الوجوه ، وصدّ العدوان طبيعة في المخلوقات ، في الإنسان وغيره . فمن يتعرّض إِلى عدوان فإنه ينهض بحكم فطرته للدفاع عن نفسه إذا ملك الوسيلة ، فهذا لا يحتاج إِلى تشريع ينزل به الوحي من عند اللّه . وإِنما نزل الوحي ليضع أدب القتال في صدّ العدوان ، وليبين دروب الجهاد كلها . وهذا التعبير على حالته هذه لا يحمل عظمة الجهاد في سبيل اللّه ، ولا إشراقة الصورة القرآنية له . ولكن عندما يرتبط الجهاد في سبيل اللّه بأهداف لقاء المؤمنين ، عندما يرتبط بالدعوة إِلى اللّه ورسوله صلى اللّه عليه وسلم ، ارتباط عقيدة وإِيمان ، وارتباط بذل وجهد وسعيٍ ، عندما يرتبط بالجنّة والدار الآخرة ، ارتباطاً ترسمه الآيات الكريمة والأَحاديث الشريفة ، عندئذ تشرق صورة الجهاد إشراقاً رائعاً ، ويصبح الجهاد وثبة الخير في الأَرض ، وبركة اللّه للبشريّة ، يتناسق مع سائر الوسائل لتكون كلمة اللّه هي العليا ، وليكون الدين للّه ، وحتى لا تكون فتنة ، وحتى تنتشر الدعوة وتمتد ، وتعلو كلمة اللّه وتشتد .

١٠ - الجهاد في سبيل اللّه ، ليس عملاً ارتجاليّاً ، ولا هو نزوة عاطفية ولا زلة جاهل ، أو استدراج عدو ، أَو باب فتنة . إِنّه ثمرة إِعداد أُمّة ، ومسيرة

لقاء، ووفاء عهد، وجوهر عبادة.

١١ - الجهاد في سبيل اللّه يأخذ دوره ومكانه في خطة الأُمّة المؤمنة العاملة، ويحتلُّ مركزه في النهج المدروس، والحركة الواعية. خطة، ونهج، وحركة... ذلك كله يقوم على أساس من منهاج اللّه إيماناً وعلماً وتدبُّراً وممارسة، وعلى أَساس من فهم الواقع، فهماً إيمانيّاً، من خلال منهاج اللّه. ذلك كله حتى تنفي الأُمّة عن الجهاد، وعن سائر خطواتها، الارتجال والغفلة، والتيه والخدر، والدوار والسكر. ويهدف هذا إلى أَن يكون العمل متكاملاً، متناسقاً، مترابطاً.

١٢ - الجهاد في سبيل اللّه جزء من عقيدة ودين، فلا يدرس، ولا يمارس منفصلاً عن العقيدة، منفصلاً عن الإيمان، منفصلاً عن الدين. ولكنه يرتبط مع العقيدة والإيمان كل الارتباط، ارتباط فكر ويقين، وعمل وجهد، وبذل وعطاء، ونيّة وصدق، وراية وشعار. يرتبط مظهره وجوهره، بالعقيدة والدين، والصدق واليقين.

١٣ - الجهاد في سبيل اللّه هو مهمّة العصبة المؤمنة، التي استكملت عناصر لقائها، وخصائص قيامها، وإعداد خطتها، وبناء قوتها.

١٤ - الجهاد في سبيل اللّه، كما يجب أَن نراه اليوم، هو امتداد لجهاد طويل، قام به الإسلام، ماضياً مع دعوة اللّه في الأرض ليظلّ جهاداً نامياً، يجمع قوى إلى قوى، وزاداً إلى زاد، وخبرة إلى خبرة، فيقوى النهج، وتتمكن الخطة.

١٥ - الجهاد في سبيل اللّه ممارسة إيمانيّة. إنّها مسئولية الإنسان، مسئولية المؤمن، ليمارس قواعد الجهاد كما وردت في منهاج اللّه، في واقعه البشريّ المتبدل، ليحقق من خلال هذه الممارسة الإيمانية الوفاء بالأَمانة،

والقيام بالخلافة ، وأَداء العبادة ، من خلال ابتلاء وتمحيص .

١٦ - يظلُّ ميدان الجهاد ميدان تمحيص ، يتمايز فيه المؤمنون ، كلٌّ على قدر نيّته ، وسابقته ، وبذله . وقد ميَّز منهاج اللَّه بين القاعدين من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدين في سبيل اللَّه بأموالهم وأنفسهم ، وفضَّل المجاهدين على القاعدين أَجراً عظيماً . كما ميَّز منهاج اللَّه بين من أنفق من قبل الفتح وقاتل وجعلهم أَعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا .

١٧ - كما ميَّز منهاج اللَّه بين الذين هاجروا والذين لم يهاجروا ، قبل أَن تتوقف الهجرة بعد فتح مكة . وكانت الهجرة مرتبطة بالإيمان والجهاد . وجاء حديث رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم :

« **لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة . فإذا استفرتم فانفروا** » . لِيَمْضِيَ الجهاد في سبيل اللَّه على قواعده في منهاج اللَّه إلى يوم القيامة . على نهج مرسوم ، وخطة مدروسة ، وإعداد وبناء ، وتربية وصبر ... وسائر الأُسس التي يعرضها منهاج اللَّه .

١٨ - الدعوة إلى اللَّه ورسوله صلى اللَّه عليه وسلم ، والجهاد في سبيل اللَّه يمضيان في الأَرض حتى تقوم الساعة ، ذلك لأَنّ الدعوة هي قضية الإنسان من كلّ جنس ولون ، هي قضية الضعيف والمظلوم ، والفقير والمسكين ، هي قضية القويّ حتى لا يأخذه الكبر والغرور ، وهي قضية الغنيّ حتى لا يفتنه غناه . إنها قضية الإنسان .

ونودُّ أَن نضع ذلك كلّه في إطارٍ عام محدد . فلقاء المؤمنين الذي يخشاه أَعداء اللَّه ، لا يريد أساساً القتال لأَجل القتال ، ولا الحرب لأجل الحرب . إننا نريد أن نبلّغ رسالة اللَّه إلى الناس أَجمعين ، لننقل للبشرية الخير الحقّ ، ونوصل إليهم النور الذي يزيح الظلام ، ولنخرجهم من ذلّ عبادة العباد ،

إلى عزّ عبادة اللَّه. وبغير هذا السعي الكريم، سيمتدّ الضلال إلينا، لو توقفنا، ويمتدّ الفساد، وتغلبنا الفتنة. وأَعداء اللَّه لا يخشون منّا القتال وحده في حقيقة الأَمر، إنهم يخشون الخير، والنور، والعزّة، أَن تمتدَّ إلى شعوبهم، أَو بلادهم، أَو أَنفسهم. فهم الذين يريدون القتال إذن كما أوضحنا سابقاً:

عن عبد اللَّه بن أَبي أوفى كتب إلى عمر بن عبيد اللَّه، حين سار إلى الحروريّة، يخبره أَنَّ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، كان في بعض أَيَّامه التي لقي فيها العدوّ، ينتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: **«يا أيها النّاس! لا تتمنّوا لقاء العدوّ واسألوا اللَّه العافية. فإذا لقيتموه فاصبروا واعلموا أنّ الجنّة تحت ظلال السيوف». ثم قام النبيّ صلى اللَّه عليه وسلم، قال: «اللهم منزل الكتاب، ومجريّ السحاب، وهازم الأَحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم».**

(أخرجه البخاري ومسلم وأَبو داود والدارمي)[1]

وكذلك فَلَسْنا أعْداءً لأَحد من الناس من حيث الابتداء. ولكن لنا من بين الناس أعداء، الذين هم أَعداءُ اللَّه. فهم الذين يوقدون نار الحرب، ويمدّون الفساد في الأَرض: يفتنون الناس عن الإيمان ويصدّون عن سبيل اللَّه. ولقاء المؤمنين يمضي بدعوته، جاهداً كي يفوّت عليهم فرصة الفساد والإفساد، ويطفئ نار الفتنة والهلاك، حتى تمضيّ الدعوة الإسلاميّة تشقّ طريقها. فإن أَبوا إلا المضيّ في إشعال النار، والسعي بالفساد، فإنّ لقاء المؤمنين، منذ اللحظة الأُولى، يعد عدته، وقوّته، أبد الدهر، لا يني ولا

---

(١) البخاري فتح الباري: كتاب الجهاد (٥٦). باب (١٥٦). حديث (٣٠٢٤، ٣٠٢٥)، مسلم: كتاب الجهاد والسير (٣٢). باب (٦). حديث (١٧٤٢)، أبو داود: كتاب الجهاد (٩). باب (٩٨). حديث (٢٠٣١).

يتراجع . ذلك حتى لا يؤخذ على وهن ، ولا يُصَدَّ عن سبيل اللَّه . من أَجل ذلك كله ، مع ما سبق أَن عرضناه ، فقد كُتب القتال على المؤمنين . كتبه اللَّه عليهم ، وهو أعلم بما يصلح لهم . والقتال هو قتال نهج ، والحرب هي حرب إيمان ، كما أوضحنا سابقاً ونكرر هنا ، ونظلّ نكرر ، حتى تتفتح منا الآذان والقلوب ، وتنطلق العزائم والهمم ، ويتوقف الجدل واللجاج .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ٢١٦)

فالذي يسعى لفتنة الحرب ، هم أَعداء اللَّه ، بغياً ، وحسداً من عند أنفسهم ، وطمعاً في ثروة المسلمين :

﴿ ... وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

(المائدة : ٦٤)

إنها العداوة والبغضاء بينهم هم ، وكذلك بينهم وبين الناس ، والحقد الأَسود ، والكفر المشتعل ، والطغيان المستبد . إنهم هم الذين يسعون في الأَرض فساداً ، وهم الظالمون ، وهم المعتدون . وتمضي سنّة اللَّه وتظلّ الآية الكريمة في سورة البقرة ماضية في حكمها :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة : ٢١٦)

ويمضي الجهاد في سبيل الله ، وهو الهدف الثابت الرابع ، مرتبطاً بالأَهداف الثلاثة السابقة التي تعمل كلها معه في آن واحد . وإن توقف أَي هدف ثابت من الأَهداف السابقة : الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، التربية والبناء ، بناء الجيل المؤمن ، يعطِّل دوراً من أَدوار الجهاد ، وينقص خصوصية من خصائصه الربانية ، وقد يتحوّل إلى غزو وظلم وعدوان .

وجميع معارك الإسلام وغزواته في عهد النبوة الخاتمة والخلفاء الراشدين ، وفي فترات متلاحقة بعد ذلك تكشف لنا هذا الترابط والتماسك ، وتكشف لنا أَهميته ، وتكشف لنا الخطر الشديد الذي ينتج عن غياب هذا الترابط ولقد سبق معنا في الباب الثاني - الهدف الأول - أَمثله ونماذج عن هذا الترابط في حياة النبوّة الخاتمة وفي حياة الخلفاء الراشدين .

وفي معركة القادسية مثل لنا واضح عن ذلك . كانت معركة القادسية سنة (١٤هـ) الموافقة (٦٣٦م) . وكان قائدها سعد بن أَبي وقاص رضي الله عنه . فبعث سعد رضي الله عنه إلى قائد الفرس نفراً من الصحابة يدعونه إلى الله ورسوله ، إلى دين الإسلام ، إلى رسالة التوحيد ، ليحققوا بذلك الهدف الثابت الأَول في الدعوة الإسلامية ، وليكون هذا الهدف مترابطاً مع الجهاد في سبيل الله .

وكان بين هؤلاء الصحابة النعمان بن مقرن والمغيرة بن شعبة والأَشعث ابن قيس وغيرهم رضي الله عنهم أَجمعين . فقال لهم قائد الفرس رستم : « ما أقدمكم ؟ ! » . فقالوا : « جئنا لموعود الله إيانا » . فهم إذن يتحركون

بوحي من إيمانهم وعقيدتهم، ومن وعد اللّٰه لهم أنهم سيأخذون ملك فارس وروما، حين بشرهم الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم بذلك في أكثر من موقف. ثمَّ دعوا «رسْتم» إلى اللّٰه ورسوله، دعوه ليؤمنَ باللّٰه ربّاً واحداً لا إله إلا هو. وقد أثّر ذلك كله في نفس رستم، حتى أرسل رستم إلى سعد يسأله أن يبعث إليه برجل عاقل عالم بما يسأله عنه. فبعث إليه المغيرة بن شعبة رضي اللّٰه عنه. فلما قدم جعل رستم يقول له: «إنكم جيراننا وكنَّا نحسن إليكم ونكفُّ الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم، ولا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا». فقال له المغيرة: «إنا ليس طلبنا الدنيا. وإنما همُّنا وطلبنا الآخرة. وقد بعث اللّٰه إلينا رسولاً قال له: إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدنْ بديني فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرّين به، وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلا ذلّ، ولا يعتصم به إلا عزَّ». فقال له رستم: «فما هو؟» فقال: «أما عموده الذي لا يصلح شيء إلا به فهو شهادة أن لا إله إلا اللّٰه وأنّ محمداً رسول اللّٰه، والإقرار بما جاء من عند اللّٰه». فقال: «ما أحسن هذا! وأيُّ شيء أيضاً؟!». قال: «وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة اللّٰه». قال: «وحسن أيضاً. وأي شيء أيضاً: قال والناس بنو آدم، فهم إخوة لأب وأم». قال: «وحسن أيضاً». ثمَّ قال رستم: «أرأيت إن دخلنا في دينكم أترجعون عن بلادنا؟!». قال: «إي واللّٰه لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة!». ولما ذاكر رستم رؤساء قومه عن الإسلام أبوا عليه، فدارت المعركة، ونصر اللّٰه جنده المؤمنين. وقبل المعركة بعث سعد رسولاً آخر إلى رستم وهو ربعيّ بن عامر رضي اللّٰه عنه، فدخل على مجلس رستم وقد زينوه بالنمارق المذهبة والزرابيّ الحرير، والياقوت واللآلئ والزينة العظيمة، وعليه تاجه وملابسه وحليه، وقد جلس على سرير من ذهب. دخل ربعيّ

على هذا المجلس بفرس قصير وسيف وترس وملابس صفيقة، ولم يزلْ راكباً فرسه حتى داس على طرف البساط ثمَّ نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه فقالوا له: «ضع سلاحك!». فقال: «أنا لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتموني. فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت». فقال رستم: «ائذنوا له». فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها. فقالوا له: «ما جاء بكم؟» فاسمعوا هنا هذه الإجابة الخالدة مع الدهر، لتردد ما كان قاله المغيرة بن شعبة وغيره من تلامذة مدرسة النبوّة الخاتمة؛ تعلّموا وانطلقوا في الأرض يدعون وإخوانهم بدعوة اللّه، بالدعوة إلى الإيمان والتوحيد استمعوا إلى هذه الإجابة وإجابة المغيرة، وقارنوا بين هذا كلّه وبين خطاب «البوكرك» وهو يغزو «مالاقا»[1]. قارنوا بين عقليتين ومذهبين في الحياة، ثمّ انظروا أين الحقُّ الذي ينفع الإنسان أمناً وعدلاً وحقوقاً. قال ربعيٌّ بن عامر رضي اللّه عنه وأرضاه: «إن اللّه ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللّه. ومن ضيق الدنيا إلى سعتها. ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود اللّه». قالوا: «وما موعود اللّه؟». قال: «الجنّة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي». فقال رستم: «قد سمعتُ مقالتكم، فهل لكم أن تؤخِّروا هذا

---

(١) والبوكرك هو قائد الحملة البرتغالية على «مالاقا» الواقعة على الساحل الغربي للملايو على المحيط الهندي، وتقابلها جزيرة سومطرة. وقد بدأت الحملة سنة ١٥٠٩م وامتدت حتى ١٥١٥م حين سقطت «مالاقا». خاطب البوكرك جنوده بقوله: «...... فإذا استطعنا الوصول إليها فسيترك المسلمون الهند كلها لنا. وهم يعيشون على تجارة هذه البلاد وقد اغتنوا ... و «مالاقا» مركزهم الرئيس ..... فإذا تمكنا من حرمانهم من هذه السوق لا يبقى لهم ميناء واحد، فستنهار القاهرة، وبعدها تنهار مكة».

الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ » قال: « نعم! كم أحبّ إليكم؟ يوماً أو يومين؟ » قال: « لا! بل حتى نكاتب رؤساء قومنا ». قال: « ما سنَّ رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث. فانظر في أمرك وأمرهم واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل ». فقال: « أسيدهم أنت؟ » قال: « لا! ولكنّ المسلمين كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم ». ومال رستم إلى ذلك ولكن قومه أبوا[1].

كلماتٌ تظلّ تُدَوِّي في الدهر كله. كلمات أبناء مدرسة النبوة، صدقوا اللّٰه في كلامهم وسعيهم وحربهم، فصدقهم اللّٰه وعده. كلمات يجب أن يحفظها أبناء المسلمين منذ نعومة أظفارهم، ومواقف خالدة يجب أن نقف أمامها تلامذة نتعلم ونتأدب، ثم نمضي في الأرض ندعو ونجاهد، ندعو كما دعوا، ونجاهد كما جاهدوا. وليقارن من شاء بعد ذلك كلام هؤلاء الصحابة وكلام « البوكرك » ليرى الناسُ الفرق الهائل بين كلام أبناء مدرسة النبوة ونهجهم، وبين كلام أبناء مدرسة الدنيا ومطامعها وجشعها وفتنتها ومظالمها. وليقارن من شاء وليعلم أن جهاد الإسلام دعوة للّٰه ولرسوله لصلاح الإنسان في الدنيا، ولنجاته في الآخرة، وأنه لا صلاح إلا بهذا الأمر، ولا نجاة إلا به، وبالصدق واليقين.

وإننا نرى في واقعنا اليوم اضطراب الأَهداف وتناقض الخطوات فقد نثب إلى الجهاد سنين طويلة تتعطل فيها الدعوة إلى اللّٰه ورسوله، وتتعطل فيه عملية البناء والإعداد، ويتعطل بناء الجيل المؤمن بخصائصه الربانية، يتعطل هذا كله، ثم نتساءل بعد ذلك لماذا كانت الهزيمة بعد الهزيمة؟!.

إن النصر من عند اللّٰه وحده. وعد به عباده المؤمنين الذين توافرت فيهم

(١) البداية والنهاية لابن كثير: (ج٧)، (ص: ٣٩، ٤٠).

الخصائص الربانية التي أَمر اللّٰه بها ، والذين أوفوا بعهدهم مع اللّٰه فأوفى اللّٰه لهم بعهده ، ومن أَوفى بعهده من اللّٰه ؟ !

وإذا استعرضنا كتاب اللّٰه وسنة نبيه محمد صلى اللّٰه عليه وسلم وجدنا القتال على ثلاثة أنواع . الأَول قتال بين ظالمين تمضي عليهم سنن اللّٰه بنصر اللّٰه من يشاء على حكمة غالبة له :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾

(الأنعام : ١٢٩)

والثاني قتال بين المؤمنين أنفسهم جعل اللّٰه له أحكاماً يجب اتباعها :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

(الحجرات : ٩ ، ١٠)

والثالث قتال بين المؤمنين الصادقين الذين وعدهم اللّٰه بالنصر لتوافر الخصائص الربانية التي أمر اللّٰه بها ، ولوفائهم بعهدهم مع اللّٰه ، وبين الظالمين المفسدين في الأرض . هذا القتال وعد اللّٰه المؤمنين النصر فيه لتحقق الشروط التي أمر اللّٰه بها . فإن لم يقع النصر فلينظر المؤمنون في أَنفسهم وليبحثوا عن أَخطائهم ، وليصححوا من مسيرتهم دون أَن يتعللوا بالأَعذار أو الأحلام والأوهام .

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾

(غافر : ٥١)

﴿..... وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ (البقرة : ٤٠)

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ...﴾ (النور : ٥٥)

إنه وعد من عند اللَّه ولن يخلف اللَّه وعده. وإنها بيعة لها شروطها يستبشر المؤمنون بها كلما أوفوا بعهدهم مع اللَّه. والعهد مع اللَّه والبيعة معه لهما شروط مفصلة في كتاب اللَّه عرضنا موجزها في كتاب لقاء المؤمنين الأول وفي كتاب العهد والبيعة وواقعنا المعاصر وغيرهما.

فمن هذه الشروط والأسس التي يقوم عليها العهد مع اللَّه والبيعة له، يقوم النهج، وتتحدّد الأهداف، وتُرْسم الدرب، بعيداً عن الأهواء والأحلام والأماني. إنها نصوص من قرآن وسنة ليس لأحد أن يتفلّت منها.

فإن وجد المسلمون خيراً ونصراً فليحمدوا اللَّه فذلك فضله ورحمته. وإن وجدوا غير ذلك فلا يلومون إلا أنفسهم.

إن الصراع مع أهل الكفر ماض حتى تقوم الساعة، ذلك لأنهم هم المعتدون وليس المسلمين، وهم المجرمون، وهم الظالمون المفسدون:

﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴾

(التوبة : ١٠)

وتمضي هذه العصابات المفسدة في الأرض تُغرق الأرض بفسادها ومجازرها، وطغاتها وعتاتها. وتمتد مع التاريخ في صراع مستمرّ مع الإسلام. ولماذا الإسلام؟! لأنهم وجدوا أن الإسلام وحده يقف أمام

مطامعهم وجشعهم، وإفسادهم وجرائمهم، ونهبهم لخيرات الأرض وحرمان عباد اللّه منها. وجدوا أن الإسلام وحده يقف في وجههم ليصدُّهم عن جرائمهم هذه، يقف أولاً بدعوته لهم إلى الحق، إلى الإيمان والتوحيد، إلى دين اللّه، دعوةً أذهلت رستم من قبل وأذهلت قومه، وأفحمته وأفحمتهم، ويقف ثانياً في وجههم بمبادئه الإنسانية العظيمة كلها، برسالته الربّانية، بأعمق بُعدٍ إنسانيّ عرفته البشرية، وبأطهر نظرة كونية عرفها الإنسان، ويقف ثالثاً برجاله الصادقين، بالرجال المؤمنين المجاهدين، بالجيل المؤمن الذي تبنيه الدعوة الإسلامية على مرّ العصور.

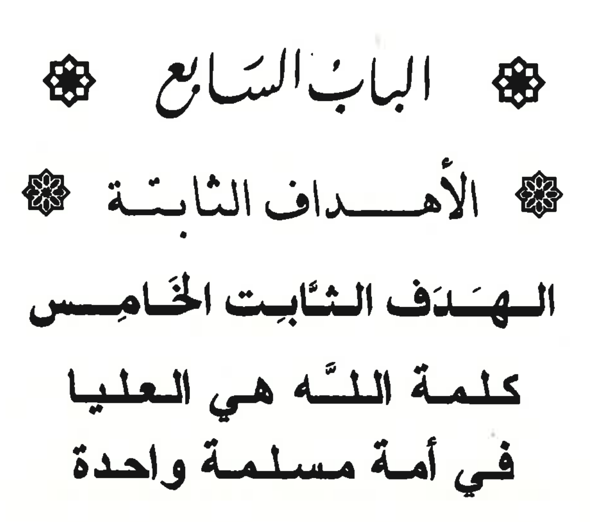
• • •

ويختلط الأمر أحياناً على بعض المسلمين وهم يقرءون قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ (النحل: ١٢٥)، ثم يقرءون آيات القتال كقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ١٢٣)، ثمَّ يقرءون آيات في الحكم مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ...﴾ (المائدة: ٤٩)، أو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (المائدة: ٤٤)، وآيات أخرى كثيرة تتحدث عن الدعوة والقتال والحكم، فتختلط في ذهن بعض المسلمين الصورة.

ونرى أن تحديد الأهداف في الدعوة الإسلامية على نحو ما عرضنا في

هذا الكتاب يزيل كل لبس أو اضطراب . ذلك لأن للإسلام نهجاً في الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، ونهجاً في التربية والبناء والإعداد ، ونهجاً في القتال والجهاد ، ونهجاً في الحكم وتلتقي هذه الأهداف كلها والمناهج جميعها وتترابط وتتناسق في المنهاج الربانيّ ، منهاجاً متكاملاً . فلا يصحّ أن نأخذ أحكام القتال لنطبقها في مرحلة الدعوة والبلاغ ، ولا أحكام الدعوة والبلاغ لنطبقها في مرحلة القتال ، ولا هذه وتلك في مرحلة الحكم وإقامة الحدود وتنفيذ شرع الله . وكذلك لا يصحّ تعطيل مرحلة أو هدف ، والسعي إلى هدف آخر دون ارتباطه بالهدف السابق . والمؤمنون مكلفون بتطبيق جميع الأهداف الرّبانية على تناسقها وترابطها ، عن إيمان ويقين ، وعلم وتثبت ، وخبرة وكفاءة ، على صراط مستقيم ونهج قويم ، ثمّ يأتي النصر من عند الله لمن أوفى بعهده مع الله .





الباب السابع

الأهداف الثابتة

الهدف الثابت الخامس

كلمة الله هي العليا في أمة مسلمة واحدة

الباب السابع

الهدف الثابت الخامس
كلمة اللّه هي العليا
في أُمّة مسلمة واحدة

لقد سبق أن مرّت معنا ، « **وكلمة اللّه هي العليا** » ، في الآية الكريمة التي استشهدنا بها من سورة التوبة . ومرّت معنا « **لتكون كلمة اللّه هي العليا** » ، في الحديث الشريف الذي استشهدنا به ، في حديثنا عن الدعوة والجهاد . وابن كثير يورد عن ابن عباس رضي اللّه عنهما : كلمة الذين كفروا الشرك ، وكلمة اللّه هي لا إله إلا اللّه . ثم يستشهد ابن كثير في تفسير الآية في سورة التوبة بالحديث الشريف ، الذي ذكرناه سابقاً ، والذي ورد فيه : « .... **من قاتل لتكون كلمة اللّه هي العليا فهو في سبيل اللّه** » . ونود أَن نوضح بعض الظلال لمعنى « **كلمة اللّه هي العليا** » ، في الآية الكريمة والحديث الشريف . ففي الآية الكريمة يأتي السياق : « **وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمةُ اللّه هي العليا واللّه عزيز حكيم** » . فمجيء « **وكلمةُ اللّه هي العليا** » تشمل لفظة « كلمةُ » في حالة الرفع ، لتعبر عن حقيقة كونيّة ثابتة لا علاقة لجهد الإنسان بها . فهي أَمر اللّه ، وهي كلمته . وكأنها تدلُّ هنا على قدرة اللّه ، وأَمر اللّه ، وقضاء اللّه ، وحكم اللّه ، فذلك ثابت دائم في الكون . وكأنها تلتقي ظلالها مع ظلال الآية الكريمة :

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . ﴾

(يوسف : ٢١)

والكون كله ، وسننه كلُّها ، مسخرة لتنفيذ أَمر اللَّه ، وإمضاء قضائه ، وإنفاذ حكمه ، فتظل « **كلمة اللَّه هي العليا** » . والإنسان والمخلوقات كلها **مسخّرة** بأمر اللَّه لتظلّ كلمةُ اللَّه هي العليا . فهي إِذن قضاء اللَّه وقدره ، وحكمه ، وسننه .

وفي الحديث الشريف يأتي النصّ « .... **من قاتل لتكون كلمةُ اللَّه هي العليا فهو في سبيل اللَّه** » . فكلمةُ اللَّه هي العليا هنا جاءت من خلال التعبير عن جُهد الإنسان في القتال والجهاد . فهي تحمل ظلّاً جديداً في الحديث الشريف ، لتعبّر عن : دين اللَّه ، ومنهاج اللَّه ، وتطبيق ذلك في واقع حياة الإنسان ، في واقع البشريّة ، حتى تنقاد البشرية لهذا المنهاج وحده ، وليظلّ هذا المنهاج هو الأَعلى . هذا المعنى وهذه الظلال ، التي تجمع جهود الإنسان على هدف محدد واضح ، وتعلق أَبصاره بغاية مجلّوة مشرقة ، هي موضوع هذا الباب ، وهي مدار الحديث ، ومقصد الكلمة . فالإنسان هنا **مكلّف** ليسعى لهدف محدّد . والآية الكريمة السابقة تشمل هذه الظلال أيضاً .

إننا نتحدث هنا عن الجهد المؤمن الصادق ، ليحقق هدفاً محدَّداً . وهذا الهدف هو أن تكون كلمة اللَّه هي العليا ، في الواقع البشريّ ، في واقع الإنسان ، في واقع الأُمة ، في واقع الجماعة ، وفي واقع الفرد . فهو تكليف شرعي .

هذا الهدف العظيم ، تمضي إليه الدعوة ، ويمضي إليه الجهاد ، وتمضي إليه الجهود .

وهذا الهدف العظيم يحمل معه ، أَقوى معاني الاستخلاف في الأَرض ، وأَزكى معاني العبادة ، وأصدق الأَداء للأَمانة ، وأوفى القيام بالعهود .

وهذا الهدف مرتبط، متصل، متكامل، متناسق، مع الأَهداف السابقة التي عرضناها في الأَبواب السابقة.

نستطيع أن نقول بصورة عامة، أنَّ من أَهداف لقاء المؤمنين تحقيق خصائصه، والمحافظة عليها. والأُمَّة المؤمنة الواحدة، هي إِحدى خصائص لقاء المؤمنين. ولذلك فقد أصبحت هدفاً من أَهداف لقاء المؤمنين، وهو ينمو، ويشتدّ، حتى تكون الأمّة الواحدة. فتمضي باللقاء، وتمضي بالدَّعوة في الأَرض، تحمل رسالة اللّه، وإرث النبوّة، ومهمّة الاستخلاف، وخشوع العبادة، وأداء الأَمانة، وعمارة الأرض، في درب الابتلاء والتمحيص.

لقد عرضنا ملامح ذلك في كتابنا «**لقاء المؤمنين**» الجزء الأول، في الفصل الثاني من الباب الأَوَّل. وهذه الخصوصية وردت هناك في ختام عرض خصائص لقاء المؤمنين. فالأمّة المؤمنة الواحدة، هي في الحقيقة، ثمرة الخصائص السابقة كلها، ونتيجة الجهد المتواصل كلِّه، وبركة اللّه على المؤمنين، ونعمة اللّه على الإنسان كله. إنّ الأُمّة المؤمنة الواحدة لا تتحقق إلّا إذا تحققت الخصائص كلها، عقيدة وإيماناً، علماً وعملاً، ممارسة وتدريباً، في مدرسة ماضية مع الدهر لا تتوقف أبداً.

والأُمة الواحدة التي يحكمها منهاج اللّه في كل أُمورها، الأُمة الواحدة التي يصوغ لها منهاج اللّه خطَّها ونهجها، وتصوّراتها وأَهدافها، هي ثمرة من ثمار الدَّعوة، وبركة من بركاتها، حين تنجح الدعوة في مسيرتها، وتصدُق في إيمانها وعهدها، وتنتصر في وثباتها وميادينها.

إنَّها بركة جهد طويل، ومعاناة وصبر، وثبات ويقين. إنها بركة جهد

بشريّ مؤمن، له خصائص واضحة مميَّزة، بارزة في الواقع والممارسة. إنَّها بركة هذا الجهد البشريّ، حين يرعاه اللَّه، وتحفه الملائكة، وتغشاه الرحمة، وتنزل السكينة. إنها ثمرة جهد العصبة المؤمنة، تجتمع لتتلو كتاب اللَّه وتتدارسه، كما ورد في الحديث الشريف الذي أخرجه مسلم عن **أَبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال: «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس اللَّه عنه كربة من كرب الآخرة .... وما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللَّه يتلون كتاب اللَّه ويتدارسونه بينهم إلَّا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم اللَّه فيمن عنده، ومن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه»**[1] .

إنّ وجود الأُمة المؤمنة الواحدة في الأَرض، حاجة ملحة للإنسان كله، للبشرية كلها، للأجيال والعصور. إنها هي التي تحفظ نواة الخير، وجذوة الصلاح، في الأَرض، وهي التي تضع أُسس الحضارة، وترفع أَعمدة النمو، ومنارات الهدى.

والأُمَّة المؤمنة الواحدة، هي الأُمّة التي يتحقق فيها، في واقعها، سيادة منهاج اللَّه لتكون كلمة اللَّه هي العليا. وتتحقق هذه السيادة عندما تصبح «كلمة اللَّه هي العليا»، إيماناً يملأ النفوس والقلوب، ويقيناً يهب العزيمة والسكينة، وعلماً يملأ الصدور، وجهداً واعياً، يمضي على نهج واعٍ وخطة مدروسة. هنا في هذه الأُمة، يكون منهاج اللَّه، - قرآناً وسنَّة -. هو مصدر العقيدة والتوحيد، وهو مصدر الفكر والتصور، وهو منبع العاطفة والشعور، وهو مصدر النهج والتخطيط ....! ويكون ذلك كله في ممارسة إيمانية واعية، تستوعب مواهب الأمة وقدراتها، وكفاءاتها وطاقاتها.

(١) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٤٨). باب (١١) حديث (٢٦٩٩).

في هذه الأُمّة المؤمنة والواحدة : تنصَبُّ الجهود المؤمنة كلها في مجرى الخير ، لتجتمع كلها ، وتتناسق كلها ، فلا تتنافر ولا تتمزَّق . فإذا الجهود قوة عظيمة ، وإذا هي خير كبير .

وتنصب الجهود المؤمنة كلُّها في مجرى الخير ، مجرى واحد ، ليكون الصف المؤمن الواحد :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (الصف : ٤)

وهي أُمّة مؤمنة واحدة ، لا تقول ما لا تفعل .

﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الصف : ٣)

إنّها أمة تؤمن بالله واليوم الآخر ، وتجاهد في سبيل الله ، بالمال والنفس ، جهاد بذل وعطاء ، وصدق ووفاء .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾
(الصف : ١٠، ١١)

إنها أُمة تجمع خصائص الإيمان والعلم والعمل ، يصوغها منهاج الله ، وتبتعد عنها ظنون الضالّين ، وأوهام المضلين .

إنها أُمة ترتبط برباط واحد ، هو أُخوة الإيمان . ولها نهج واحد ، وخط واحد ، هو الصراط المستقيم . ولها أهداف محدَّدة بيّنة . في هذه الأُمّة تذوب الروابط الأُخرى ، لتأخذ الصورة الإيمانية . فالقرابة تصبح رحماً يُرعى على قواعد وأُسس وحدود . فلا يكون عصبيّة جاهلية ، وظلماً وعدواناً . ويصاحب المؤمن والديه معروفاً في الدنيا ، ولا يطيعهما في

معصية للَّه أبداً . وتذوب الإقليميّة ، والقوميَّة ، وسائر العصبيات ، في أَمواج دفَّاقة من نور الإيمان ، وإشراقة الإحسان . والجوار ، والصحبة ، والزواج ، وسائر علاقات الإنسان ، تأخذ صورتها الإيمانية الرائعة ، لتتطهّر من رجس الجاهلية ، ودنس الشرك ، ولوثة الوهم والخبال .

وخصائص هذه الأُمّة المؤمنة الواحدة ، معروضة بكل تفاصيلها في منهاج اللَّه ، واحدة واحدة . إنما نأخذ هنا قبسات .

والجماعة المؤمنة ، وهي تمضي في الأَرض ، تجاهد في سبيل اللَّه ، تحمل دعوة اللَّه إلى الناس ، تقترب من الأُمّة الممتدة ، ذات القوة والسلطان ، بمقدار ما تحقق في ذاتها وواقعها من خصائص الإيمان ، كما فصَّلها منهاج اللَّه . وتظل تقترب من السيادة ، وتزداد قوّة ومنعة ، برحمة من اللَّه وفضل ، على قدر ما تصدق في إيمانها ، وعلمها ، وممارستها .

فحتى يصل المؤمنون إلى درجة السيادة والقوَّة والسلطان ، ومنعة الدولة والحكم ، وعزَّة العبوديَّة للَّه ، وعزَّة الإيمان ، حتى يصلوا إلى ذلك ، فلا بد أن يتحقق شرطان أساسيان ، حددهما اللَّه رب العالمين ، وهما :

* الإيمان بكل خصائصه وأَماراته .
* العمل الصالح بكل خصائصه وأَماراته .

والإيمان ، ليس مجرّد شعار يرفع ، ولا كلمة تقال . ولكنه جهد وبذل وعطاء ، ويقين وخشوع وإنابة وسلوك ونهج وعلم ، فصَّل ذلك كله منهاج اللَّه تفصيلاً يقيم الحجة ويقطع الجدل ، ويسد أبواب الشرك والنِّفاق ، وغلبة الهوان والأَعذار . **الإيمان** : يقين يستقرُّ في القلب ، وعلم يملأ الصدر ، ونهج يمضي عليه المؤمنون ...! وهذا كله ، إذا توافر في الأُمَّة ، فليُرفع الشعار وتُرفع الراية ، فنعمت الراية راية المؤمنين . ولْنَقُل

الكلمة ، فإنّها كلمة طيبة ، ونعمت الكلمة كلمة المؤمنين .

﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾

(الحج : ٢٤)

والعمل الصالح ، عرّفه منهاج اللّه ، ورسم له الحدود ، ووضع له الأمارات . فلا مجال لزوغ أو لبس . إنّه العمل الذي تصدق فيه النيَّة خالصة لوجه اللّه ، لا تختلط بأثر من الدنيا ، ولا هوى ، ولا شهوة . إنَّها نيّة خالصة ، صافية ، صادقة ، للّه تعالى ....! واللّه وحده يعلم ما في الصدور . ولا تكفي النيَّة وحدها لنجاح العمل ، واستكمال شروطه . فلا بدَّ أن يكون مطابقاً لمنهاج اللّه ، لشرع اللّه ، لدين اللّه .

عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : « إنَّما الأعمال بالنيات وإنَّما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى اللّه ورسوله فهجرته إلى اللّه ورسوله . ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هجر إليه » .

(رواه الشيخان)[1]

وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « إن اللّه لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » .

(رواه مسلم)[2]

عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ » . (متفق عليه)[3]

---

(١) البخاري : كتاب بدء الوحي (١) . باب (١) . حديث (١) ، كتاب الإيمان (٢) . باب (٤١) . حديث (٥٤) ، مسلم : كتاب الإمارة (٣٣) . باب (٤٥) . حديث (١٩٠٧) .

(٢) مسلم : كتاب البر والصلة والآداب (٤٥) . باب (١٠) . حديث (٢٥٦٤) .

(٣) البخاري فتح الباري : كتاب العلم (٥٣) . باب (٥) . حديث (٢٦٩٧) ، مسلم : كتاب الأقضية (٣٠) . باب (٨) . حديث (١٨/١٠) ، ابن ماجه : المقدمة حديث (١٢) .

ولا يستطيع أَن يطمئنَّ إلى أنَّ عمله مطابق لمنهاج اللَّه إذا خلا صدره من العلم بمنهاج اللَّه. وعمل الإنسان ماض يومه كله في بيته، وحيِّه، ووظيفته وغير ذلك، فلا يستطيع أَن يستفتي النَّاس في كلِّ أَمر، ولكنه يستطيع أن يستفتي قلبه إذا خلا من الشهوة والهوى، وإذا طهّره الإيمان، وملأه العلم. ويستفتي غيره من أَهلِ العلم والاختصاص فيما هو أبعد من حدِّه، وأَعلى من طاقته وعلمه، وأَوسع من جهده.

فإذا توافر هذان الشرطان في المؤمنين: الإيمان بخصائصه وجوهره، والعمل الصالح بخصائصه وجوهره، وما يتبع ذلك، كما ذكرنا، من صفاء نيَّة، وقوة علم، وجدّ في السعي، وجود في البذل، وعزيمة في الإعداد، ووعي في النهج والتخطيط، وحسن توكُل على اللَّه، فإنَّ اللَّه وعد المؤمنين أن يستخلفهم، في الأَرض، وأن تتحقق فيهم «كلمة اللَّه هي العليا»، فيحكم نهجه، ويستقر أمرهم، ويثبت أَمنهم، ويذهب فزعهم. يعبدون اللَّه عبادة صدق وخشوع، وتوحيد لا شرك معه:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

(النور: ٥٥)

إنه وعد من اللَّه ....! ومن أوفى بعهده من اللَّه ....! ومن أَصدق من اللَّه قيلاً ....! ومن أَصدق من اللَّه حديثاً ...! ولكن على الإنسان أن يصدق عهده مع اللَّه، ويوفي حق الأَمانة، ويقوم بشروط العبادة، وينهض لواجب الاستخلاف.

إن الأُمَّة المؤمنة التي يحكمها منهاج اللَّه، وهي مستخلفة في الأرض، هي آمنة، مكَّن اللَّه لهم دينهم، فأَعزهم، ورفع عنهم الخوف .... إن الدولة التي تسود بمنهاج اللَّه، وتمضي لتحمل دعوة اللَّه في الأرض، يتآخى فيها المؤمنون. إنَّ هذا السلطان، وهذه العزَّة، وهذا الاستخلاف، وعد من اللَّه لعباده المؤمنين، يحقِّقُه لهم، إذا هم أَوفوا بالعهد، وصدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه ....!

إنَّ هذا السلطان، لا يتمّ لحالم طال نومه، ولا لمتفيقه طاب له كسله، ولا لشعار وزخرف، ولا لأمَانٍ وغرور.

إنَّ هذا السلطان هو ثمرة عمل طويل، وثمرة صدق مع اللَّه، ونتيجة كريمة لعمل كريم.

إنه ليس أُمنية قائد، ورغبة زعيم، وشهوة طامع، ونزوة جاهل، وثمرة مظاهرة صاخبة، وهتاف عال، وحناجر مبحوحة، وتيه وضياع.

إنه عمل أُمة ...! إنَّه عمل أُمَّة بكل معاني الأُمة المؤمنة التي عرضناها، وبكل خصائصها. إنَّنا لا نحدِّد هذا التحديد، لأنَّنا ظننا، أَو توهمنا. ولكنها آيات بيِّنات، وأَحاديث بيِّنة.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

(محمد: ٧)

إنَّه وعد معلَّق بشرط. إذا حقق المؤمنون هذا الشرط، وإذا أَوفى الذين آمنوا بعهدهم مع اللَّه، أنجز اللَّه وعده، وأعزَّ جنده. إنَّ الخطاب ليس موجَّهاً لفرد، ولا لعددٍ محدَّد. إنَّه موجّه للمؤمنين على مدى الدهر: « **يا أَيُّها الذين آمنوا ...** »، والشرط هو: « **إنْ تنصروا اللَّه ....** ». وهذه النصرة للَّه، لا تعني ما اعتاده الناس من نصرة بعضهم بعضاً. ولكنها عقيدة تتحقق في

النفوس ، وممارسة تبرز في واقع الحياة . إنها إيمان وإحسان ، وعلم وعمل ، وجهاد ومجاهدة . ونصرة الله يشرحها كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ (الأنفال : ٢٠)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال : ٢٤)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنفال : ٢٧)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

(الأنفال : ٢٩)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (الأنفال : ٤٥- ٤٧)

هكذا تكون نصرة الله : سمع وطاعة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ،

دون إدبار ولا تولّ. واستجابة للّه وللرسول صلى اللّه عليه وسلم، وعدم خيانة اللّه والرسول صلى اللّه عليه وسلم، وعدم خيانة الأمانات، وتقوى اللّه، والثبات أمام الأعداء، وذكر اللّه كثيراً، والصبر، وعدم الكبر وعدم الصدّ عن سبيل اللّه.

وتمضي الآيات الكريمة تؤكد العهد وتوضح أُسسه وشروطه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ۝٣٨ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ (الحج: ٣٨- ٤١)

يظلُّ الإيمان الصادق أساس الوعد. **فاللّه يدافع عن الذين آمنوا**. فهو وعد من اللّه ممتد إلى يوم القيامة، إذا تحققت شروط الإيمان. وهو وعد بنصر اللّه إذا أخلصوا ولم يشركوا ....! «الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق **إِلّا أنّ يقولوا ربُّنا اللّه ....**»، وتمضي سنن الكون مسخَّرة لتحقيق وعد اللّه للمؤمنين من حماية، ونجاة، ودفاع، ونصرة: **«ولولا دفع اللّه الناس بعضهم ببعض ...»**. ويتحقّق وعد اللّه للقوم الصادقين، حين يوفون بعهد اللّه بالاستخلاف، فيقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون

عن المنكر. لهؤلاء المؤمنين يُمكِّن اللّه لهم دينهم، ويمكنُهم في الأرض. ويهبهم برحمته القوة والسلطان، والعزَّة والدولة، في أُمَّة واحدة، تقيم شرع اللّه كاملاً.

ويمتدُّ وعد اللّه لرسله عليهم السلام وللمؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة:

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ (غافر: ٥١)

إنَّه وعد مؤكَّد، بأقوى ما تعرفه اللغة من صور التأكيد: «إنَّا» صورة من صور التأكيد. واللام في ننصر، صورة من صور التأكيد. وعد مؤكد، ووعد ممتد في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

ولا يترك اللّه عباده المؤمنين، دون أن يهيئ لهم من أسباب القوَّة والمنعة، ما يعينهم على الوفاء بالعهد، والقيام بالأمانة. فكما رأينا سابقاً جعل اللّه من سنن الحياة ما يوفِّر الحماية للمؤمنين «**ولولا دفع اللّه الناس بعضهم ببعض...**». فكذلك أودع باطن الأرض، وأجواء السماء، ما يوفِّر قوة ومنعة لمن ينهض ويعمل، ويمضي ويسعى، امتحاناً منه تعالى وابتلاء:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحديد: ٢٥)

وهكذا نرى عظمة وعد اللّه لعباده المؤمنين، وقوة تأكيده، ويقين تحقيقه. ونرى كذلك جلاء شروطه، وبيان أُسسه، حتى لا يظلَّ بها شبهة أو ريبة، ولا يبقى عذر لمتراخ أو حجَّة لكسول.

ونرى أنَّ وعد اللّه لعباده المؤمنين هو وعد ممتدٌّ منذ بداية الطريق، وأوَّل

الدرب . فهو هداية لمن جاهد وأَحسن . وهو حماية لمن نهى عن السوء ، ونجاة لمن أَمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وهو دفاع عن المؤمنين ، وهو عون وتسخير لسنن الحياة لتدفع أذى ولتحقق حماية . وهو في النهاية نصر وتمكين ، وعزة وسلطان .

إذن يتحقق الوعد على درب طويل ، فيه صبر ومصابرة ، وجهد وجهاد ، وبذل مال ونفس ، وعقد بيع وشراء ، وتجارة رابحة في الدنيا والآخرة .

وهكذا يفسر لنا القرآن الكريم آياته ، بتكاملها وتناسقها وترابطها ، حتى تصبح جليَّة بيِّنة . وآيات أُخرى كثيرة تزيد معنى « إن تنصروا اللّٰه ... » ، جلاء وقوة . ولن نجد لها تفسيراً أوضح ، ولا أقوى ، ولا أيسر ، من التفسير الذي تقدمه الآيات والأَحاديث .

ويتأكَّد وعد اللّٰه للمؤمنين مع آيات كثيرة . وكل آية تزيد المعنى عمقاً ، وتضيف ظلاً ، وتبرز الشروط ، ويتحدَّد الوعد والعهد ، حتى يتكامل صورة وألواناً وظلالاً :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

(العنكبوت : ٦٩)

فنصرة اللّٰه تحمل هنا ظلال الجهاد وظلال الإحسان . فمن جاهد في اللّٰه فسيهديه اللّٰه إلى « سُبله » ، ومن أَحسن فإن اللّٰه معه . وهكذا تمتد الظلال ، وتعمق المعاني .

ويمتد الوعد إلى تحقيق النجاة ، وإلى حماية اللّٰه ....

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

(يونس : ١٠٣)

وتزداد الظلال رحمةً وبرداً وسلاماً:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (يوسف : ١١٠)

وتمتد النجاة .....! وتتضح شروطها .....!

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ (الأعراف : ١٦٥)

فإذا لم يتحقق وعد اللّه في مرحلة زمنية، فلينظر المؤمنون في أَنفسهم، وليراجعوا شروط الوعد، وما قاموا به، وَلْيَنْظُرُوا في صدق وفائهم، وسلامة التزامهم، وطهارة خطوتهم، وإِخلاص نيَّتهم، وقوة علمهم، وصلاح عملهم. فالشروط بيِّنة. ولينظروا في نهجهم وسبيلهم.

إنها لا تكفي الشعارات التي تحرِّك عاطفة، وتدغدغ أَحلاماً وتهيج أَمالاً. إِنَّها لا تكفي كلمة «انقلاب»، ولفظة «ثورة»، وشعار مزخرف ....! إِنَّه سبيل محدَّد رسمه اللّه، وصراط مستقيم مدَّه الرحمن. فهذا هو السبيل، ولا سبيل سواه، وهذا هو الصراط ولا صراط سواه. وسواء أرضي الملهوفون أم لم يرضوا، وسواءٌ أوجدوا الدرب قصيراً، أَو وجدوه طويلاً .....، فإِنَّه هو الدرب، والسبيل، والصراط المستقيم، ولا سبيل سواه.

إِنَّ الأُمَّة الواحدة التي يحكمها منهاج اللّه لا تتحقَّق بصيحة طائشة، ووثبة عاجلة، ونزوة هوى. إِنها لا تتحقق بحشود جماهير، اندفعت لتنفَّس عن غضب، وهي لا نهج لها ولا خطة، دفعتها عواطف مشبوبة، ورغبات مختلطة، وآمال مضطربة. إنها لا تتحقق والأَصنام تقود

الأَصنام ، والطواغيت تقود القطيع ، والهوى يدفع الهوى ، والجهل يسوق الجهل ، مهما تكن الشعارات برّاقة ، والهتافات صاخبة ، والحناجر مبحوحة .

إنها ليست شيوعية ....، وليست قومية ....، وليست إقليمية....! إنها حركة ربَّانية ، ودعوة ربَّانية ، وأُمة ربَّانية ...!

﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴾ (آل عمران : ٧٩)

إنَّ الدولة الإسلامية ، والحكم الإسلامي ، هو ثمرة جهد أُمَّة ، وحركة دعوة ، أُمة الإيمان ، ودعوة الإسلام ، على طريق ممدودٍ متَّصل منذ أقدم العصور ، وماضٍ حتى تقوم الساعة . إنَّه وعد من عند اللَّه .

ولكنَّ تحقيقه لا يكون بقرار بشريّ . إنَّ الجهد البشريّ المؤمن يعمل ، على النهج الربَّانيّ ، كما أَمر به اللَّه ، ويمضي على صدق إيمان ، وقوَّة علم ، وبذل وعطاء .....! إن الجهد البشري يمضي على طريق منير ، إلى أهداف مشرقة إنه يمضي مهما يكن البذل عظيماً ، والتضحيات جسيمة . إنه يمضي دون توقف أَبداً ، ودون تراخ أَو استرخاء . إنَّه يمضي على هذا العزم والصدق ، لأَن عمله عبادة وطاعة ، وأَمانة واستخلاف ، يقوم بذلك من خلال تمحيص وابتلاء . وقدر اللَّه ماضٍ ، وكلمته غالبة . فالجهد البشريُّ المؤمن ، يمضي على دربه المستقيم ، لأن ذلك عبادة ، ولكنَّ هذا الجهد مهما كان عظيماً ، فإنَّه لا يقرر النتيجة ، ولا يقرِّر النصر ....! فالنصر من عند اللَّه ، والتمكين في الأَرض وعد من عند اللَّه ، يُمضيه اللَّه بقدره وقضائه ، وحكمه وحكمته ، وسننه وكلماته .

﴿ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال : ١٠)

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ (آل عمران : ١٢٦)

والأُمَّة الواحدة التي تعلوها كلمة اللَّه ، لا تمثل نهاية مطاف ، ولا أبعد هدف ، ولا لحظة وقوف . إنها مرحلة في مسيرة طويلة في الأرض . إنَّ هذه الأُمَّة تمضي بالدعوة في طريقها الطويل ، بقوة جديدة لتشق ميادين جديدة . إنها تمضي ، ولها من سلطانها قوة جديدة ، ومن تمكينها منعة جديدة .

عندما يتفشَّى الجهل في قوم ، ويغلبهم الهوى ، وتعصرهم المعاصي ، ويظهر الشرك ، ويشتد الصدُّ عن سبيل اللَّه ، فلا يتبدَّل الواقع هذا بقرار ، ولا بيان ولا بلاغ . إنَّ السلطان ، مهما عظم ، لا يدفع صدق الإيمان إلى القلوب ولا يبدل نوازع النفوس . لكنه قد يطوي نفاقاً ، ويغطي فتنة ، إلى حين .

وعندما يتفشَّى الفساد في قوم ، وينتشر السوء ، وتقع فتنة ، فإنَّ اللَّه يعاقب القوم ، ويسلِّط عليهم الذلَّ والهوان . فإما أَن يصيب اللَّه بهذا العذاب الطائفة التي أفسدت ، وينجِّي الطائفة التي كانت تنهى عن السوء وهي صابرة ، وإمَّا أن يأخذ اللَّه الجميع بعقابه ، ولا يحصره في الذين ظلموا منهم خاصة . وقد عرض لنا القرآن الكريم هاتين الحالتين :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٤ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (الأنفال : ٢٤ ، ٢٥)

هذه حالة ...! يخاطب اللَّه سبحانه وتعالى « **الذين آمنوا ....** » ويحذرهم من فتنة يذهب بها الظالم وغيره ، على عدل وحكمة منه سبحانه وتعالى ، عندما يتخلف بعضهم عن الاستجابة للَّه وللرسول صلى اللَّه عليه وسلم ،

اختباراً ومحنة يعمُّ بها المسيء وغيره ، ولا يخصُّ بها أهل المعاصي ، ولا من باشر الذنوب ، بل يعمهما حيث لم تدفع ولم ترفع .

وفي الحديث :

عن حذيفة بن اليمان أنَّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : « والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهوُنَّ عن المنكر أو ليوشكن اللّه أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم » .

(رواه الإمام أحمد)[1]

والحالة الأخرى :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (الأعراف : ١٦٤، ١٦٥)

فهذه حالة لا يأخذ اللّه بها الجميع بعقابه ، حيث قامت طائفة تعظ وتذكِّر فأَنجاها اللّه لأَنها تنهى عن السوء ، وأَخذ الذين ظلموا بعذاب بئيس .

فإذا ربطنا هذه الآيات الكريمة والأَحاديث الشريفة ، بالآيات السابقة التي عرضت لنا صوراً من وعد اللّه ، فإننا لا نجد وعداً من اللّه لقوم غلبت عليهم المعصية ، لا نجد لهم وعداً بالنصر والتمكين في الأرض . فالأَمر المهمُّ إذن ، هو مضيُّ الدعوة إلى اللّه ورسوله صلى اللّه عليه وسلم ، على نهج واع مدروس ، يقوم على قاعدتين : منهاج اللّه ، والواقع الذي تعمل به . وعلى قدر مستوى الإيمان الذي يعمل ، والعلم الذي يوجِّه ، والموهبة

(١) أحمد المسند (٥/ ٢٨٨ ، ٦٩١)، الفتح (١٩/ ١٧٢).

التي تخطِّط، على قدر هذا كله، يكون مستوى النهج قوياً أو ضعيفاً. ويبقى النصر دائماً من عند اللّه، يتنزل على حكمة غالبة، وعلم واسع، وعدل ربانيّ. فهو وحده يعلم الإيمان ومستواه، والعلم وقوته، وحقائق الطاقات البشريَّة العاملة. وهو وحده يعلم ما سنَّ لهذا الكون من سنن ماضية فيه، وأَقدار غالبة عليه.

يجب أن يظلَّ الجهد البشريّ المؤمن يعمل في ممارس إيمانية حتى يرى اللّه في عباده صدق الإيمان، ويتحقَّق الشرط الأوَّل الذي اشترطه اللّه لتنفيذ وعده: «**وعد اللّه الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ....**».

ويمضي العمل، وتنمو الممارسة الإيمانية في واقع الحياة حتى يراها اللّه «**عملاً صالحاً ....**» في ميزانه الربَّاني ويتحقَّق الشرط الثاني: «**وعلموا الصالحات ...**» وتنمو الممارسة في واقع الحياة في شتى الميادين، وتستوفي الشروط التي حددها اللّه في منهاجه الربَّاني. تنمو الممارسة الإيمانية، وينمو معها لقاء المؤمنين، وتنمو الميادين، وينمو الإيمان، وينمو العلم، ويمتد النّمو، حتى يصبح العمل كله في ميزان اللّه «أعمالاً صالحات».

فإذا استوفى المؤمنون هذين الشرطين، أنجز اللّه وعده. (**ومن أصدق من اللّه قيلاً**).

إلى تحقيق هذه الخصائص يجب أَن تنصب الجهود، وإلى هذه الشروط يجب أن تتجه الأَنظار، وبهذه الخصائص الإيمانية تتعلق القلوب. وإليها تهبُّ المواهب المؤمنة لتشقَّ الطريق إلى وعد اللّه.

فإذا رأى المؤمنون بعد سنين وسنين وبعد أَجيال وأَجيال، أَنهم لم يبلغوا الغاية، ولم يصلوا الهدف، فلا يلوموا إلاَّ أنفسهم، ولينظروا في حقيقتهم، وليحاسبوا أَنفسهم قبل أَن يحاسَبوا ويَزِنُوا أعمالهم قبل أَن يوزنوا ....!

لقد مهَّد اللّه للمؤمنين الدرب ليبلغوا الهدف ويصلوا الغاية: لقد جعل

الدرب منيراً ، والأَهداف مشرقة ، بمنهاجه الربَّانيّ - قرآناً وسنَّة -. وبعث الأَنبياء والرسل ليكونوا المثل والقدوة ، وأَنزل الكتاب نوراً وهدى وجعل في تجارب الأَولين وقصص الغابرين عبرة ومثلاً .....، وجعل سنن الكون ثابتة ، مسخرة للمؤمنين ، إذا وعوها ....! وجعل من سننه دَفْعُ اللَّه الناس بعضهم ببعض لمنع الفساد وحماية للمؤمنين ....!

واللَّه يدافع عن الذين آمنوا ....!

وكان اللَّه بالمؤمنين رءوفًا رحيماً ....!

أرسل الرسل بالبيّنات ، وأَنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأَنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ...! وعد المؤمنين ما صدقوا بالحماية ، والدفاع عنهم والنجاة ، والنصْر ، جعل اللَّه النصر من عنده ، لا من عند أحد من الخلق ... رحمة بعباده المؤمنين ، حتى يزدادوا اطمئناناً ، وثقة ، وحسن توكل على اللَّه ...!

جعل الرزق بيده غير مرتبط بأوامر الخلق ، عدلاً منه ورحمة ... وتمضي نعم اللَّه على خلقه كلهم ، وعلى المؤمنين خاصة ، لا تحصى ....

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم : ٣٤)

لقد مهّد اللَّه للمؤمنين الدَّرْب ....! وأَناره لهم ...! وجعل الأَهداف أَمامهم مشرقة ، مجلوَّة ...! فما عليهم إلاَّ أَن :

ينهضوا ويمضوا ...!

يبذلوا ويصدقوا ....!

إننا نبحث في هذا الموضوع : الأُمَّة المؤمنة الواحدة ، التي يعلوها

منهاج اللَّه ، فتكون كلمة اللَّه هي العليا فيها ، فتحمي أرضها ، وديارها ، وثرواتها وثمراتها ، ورجالها وأجيالها ، ثمَّ تمضي تحمل الدّعوة في الأَرض ، لتمتدَّ كلمة اللَّه فتعلوا على كل أَرض ، وفي كل مكان ......، إنَّنا نبحث في هذا الموضوع هنا ، من حيث أنه هدف من أَهداف لقاء المؤمنين . لا نبحث فيه من حيث جميع صفاته ونظامه وأُسسه . ولكننا نعرض بعض ملامح الدرب ، وبعض خصائص الجهد ،.... إلى هذا الهدف ، وفي الحقيقة ، فإنَّ كل ما نعرضه في كتابنا « **لقاء المؤمنين** » الجزء الأول والثاني ، وما يتلو بعد ذلك ، هو من هذه الملامح والخصائص .

وكلٌّ جيل من المؤمنين ، يضع من التفاصيل ما يحتاجه في نهجه وجهده ، على ضوء الواقع البشريّ المتجدّد ، الذي يفهمه من خلال منهاج اللَّه ، لا من خلال أَمانٍ ورغبات ، وعلى أساس إيمانه وتدبّره وعلمه في منهاج اللَّه ، وتظلُّ هذه التفاصيل المتجددة ، تخرج من منهاج اللَّه ، مع كلِّ جيل ، مع كل عصر ، مرتبطة بالواقع البشريّ .

كان من الممكن أَن نضع هذا هو الهدف الثاني بعد الهدف الأَسمى أَو الهدف الأَول من الأَهداف الثابتة . ولكن الدعوة إلى اللَّه ورسوله صلى اللَّه عليه وسلم هدف ماض مع العصور والأَزمان ، لا يتوقف أبداً . وسواء أَنهضت الأُمة ، أم كبت ، فإنَّ الدعوة تمضي ، مع كل ظرف ، مع كل جيل . والأُمَّة تنهض حيناً ، ويمتدُّ سلطانها ، وتضعف حيناً آخر ، ويذهب سلطانُها ، وتمرُّ في أَحوال وأحوال . ولامتداد هدف الدعوة ، ولأَنَّها هدف يمضي إليه لقاء المؤمنين ، سواء أدفعه سلطان أم لم يدفعه ، لهذا كله ، جعلنا الدعوة إلى اللَّه ورسوله صلى اللَّه عليه وسلم هي الهدف الثاني أو الهدف الأَول من الأهداف الثابتة في الترتيب في هذا البحث .

والأُمَّة المؤمنة الواحدة ، التي يعلوها منهاج اللَّه ، إيماناً وعلماً وممارسة ،

هي حاجة البشرية كلها، حاجة الإنسان كله. هي هدف من أهداف لقاء المؤمنين، وخاصة من خصائصه، وحاجة ضرورية للمؤمنين، ولكنها لا تنحصر الحاجة إليها في عصر، أو قوم، أو جيل. إنها حاجة الإنسان.

إنها حاجة الإنسان عندما تقدم له النموذج الحيّ لما يفتقده ويتمناه. عندما تقدم له الحماية والأَمن والرعاية، حماية صادقة، وأَمناً حقيقيّاً، ورعاية ممتدَّة عندما تقدم له الطمأنينة والثقة والاحترام، على إشراقة إيمان، ووضاءة يقين. عندما تقدّم له العدل والحرّيَّة على ميزان دقيق، ميزان منهاج اللَّه ....!

عندما يرى الناس عدالة القانون الذي يحكم الأُمة كلها كبيرها وصغيرها، ودقة القضاء النابع من منهاج ربّانيّ، والعدالة الاجتماعية التي تتجاوز الكتب والمجلات إلى ممارسة واقعيَّة، تلجم أَهواء أهل الهوى، وتقوم على علم وعمل، وصدق وصفاء، عندما يرى الناس عدالة الشرطيّ، ونزاهة الحارس، وقوة الجنديّ، وأَمانة المسئول، صفات ينمّيها الإِيمان والعلم، والرعاية والتوجيه، عندما يرى الناس براعة السياسة الإيمانية، وعزَّة العلاقات الدولية، ونصرة الحق، ومضيّ الدعوة، عندما يرى الناس الرعاية الاقتصادية، وسلامة النظام، ووعي التنفيذ، عندما يرى الناس حقائق تعمل وتنشط، أَكثر مما يسمعون من شعارات وهتافات، وأكثر مما يرون من رايات وزخارف، عندما يرى النَّاس في الأَرض هذه الحقائق، يدفعها الإِسلام، ويحرسها الإيمان، عندما يرى النَّاس أُمّة الإِيمان تقدم هذا كله وكثيراً غيره، في نظام متماسك، وحبل متين، وعهد وميثاق، عندئذ يعرف النَّاس مدى حاجتهم إلى أُمَّة الإيمان. فيقبلون، ويؤمنون، ويضيفون قوة إلى قوة.

عندما بدأ الرسول صلى اللَّه عليه وسلم يدعو إلى دين اللَّه، مضت سنوات عديدة، والمسلمون يزدادون بنسبة ضئيلة. ولقد مضت أربع أو خمس سنين

أَو أكثر ، وعدد المسلمين بين الأربعين والخمسين ، بين رجل وامرأة .

وعندما أعزَّ اللَّه دينه ، وأَنجز وعده ، ونصر عبده ، وقدَّم المؤمنون الإسلام نظاماً يطبَّق في واقع الحياة ، ودعوا إلى إيمان ، يرى الناس حقائق آثاره في الواقع البشريّ ، عند ذلك دخل الناس في دين اللَّه أَفواجاً أفواجاً . واللَّه أعلم بما في قلوبهم ، ومدى صدق إيمان كل إنسان ، ولكن الحقيقة التي نريد أن نؤكدها ، هي أن التطبيق العملي لقواعد الإيمان ، والتنفيذ الصادق لشرائط الإسلام ، والممارسة الأَمينة لدين اللَّه ، ومنهاج اللَّه ، هذا كله أوقع في النفس ، في كثير من الأَحيان ، من كلمة وعظ ، وكلمة إرشاد . وهذا ضروريٌّ ، وذاك ضروريٌّ ، وكل خطوة تدفع الخطوة الأُخرى ، وكل عمل يعين العمل الآخر ، ولكن النموذج التطبيقيَّ يظل أعمق أثراً في النفوس . لذلك كان إقبال الناس على الإسلام بعد فتح مكة أعظم وأوسع ، وربما دخل الإسلام قوم على خوف ، وآخرون ربما جذبتهم روعة النصر ، وغلبة القوة ، ولكنَّ مواقف الإيمان ، التي وقفتها العصبة المؤمنة ، تقودها النبوَّة ، ويُندِّيها الوحي ، كانت مواقف تهزُّ النفوس ، وتجمع القلوب ، وتبرز مقدار حاجة الناس إلى هذا الأَمن والأَمان ، والعدل والقوة ، والنِّظام والالتزام ، والرحمة والعون ، من عصبة مترابطة ، وأُمَّة متماسكة ، يقوم بذمتها أدناها فنزل قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ (النصر : ١ - ٣)

واليوم ، لا تقف حاجة الناس عند حدود عرض نظام الحكم الإسلاميّ ، ولا عند أَنماط النظام الاقتصاديّ الإسلاميّ ، ولا عند عرض مبادئ العدالة

الاجتماعية ...! إنَّ الناس اليوم ، تجابه مشكلات كبيرة ، وأَزمات حادَّة ، ورعب قاتل وقلق عاصف ، إِنَّهم يحتاجون إلى أُمَّة الإِسلام ، لتقدم لهم واقعًا حيّاً ، وممارسة أَمينة ، وعملاً صالحاً ، يقوم هو ليحمل الحجة البيّنة ، والدليل والبرهان ، ليفتح قلوباً مغلقة ، وعيوناً مُسكَّرة ، وآذاناً مسدودة . وستكون النظريَّات ، والأَفكار ، والتصوّرات ، دعماً لواقع ، وتأييداً لجُهد ، وتثبيتاً لدعوة .

إِنَّها مسئولية كلِّ مسلم : مسئوليَّة الموظف البسيط ، والموظف الكبير ، والتاجر ، والمهندس ، والطبيب ، والجنديّ ، ورجل الشرطة ، والحارس ، والخادم ، وكذلك رجل الدولة ، ورجل العلم ، ورجل السياسة ، كل مسلم مسئول ، مسئولية كبيرة ليضع جهده ، حتى يُمثِّل الإسلام ، واقعاً بشريّاً حيّاً ، إِيماناً ، وعقيدة ، ونظاماً ، ونظافة ، وطهارة ، وعبادة ، وسياسة ، واقتصاداً ، ونهجاً ، ودعوة . ليظهر الإسلام واقعاً حيّاً في كلِّ ميادين الحياة . فلا ينخنق في حركات ، وشعارات ، وزوايا محدودة ، لا تتسع كاتساع الإسلام ، ولا تشرق إِشراقة الإيمان ، ولا تمتدّ امتداد الحياة .

ليتقدم الإسلام إلى منابر الأَرض ، إلى المنابر الدوليّة ، إلى جميع الساحات ، ليعلن في قوة وثقة ، عظمة الإيمان ، وعزَّة الإسلام ، وحاجة الإنسان . ليعلن الإسلام هذا ، وخلفه جنود عاملون ، ودعاة مجاهدون . فيسمع الناس الكلمة ، ويرون الواقع ، فيؤمنوا وتخبت له قلوبهم . ليتقدَّم الإسلام إلى كلِّ المنابر ، لا ليعلن عن علمانية ، ولا عن قوميَّة ، ولا عن اشتراكية .

ليتحدَّث الإسلام من أَعلى المنابر ، من كلِّ المنابر ، فيسمع الناس دويَّ الحق ، من حناجر صافية ، صادقة ، قويَّة . ليتقدَّم ، وليتحدَّث ، وليدوّ ، حتى يرى الناس عملاقاً عظيماً ، ولا يرون أَقزاماً صغاراً ، حتى يرى الناس الصوت الثابت ، ولا يرون الشفاه المرتجفة ، والأَيدي المرتعشة ، والأَصوات المخنوقة .

إن العالم ينتظر. إنَّ جميع الخائفين، وجميع الجائعين، وجميع المرضى، والمشوّهين، والثكالى والأيامى، والمظلومين، والمستضعفين، والتائهين، والحائرين، والمتشككين، إنَّ هؤلاء جميعهم، يتلفَّتون وينتظرون، دويَّ الإسلام، وفرحة الإيمان، ونصرة القرآن.

إن ملايين البشر اليوم تعيش تحت نير الديمقراطية، التي زيَّفت للناس كلَّ القيم، وحملت للبشريَّة الدَّمار هنا، والمذابح هناك، والدموع في شتى أنحاء الأرض، والظلم والعدوان، تحت بريق شعارات الحريَّة. وملايين أُخرى تعيش تحت نير الديكتاتورية. تخنقها، تسحقها، تميت الكلمة، والصوت، والحركة... والملايين تسحق تحت أقدام الشيوعية[1].

من يتحرك إلى هؤلاء؟ من ينهض لينصر كلمة اللَّه ودين اللَّه؟ من يحمل المشعل إلى الإنسان لينير له الدرب، والقلب؟ إنَّه لقاء المؤمنين. يمضي لتكون كلمة اللَّه هي العليا.

يتساءل كثير من الناس: لماذا لم يحكم الإسلام ولم تنجح دعوته إلا في عهد النبوة والخلفاء الراشدين فقط. ثم حدثت الفتنة بعد الفتنة وانحراف بعد انحراف؟!

إن هذا السؤال يحمل من المغالطة والتناقض الشيء الكثير إنه يتجاهل حقائق الإسلام وجوهره، ويتجاهل مهمته في الحياة الدنيا وأهدافه

الإسلام هو دين الأَنبياء كلهم. ورسالته ممتدة مع التاريخ البشري منذ نوح عليه السلام، وستظل هذه الرسالة ممتدة إلى يوم القيامة. وسيظل الإسلام، وهو دين اللَّه، يعمل لا يتوقف أبداً يؤدي رسالته في الحياة الدنيا

(١) يراجع كتاب: الشورى لا الديمقراطية. وكتاب ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية. الذي أصبح اسمه: «الشورى وممارستها الإيمانية» في الطبعة الثالثة.

على سنن للّه ماضية وحكمة للّه غالبة . ومهمتنا ومسئوليتنا أن ندرس هذه السنن ونفهمها لا أن نجادل فيها ونعترض عليها . إن السؤال السابق يتجاهل هذه الحقائق كلها ! وانظر إلى حديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو يصور لنا عظمة هذا الامتداد في التاريخ البشري !

فعن أُبي بن كعب رضي اللّه عنه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : « مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها . فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون : لو تمّ موضع هذه اللبنة . فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة »[1] .

والإسلام مع هذا الامتداد في الزمن لم تنحصر مهمته في إقامة دولة فحسب . إن بناء الدولة هدف ثابت من أهداف الإسلام لتكون كلمة اللّه هي العليا في واقع الناس تحكمهم رسالة الإسلام ، إنه هدف ثابت ولكنه ليس الهدف الوحيد . فالهدف الثابت الأول ، والهدف الثابت الممتد مع الزمن هو دعوة الناس إلى الإيمان والتوحيد وبناء حياتهم على أساس ذلك ، وإعدادهم ليتمكنوا من حمل أمانة الدعوة والمضيّ بها في الأرض . ولقد كانت هذه القضية ، قضية الإيمان والتوحيد ، هي مهمة الرسل جميعاً . أما قيام الدولة المسلمة فهو هدف ثابت كي تحمل الدولة المسلمة قضية الإيمان والتوحيد وتمضي بها في الأرض صلاحاً وإعماراً بقوة أشد وعزيمة أمضى ونهج أوسع .

والسؤال السابق يتجاهل هذه الحقيقة الهامة ويحصر مهمة الإسلام في إقامة الدولة فحسب على أيّ صورة كانت إنه يتجاهل أن قضية الإيمان

---

(١) رواه أحمد والترمذي وغيرهما . الفتح الرباني (ج : ٢١) . (ص : ٢٨٣) . وكذلك صحيح الجامع الصغير وزيادته ، (ج : ٥) ، (ص : ٢٠٤) ، (حديث : ٥٧٣٣) .

والتوحيد هي أخطر قضية في حياة كل إنسان ، وأنها أعظم حقيقة في الكون كله . ويتجاهل السؤال كذلك أن أهم قضية في الإسلام هي إخراج الناس من عبادة الأوثان والعباد إلى عبادة اللّه الواحد الأحد ، كما عبَّر عنها المغيرة بن شعبة وربعي بن عامر وهما يدعوان رستماً قائد الفرس إلى الإسلام قبل موقعة القادسية .

ومن هذا التصور نرى أن الإسلام ماض في الأرض والزمن في مهمته وتحقيق أهدافه ، لم يتعطل ولم يفشل ، ولن يتعطل ولن يفشل . فهناك طائفة ظاهرة باقية في الزمن كله تدعو إلى اللّه ورسوله ، ظاهرة على الحق ، لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر اللّه وهم على ذلك .

فعن ثوبان رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أُمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر اللّه وهم كذلك »[1] .

فهناك جنة ونار . وهناك موت وبعث وحساب ، وهنك ثواب وعقاب ، تصبح الدنيا كلها معه دار ابتلاء وتمحيص وتصبح الدنيا دار تزوّد ، ووفاء عهد وأَمانة ، ممرّاً للدار الآخرة . كيف ننسى هذا الميزان الحق في تقدير الأُمور . وبذلك تصبح قضية الدولة هدفاً ثابتاً ليعين في تحقيق الهدف الثابت الأَول وسائر الأهداف الثابتة ، ولتعين الدولة المسلمة على توفير أسباب النجاة في الدنيا والنجاة في الآخرة .

ومن هذا التصور نرى أن الإسلام ظل يعمل أثناء الفتن بعد الخلفاء الراشدين ، وبعدها ، وظلت قوى المؤمنين تصارع في الأرض واعية لحقيقة

(١) مسلم : كتاب (٣٣) ، باب (٥٣) ، حديث (١٩٢٠ ، ١٩٢١ ، ١٩٢٢ ، ١٩٢٣) .

المهمة والأَمانة، وظلَّ منهاج اللّٰه يعمل في فترات كثيرة، ثم أَخذ دورة ينحسر مع الأَيام حتى ضعف وبرز ضعف دوره في واقعنا اليوم.

ففي العهد الأُموي مثلاً، لما جاء عمر بن عبد العزيز استطاع إعادة عهد الخلفاء الراشدين بالرغم من قصر مدة خلافته. ذلك لتوافر حقائق الإسلام في واقع الأُمة مما جعل توافر الخليفة الراشد كافياً لوثبة جديدة رائعة في حياة البشرية كلها.

ومن هنا نرى أن قيام الدولة المسلمة التي يحكمها منهاج اللّٰه في عهد النبوة والخلفاء الراشدين، وفي فترات متقطعة من التاريخ، يوفر لنا الدليل القاطع على نجاح الإسلام لا على فشله، فذلك كله يبين لنا عظمة المنهاج الربَّاني وجلال رسالة الإِسلام، وإِمكانية ممارسة ذلك وتطبيقه في الواقع البشري. فلم يعد الإسلام صورة مثالية بعيدة عن التطبيق كما يريد أصحاب التساؤل السابق أَن يوحوا به ويزخرفوه.

إنِ الإِسلام إذن دين حق له مهمَّة واضحة جلية في واقعِ الإِنسان يمكن إيجازها بالأَهداف الثابتة الستة المعروضة هنا، وبالهدف الأَسمى والأَكبر، وبالأَهداف المرحلية القائمة على منهاج اللّٰه والواقع، على ترابط ذلك كله وتماسكه وتناسقه.

إِن ممارسة منهاجِ اللّٰه في الحياة الدنيا يمثل الأَمانة الحقيقية التي عُرِضَتْ على السموات والأَرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان. وحين يتخلى الإنسان عن الوفاء بهذه الأَمانة العظيمة يصبح ظلوماً جهولاً، يصبح ظالماً لنفسه ولغيره، جاهلاً بحقيقة الأَمانة وعظمتها، شديد الظلم شديد الجهل.

إِن ممارسة منهاج اللَّه في الواقع البِشَري يمثل مع الأَمانة صورة الابتلاء الذي كتبه اللَّه على ابن آدم في هذه الحياة الدنيا . ولذلك كان أَحرى أَن يكون التساؤل لماذا قصَّر المسلمون وهانت الطاقة البشرية عن الوفاء بالأَمانة التي حملتها ؟! بدلاً من أَن يكون التساؤل عن عدم نجاح الإِسلام في ميدان التطبيق ، وكأن أصحاب التساؤل يريدون أن يوحوا بأن الإِسلام لا يصلح للتطبيق فلنتركه !

الإِسلام باقٍ وهو ماضٍ في أداء دوره ومهمته ، وسينتصر الإِسلام ، ولكن الشرف العظيم لمن يستطيع أن ينال حظّاً في نصرة دين اللَّه . إِنه لشرف يهبه اللَّه لمن يشاء من عباده . والدولة الإِسلامية ستقوم حين يأذن اللَّه ويمنّ برحمته على عباده المؤمنين الذين أوفوا بعهدهم مع اللَّه فأوفى اللَّه لهم بعهده ، حين يحقِّقون الأهداف الثابتة الربَّانيَّة في واقع الحياة . فالإِسلام جاء ليس لإِقامة دولة إسلامية فقط ، ولكن جاء ليدعو الناس إلى تحقيق أهداف ربَّانية متماسكة مترابطة أحدها إقامة حكم اللَّه . وأساس هذه الأهداف كلها هي دعوة الناس إلى الإيمان والتوحيد ، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه وحده . ويظل هذا الهدف وسائر الأهداف الثابتة قضية ماضية في حياة الإنسان حتى قيام الساعة . إنها مسئولية الطاقة البشرية ، مسئولية الإنسان على الأرض أن يحقق هذه الأهداف ، ومن بينها إقامة حكم اللَّه في الأرض ، لقد جعلها اللَّه أمانة في عنق الإنسان ، فإذا لم يتحقق الهدف فالعيب والخطأ في الإنسان ، في إيمانه ويقينه ، وعلمه وبذله وجهاده ، والتزامه منهاج اللَّه . إن الخطأ في الإنسان نفسه ، وعليه سيُحاسَب بين يدي اللَّه ، وليس الخطأ في الإسلام ، ولا في منهاج اللَّه ، إنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

إن الإسلام ليس دين طائفة محدودة ، أو قوم محصورين ، أو جيل محدَّد . إنه دين اللّٰه للناس كافَّة ، لخلقه كلهم ، للإنسان في كل مكان وفي كل زمان .

إن الذين يثيرون مثل هذه التساؤلات نَسُوا أن الإسلام هو لهم ، بعث اللّٰه أنبياءه ورسله في كل أُمَّة ، وبعث محمداً صلى اللّٰه عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين للناس كافَّة . فكان أحرى بهم أن يتساءلوا ماذا قدَّموا لنصرة دين اللّٰه وتمكينه في الأرض ، وكيف سيكون مصيرهم حين يحاسَبُون بين يدي اللّٰه يوم القيامة .

إن المؤمن الذي استقرَّ الإيمان في قلبه ووعى حقيقة الإسلام ورسالته في الدنيا ، لا يمكن أن يسأل مثل هذه الأسئلة ، أسئلة الرجل المسترخي اللاهي عن مسئولياته وعن الأمانة التي حمَّلها اللّٰه له ، والتي سيحاسَب عليها يوم القيامة ، وأما اللاهي والغافي فعليه أن يستيقظ أولاً ليحاسب نفسه قبل أن يحاسب غيره وقبل أن يُحاسب دين اللّٰه ! ولينظر في نفسه أولاً وإلى أين يمضي ! إنه ماضٍ إلى يوم عظيم : إلى الساعة فالبعث فالحساب :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾

(الحج : ١)

إن الكثيرين يظنون أن تحقيق أي هدف في الحياة مرهون بالجهد البشريّ وحده معزولاً عن قضية الإيمان والتوحيد ، معزولاً عن أمر اللّٰه . إنهم ينسون أن الأمر كله للّٰه ، وأنه إلى اللّٰه ترجع الأمور ، وأن اللّٰه هو الذي يدبّر الأمر كله ، وأن قضاءه حق عادل لا يظلم شيئًا ولا يظلم أحدًا ولا يظلم أبداً ، وأن دين اللّٰه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

إنهم ينسون أن التمكين في الأرض والاستخلاف والأمن والقوة ، كل ذلك وعد من عند اللّه ، يوفي اللّه بعهده إذا أوفى الناس بعهدهم مع اللّه . إنه وعد حقٌّ لا مرية فيه :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور : ٥٥)

وكذلك :

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ (غافر : ٥١)

وكذلك :

﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس : ١٠٣)

وأخيراً :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (يونس : ٤٤)

إذاً لا يمكن أن تقوم الخلافة إلا إذا تحقّقت أولاً شروط الإيمان والعمل الصالح كما فصّلها منهاج اللّه ورأس ذلك كله : ﴿ **يعبدونني لا يشركون**

بي شيئاً ......﴾ . فحين يرى اللّٰه أن هذه الشروط تحققت في الواقع البشريّ وأوفى الناس بعهدهم مع اللّٰه ، حينئذ ، وفقط حينئذ ، يوفي اللّٰه بعهده لهم ، وتقوم الخلافة وتصبح كلمة اللّٰه هي العليا في واقع الناس يحكمهم دين اللّٰه في كل صغيرة وكبيرة ، وهو عهد ماضٍ مع كلّ الأنبياء والرسل ، والشعوب والأمم ، في جميع العصور حتى تقوم الساعة :

﴿........ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾

(البقرة : ٤٠)

هذا هو عهد اللّٰه ، شروطه مفصّلة في منهاج اللّٰه . وهنالك صيغة أخرى في كتاب اللّٰه لهذا العهد الثابت الماضي مع الزمن كله :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

(التوبة : ١١١)

إذن هو عهد بالتمكين في الحياة الدنيا إذا أوفى العاملون بعهدهم مع اللّٰه وأوفوا بشروط الإيمان والعمل الصالح .

وعهد آخر ممتد مع العهد الأول وهو جزء منه أو أساس له . إنه الوعد بالجنة .

تمكين في الدنيا وجنّة في الآخرة ، أمران لا ينفصل أحدهما عن الآخر في حياة الجماعة والأُمة .

فلينظر العاملون في أنفسهم قبل أن يتساءل أحد منهم . وإن تساءل فليتساءل لماذا قصَّر وأخلف واسترخى ؟

فتصبح الخلافة بذلك مرحلة على الطريق إلى الجنة . والوفاء بعهد اللَّه هو الوفاء بالأهداف الربانية جميعها ، على تتابعها وترابطها وتماسكها ، لا بجزء منها .

هذه الأهداف الثابتة الستة ترسم الدرب والمراحل والأهداف ، ليتضح لنا معنى الآية الكريم :

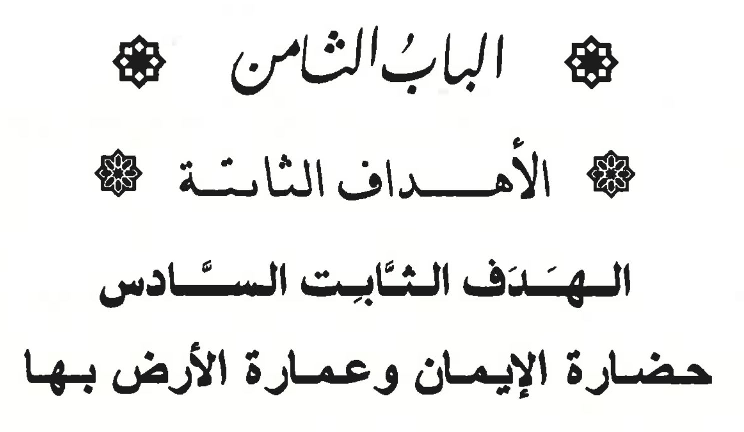
﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(الأنعام : ١٥٣)

فالصراط المستقيم بيَّنه وحدّده اللَّه ، وحدَّد منطلقه واتجاهه ومراحله ، وحدَّد له الهدف الأكبر والأسمى .

(إن هذا الصراط المستقيم) بكل تفضيلاته في منهاج اللَّه هو النهج الذي ندعو إليه . وإنزاله في ممارسة إيمانية في الواقع البشري ، هو التخطيط الذي يشمل الأهداف المرحلية والأساليب والوسائل المتوافرة مع كل واقع .

* * *



الباب الثامن

الأهداف الثابتة

الهدف الثابت السادس

حضارة الإيمان وعمارة الأرض بها

الباب الثامن

الهدف الثابت السادس

حضارة الإيمان وعمارة الأرض بها

درج الناس على استعمال كلمة « حضارة » لتدلّ على رقيّ الإنسان ، وتقدُّمه ، مع ظلال كثيرة ، تختلف من حال إلى حال . ورأينا أن نستخدم هذه الكلمة ذاتها ، بعد أن أَلفها الناس ، وشاعت بينهم .

إِننا نعبّر بهذه الكلمة « حضارة الإيمان » عن هدف عظيم من أَهداف لقاء المؤمنين . إِنَّه هدفٌ تخلَّفنا عنه في واقعنا اليوم ، وانحرف المسار الذي نحاول أَن ننطلق فيه ، وقد خدعتنا زخارف الغرب والشرق ، وغرَّنا بريق خُلَّب ، وشدَّتنا زهوة الشيطان .

وفي اللغة :

الحَضَرُ ، والحَضْرَة ، والحَاضِرَة ، والحَضَارَة بكسر الحاء عن أبي زيد ، وبالفتح عن الأَصمعيّ : خِلاف البادية البَدَاوَة ، والبَدْو .

والحِضَارَةُ ، والحَضارَة : الإقامة في الحَضَر .

والحاضِرَةُ ، والحضَرَة ، والحَضَرُ : هي المدن والقرى والريف . سُمّيتْ بذلك لأَنَّ أَهلها حضروا الأَمصار ومساكن الدّيار التي يكون لهم بها قرار .

وقد غلب في الاستعمال اليوم فتح الحاء في كلمة الحَضارَة . ومن هذا الأَساس ، أَصبحت كلمة « الحَضَارَة » تحمل ظلال الرّقي والتقدّم ، في حياة الإنسان .

إنَّ باب الرقيّ الماديّ والتقدّم الفنّيّ ، مفتوح للإنسان ، للنَّاس كافَّة على سنن ربَّانيَّة ، ماضية في الحياة . إنَّ هذا الميدان مفتوح للمؤمن ، كما هو مفتوح للكافر . وتبلغ كلُّ أُمَّة من ذلك على قدر ما تبذل من جهد ، وما تحمل من طاقة ، على سنن ربَّانية في الحياة . إنَّ الرّقيَّ الماديَّ لا يقتصر على عقيدة ، ولا ينحصر في جنس ، ولا ينخنق في أرض . إنه باب مفتوح للجميع ، لجميع الناس ، على قدر جهدهم وبذلهم وسعيهم ، وعلى قدر ما يكتب اللَّه لمن يريد :

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾

(الإسراء : ١٨- ٢٠)

وإذا نظرنا في التاريخ لرأينا أنَّ كلَّ أُمة بلغت شأواً في الحضارة المادّية ، حتى إذا جاء أجلهم مضوا ، ولكل أمَّة أجل :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

(الأعراف : ٣٤)

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (يونس : ٤٩)

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ (الحجر : ٤، ٥)

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٤٢، ٤٣)

فهذه سنَّة اللَّه ماضية في الأُمم، كما هي ماضية في الأَفراد. إنها سنَّة اللَّه ولن تجد لسُنَّة اللَّه تبديلاً ولا تحويلاً. ولقد مضى قوم نوح، وانقرضت حضارتهم وكذلك عاد وثمود، وقوم لوط، ومدين، وفرعون، ومن قبلهم، ومن بعدهم. مضوا جميعهم وعفّى الزمن على حضارتهم. وطوتهم الأَرض.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴾ (مريم: ٩٨)

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج: ٤٥، ٤٦)

هذه هي الحضارة الماديَّة في الأَرض تصبح بعد حين: قرية خاوية على عروشها، وبئر معطلة، وقصر مشيد. ولقد وصف القرآن الكريم مظاهر من بعض هذه الحضارات السابقة.

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف: ٧٤)

وهكذا شأن روسيا، وأمريكا، وانكلترا، وفرنسا، وإيطاليا، وألمانيا، وسائر دول الغرب والشرق، لكلّ أُمَّة أَجل. لا يعطّل سنَّة اللَّه ناطحات سحاب، ولا طائرات، ولا أقمار صناعيَّة، ولا غير ذلك من مظاهر الحضارة الماديَّة، أو مظاهر البطش والعدوان. وكلّ أُمَّة يطويها الزمن، وتصبح تاريخاً ينساه من ينسى ويعتبر به من يعتبر. ولكنَّ الأُمَّة التي طُويتْ، إذا غاب ذكرها في الدنيا، واندثرت حضارتها، فإنها لن تُفلِتَ من يوم القيامة، ولا من حساب اللَّه، حساب العزيز القهّار، القويّ الجبّار.

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الجاثية: ٢٤ - ٢٩)

نعم ....! إنَّه الحقّ .....! وترى كلَّ أُمَّة جاثية ....! تدعى إلى كتابها إنه يوم الحساب الذي لم يحسبوا له حساباً في الحياة الدنيا، وظنّوا أَن الأَمر ينتهي بموتهم: «**وما يهلكنا إلا الدهر**» وظنُّوا، بناءً على ذلك، أن عتُوهم، وظلمهم، وجرائمهم، وفسادهم في الأَرض، وأَكل أَموال الناس، وقتل الأَبرياء بغير حق ......، ظنُّوا أَنَّ ذلك كله انطوى، وأَنْ لا

حساب عليه . ظنُّوا ذلك ، ونَسُوا أنَّ اللَّه سبحانه وتعالى قال :

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (القيامة : ٣٦)

ولقد قال « هيراقليط » اليونانيّ قديماً قولاً مثل هذا القول : **« ما يهلكنا إلا الدهر .....»** . إنه الكبر والغرور ، والظنّ والتخمين ، عندما يستقرّ في قلب إنسان ، فيحسبه حقّاً وهو ضلال ، ويحسبه علماً وهو ظن .

هذه الحضارة الماديَّة الكافرة ، الحضارة التي قطعت صلتها باللَّه تحت هذا الادعاء أَو ذاك ، لا تمثل في حقيقة الأَمر أَصلاً صادقاً من أُصول حضارة الإنسان ، ولا تمثل الخط التاريخيّ الممتدّ بقواعده وأُسسه . إنها سنَّة اللَّه التي أرادها لتكون هذه الحضارة باباً من أبواب الابتلاء والتمحيص ، والاختبار والتبين ، لتقوم الحجَّة بعد الحجَّة ، والبرهان بعد البرهان ، على الإنسان ، على الأُمم ...! هذه الحضارة الماديَّة ، بكل ما فيها من زخرف ومتاع هي إلى زوال . إنها تؤدّي مهمتها حسب سنن اللَّه الغالبة . ولكنا لا نعني أَنها لا وزن لها في حياة الإنسان ، في هذه الدنيا . فهي مع كونها باباً من أَبواب الابتلاء والتمحيص ، على سنَّة للَّه غالبة ماضية ، فهي كذلك قوَّة مادّية للإنسان ، ينصر بها كلمة الحق ، أو يدافع عن باطل مهزوم .
ويصف القرآن الكريم هذه الحضارة وصفاً دقيقاً :

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (الزخرف : ٢٣ - ٢٥)

ثم إن هذه الحَضارة هي حضارة الشيطان، بعد أَن نسي الإنسان ذكر ربّه فتمضي الآيات في سورة الزخرف لتثبّت هذه الحقيقة :

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ (الزخرف : ٣٦ - ٣٨)

ثم تمضي الآيات لتحدِّد مصير أَصحاب هذه الحضارة المادية الكافرة . إنَّ الحضارة ذاتها اندثرت ، وقامت أُمّةٌ أخرى لتُمحّص وتُبتَلى . ويظلّ حساب هذه الأُمة أو تلك عند اللَّه :

﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾ (الزخرف : ٣٩ - ٤٢)

ثم تمضي الآيات لتبينّ أَساس حضارة الإيمان ، وإشراقة الحق مع ذكر الرحمن . ولتؤكد التحذير من يوم الحساب ، وتقارن وتقابل .

﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ (الزخرف : ٤٣ - ٤٥)

حضارة الكفر مهما عظم أَمرها ، مهما أعطت للإنسان ، مهما زخرفت من قصور ورياش ، ومال وثراء ، وعلم وفنّ ، وطائرات وسيارات ،

ومعدَّات وأَدوات، مهما أَعطت فإنها تحمل في ثناياها جذور هلاكها وتدميرها، وبذور تمزّقها وضياعها، وعناصر اندثارها وغيابها. ويحسب الكافرون جهلاً أَنهم مهتدون، يحسبون ذلك غروراً وكبراً. إنها حضارة لا تثبت لها جذور. إنها دائمة التحوّل في صراع وخوف وقلق. إنها مهما أَعطت، فلن تعطي للإنسان سلامة فطرته، ولن تحفظ عليه كرامته وإنسانيّته التي كرّمه اللَّه بها، ولن تحفظ عليه أَمنه وهناءته. إنَّها تنزع من نفسه الخير الأَصيل، والبركة النامية. إنها تخدر حسَّه بالشهوة الملتهبة، والرغبة المتقيحة، حتى أَماتت أَصالته وحسَّه وشعوره. وقتلت فطرته وبركته وخيره.

إنها حضارة الشيطان. إنه قرين لها، مرتبط بها، يغذيها، وينميّها، وهي تصدُّ عن سبيل اللَّه، منفصلة عن الآخرة، مبتوتة الصلة بالحق واليقين. يطويها ظلام الوهم، وعَتَمة الظن. إنها تمزّق صلات الإنسان، وتقطع الأَرحام والجوَار والقُرْبى، والأُبوة والأُمومة، والعهود والمواثيق. فيها يتمزَّق الإنسان نفسُه، وتُسحق فطرتُه، وتُداس قيمه.

إنها حضارة الخوف والقلق. الطائرات التي تُفجّر الأَرض براكين، والدبابات التي تسحق الشواهق والناطحات، والقنابل التي تحرق الأَرض والخلق، والدخان الذي يَسدُّ الأُفق. إنها حضارة تقتل نفسها: تبني العمائر ثم تهدمها، وتربي الأَجيال ثم تذبحها، وتزرع الأَرض ثمَّ تحرقها. إنها تحمل معها بذور موتها وفنائها. إنها حضارة النجوى والكواليس، وارتباط الإنسان بإبليس، في عفن المؤامرات والخيانة، ودنس الشهوة والرَّذيلة، والظلم والعدوان، والعتوّ والإجرام.

هذه الحضارة ليست هدف لقاء المؤمنين. إنَّ هدف لقاء المؤمنين أَن

يمضي مع حضارة الإنسان الأَصيلة الممتدَّة في التاريخ، الحضارة التي حملها الرُّسل والأنبياء، وابتدأت مع آدم عليه السلام. ابتدأت معه بالعلم في الجنَّة: «**وعلَّم آدم الأسماء كلها .....**». وامتدَّ العلم مع هذه الحضارة الإيمانيَّة لا ينفصل عنها أبداً: «**واتقوا اللّه ويعلمكم اللّه ..**»، «**ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ....**»، «**الذي علَّم الإنسان ما لم يعلم**»، «**الرحمن. علَّم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان**».

ابتدأت شعلتها هناك في الجنَّة، وامتدت بركتها إلى الأرض، يَرعاها الرحمن، ويحنو عليها الأنبياء، ويغذيها الدعاة الصادقون، والمؤمنون العاملون.

إنها حضارة مرتبطة بالإيمان باللّه ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر. حضارة مرتبطة بمنهاج اللّه.

﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(الزخرف: ٤٣)

إنها مرتبطة برسالة اللّه إلى أنبيائه كلهم:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

(الزخرف: ٤٥)

ولقد ظلت الرسالة الربانيَّة، مع كلَّ أُمَّة، تبني حضارة الإنسان الأصلية، على أُسس ربَّانيَّة ثابتة:

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

(يونس: ٤٧)

إنها حضارة القسط ، لا ظلم فيه . فالظلم حرام ، حرَّمه اللَّه على نفسه وجعله محرَّماً بين بني آدم . ولقد بعث اللَّه الرسل ، في كلِّ أُمّة رسولاً ، ليثبّت حقيقة التوحيد ، وليقوم جهد الإنسان على أساس من هذا التوحيد :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

(النحل : ٣٦)

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (المؤمنون : ٤٤)

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

(فاطر : ٢٤)

منذ آدم عليه السلام ، والأنبياء والرسل عليهم السلام يتوالون في كلّ أُمّة في الأرض . علمنا بعضهم ممن سمّاهم اللَّه في كتابه العزيز . وجهلنا بعضهم الآخر :

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ (النساء : ١٦٤)

وتوالت الرسل ، ومضت رسالة اللَّه في الأرض ، ومضى المؤمنون العاملون في الأرض ، مع رسالة اللَّه ، يعمرون الأرض ، ويؤدون الأمانة ، ويوفون بحقّ الخلافة ، ويعبدون اللَّه .

لقد سبق أن ذكرنا في كتاب **« الشورى وممارستها الإيمانية »**، وفي

كتاب « **لقاء المؤمنين** » الجزء الأول ، أن اللّه سبحانه وتعالى بيَّن لنا مهمَّة الإنسان في الأَرض في كتابه العزيز . وأوجزنا ذلك بكلمات نعيدها هنا للتأكيد والتذكير ، دون ذكر الآيات ، فقد سبق ذكرها : العبادة ، الأَمانة ، الاستخلاف ، ذلك من خلال الابتلاء ، إنَّ هذه التعابير القرآنية تعطي ظلالاً ممتدَّة تجمعها كلُّها كلمة « العبادة » . فالمؤمنون يمضون في الأَرض في كلِّ عملهم : أداء عبادة اللّه ، ووفاء بالأَمانة التي حملوها ، وقياماً بالاستخلاف الذي أُنيط بهم ، ليقيموا أمر اللّه في الأَرض وحكمه ، على أساس من المنهاج الربَّاني الذي نزل به الوحي . ومن خلال ذلك يتمُّ الابتلاء ، ليبلوا اللّه عباده أَيُّهم أَحسن عملاً . ونضيف إلى هذا التصور لمهمَّة الإنسان ، مهمَّة العَمَارة والعُمران ، والحضارة والبنيان :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (هود : ٦١)

وفي اللغة أَعْمَرَه المكان واستعمره فيه : جعله يَعْمُرُه . في هذه الآية الكريمة : « .... **واستعمركم فيها** .... » ، أي أذن لكم في عِمَارتها ، واستخراج قوتكم منها ، وجعلكم اللّه عُمَّارَها . والأَساس : استعمر عباده في الأَرض : طلب منهم العِمَارة فيها[1] .

فالإنسان يَعْمُرُ الأَرض بسعيه وجهده . وعُمران المؤمنين يتمُّ من خلال العبادة والأَمانة والاستخلاف والابتلاء . وتظل هذه الخصائص الأَربعة ملازمة لعُمران المؤمنين للأَرض ، وعمارتهم لها ، ملازمة لحضارة الإيمان .

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس للزّبيدي .

إنها قواعد ربَّانية فصَّلها منهاج اللّه، ليقوم عليها جهد الإنسان المؤمن، ولتحوطه، وتدفعه في موكب النور، ومجرى الخير، وفيض البركة.

ويمضي لقاء المؤمنين، وعمَّار الأَرض، على نهج ربَّانيّ، يقيمون عمارة الإيمان، وحضارة الإيمان، جهداً متصلاً، وعطاء متواصلاً، وبناء متماسكاً، يقيمه الرسل والأَنبياء، ومعهم جند الإيمان وعباد الرحمن. ثمَّ ختمت الرسالة الربَّانيَّة بمحمد صلى اللّه عليه وسلم، خاتم النبيين. ويصف الرسول صلى اللّه عليه وسلم لنا هذا الجهد والعطاء والبناء أجمل وصف وأدقه، ويصف تماسكه وترابطه واتصاله أعمق وصف:

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أنَّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: « مَثَلي ومَثَل الأَنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأَجمله، إلَّا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون ويعجبون له ويقولون: هلَّا وُضِعَتْ هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».

(رواه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد)[1]

هذا البناء البديع الذي بناه المرسلون، وأتمَّه محمد صلى اللّه عليه وسلم، هذا البناء، عليه تقوم حضارة الإيمان وعمارة الإسلام، وسعادة الإنسان. إنها حضارة نامية متصلة، عميقة في أَغوار التاريخ، ممتدَّة بأَنوارها إلى المستقبل، لا تنقطع. إنَّها حضارة الخير والبركة، والطهر والنماء، وما ينفع الناس. وما عدا ذلك فيذهب جفاء:

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ

(١) البخاري فتح الباري: كتاب ، مسلم: كتاب الفضائل (٤٣). باب (٧). حديث (٢٢٨٦)، أحمد: المسند (٢/ ٢٥٦، ٣١٢، ٣٩٨)، (٣/٣٦١)، الفتح (٢١/٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥)، صحيح الجامع الصغير وزيادته (ج٥/ ص٢٠٤) حديث (٥٧٣٣).

وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (الرعد : ١٧)

عمارة الإيمان ، بركة وخير ، تنفع الناس ، فتمكث في الأرض . والكفر زبد ، وأما الزبد فيذهب جُفاء .

والخير الماديُّ ، والبركة في الرزق ، والنماء في العطاء ، وعد من اللّٰه سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين ، إذا آمنوا واتقوا ، إذا ارتبط جهدهم ، وقام سعيهم ، على بناء النبوَّة ، على المنهاج الربَّانيّ . والخير في الرزق يتصل هذا الاتصال بالإيمان والتقوى ، ليظلَّ طاهرًا ينفع الناس ، فيمكث في الأرض :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

(الأعراف : ٩٦)

وكذلك ، فإن الخير ممتدٌّ متصل في الأَرض ، رحمة من اللّٰه بخلقه ، حين ظلَّت بقية من القرون الغابرة ، صابرة تحمل دعوة اللّٰه ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . وما كان اللّٰه ليهلك القرى وهي تدعو إلى الخير والصلاح ، فتمتد عصبة الإيمان مع التاريخ ، تمدُّ حضارة الإيمان :

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (هود : ١١٦ ، ١١٧)

إنَّ اللّٰه سبحانه وتعالى ، خلق عباده ، وبسط لهم الأرض ، ومدَّ لهم

السبل، ورزقهم من الطيبات، وأمرهم بالسعي والعمل والجد:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (الملك: ١٥)

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (طه: ٥٣- ٥٥)

فخلق الله الإنسان وهيَّأه لهذا السعي في الأَرض، وخلق الأَرض وهيأها لسعي الإنسان، وسخَّر الله له ما في السموات وما في الأَرض، ليطوف الإنسان بالكون، ساعياً بأمر الله، عابداً له، يوفي بالأمانة، ويؤدي حق الاستخلاف، ويقوم بالعمارة، يبلوه الله، ثم يمضي إلى جنَّة أَو إلى نار. فأمَّا الجنَّة فبرحمة من الله، وأَما النار فلمن حقَّت عليه كلمة العذاب.

﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (لقمان: ٢٠ - ٢٢)

« .... سخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض ...» بهذا الامتداد والاتساع ، يمتدُّ جهد الإنسان وسعيه ، خلافته وعمارته ، فكره وتأمله :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (آل عمران : ١٩٠ - ١٩١)

هذا هو سعي الإنسان في الأَرض ، وهذا هو أَساسه . وهذا هو ميدانه : السموات والأَرض ، وهذه طبيعته : سعْيٌ وجهْدٌ فيما سخَّر الله له ، وتأَمُّلٌ وتفكُّرٌ ، ونظرٌ وتدبُّرٌ .

وهو كذلك سير في الأَرض ونظر :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (غافر : ٨٢)

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (العنكبوت : ٢٠)

فهذا السير سير علم ونظر ، سير دراسة واعتبار ، سير بَحْث واختبار ، حتى يرى الإنسان آيات الله وسننه ، في بدء الخلق .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ

يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ (الحج: ٤٦)

فالسير في الأرض إذن لقلوب تعقل، وآذان تسمع، وعيون تبصر، فتظلّ الآيات البيّنات والسنن الثابتة، تقرع القلب والأُذن، ليظلَّ الإنسان على هدى ونور، يدفع عمارة الإيمان، ومنهاج الإحسان.

ويتكرر ويتأكد أَمر اللَّه للناس بالسير في الأَرض، ليكون هذا السير عنصراً مذكِّراً، وقوَّة دافعة، ومصدر علم وتجربة، يستفيد بها الإنسان لبناء حضارة الإيمان. يتكرر هذا الأمر، ويرتبط كلَّ مرَّة بصورة جديدة، تؤكد أَو تعطي ظلّاً جديداً يتكرَّر في سور: يوسف، والروم، وفاطر، وآل عمران، ومحمد، والنحل، والنمل، والأَنعام، وغيرها.

بهذا السعي المبارك، في ظلال الإيمان، وأَفياء اليقين، تنهض العمارة والحضارة، ويمضي الجهد والبذل، ويعلو البناء والصرح. بهذا السعي تنشأ العلوم الدنيوية: علم فلك، وهندسة، وجيولوجيا، وعلم اجتماع، وعلم نفس، وعلم اقتصاد، والتاريخ والجغرافيا، وسائر ما عرفه الإنسان من علوم، علماً علماً، وسائر ما سيعرفه. وحتى تقوم الحجة على الإنسان، وعده اللَّه بأن يُريَه آياته في الآفاق وفي «أنفسهم»، حتى تظل آيات اللَّه مشرقة أَمام الإنسان تدعوه إلى الإيمان والحق:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصّلت: ٥٣)

وهكذا تظلّ الآيات الكريمة تمدّ من ميدان السعي والعمل، والتأمل والتفكر، والدراسة والبحث، والنظر والتدبُّر. إنها ميادين واسعة، ممتدة في

السموات والأَرض، وفي الإنسان نفسه، وفي الأنعام، والنبات، والأشجار، والرياح والأَمطار، وكلٌّ صغيرة وكبيرة في هذا الكون. ومهما امتدَّ سعيُ الإنسان، وتأمله وتفكيره، فإن المؤمنين يخشعون ويقولون:

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

(آل عمران: ١٩١)

ذلك أَنَّه رأى الآيات البيِّنات، رأى سنن اللَّه الثابتة، التي لا تتحوَّل، ولا تتبدَّل. إِنها سنن ثابتة، جعلها اللَّه ثابتة رحمة بعباده، ولطفاً بخلقه. جعل ثباتها عنصراً من عناصر التهيئة المتكاملة، حتى يستطيع المؤمن أن يقوم بحق العبادة للَّه، وأداء الأَمانة، وواجب الخلافة، والوفاء بالعهد الذي أَخذه اللَّه عليه، والسعي في الأَرض عمارة وعمراناً، وحضارة ونموّاً. ولولا هذه السنن الثابتة ما قام ذلك كله.

هذه هي معالم حضاة الإيمان، وهذه أُسسها وقواعدها، وهذا هو نهجها ودربها، وهذه هي أَهدافها وغاياتها.

المؤمنون أَولى الناس ببلوغ ما بلغه الإنسان اليوم من صناعة، وعلم وتقدّم: طائرات وأَقمار صناعية، وسائل إعلام ووسائل اتصال، طرق وموانئ، سفن وبواخر، حديد فيه بأس شديد، إن المؤمنين هم أولى الناس بهذا:

لأنهم هم أولى من يجب أَن يعرف مهمته، ويعرف واجب السعي والتأمل والتدبر، وعمارة الأَرض، وارتياد الفضاء.

ولأَن هذه الحضارة في يد المؤمنين الصادقين خير للناس كافَّة، ينقطع عنها الظلم والعدوان والفساد في الأَرض.

ولأَن هذه القوة ضرورة للدعوة، ولنصرة كلمة اللّٰه. فبلوغها عبادة وطاعة.

فهذه الحضارة الإيمانية بهذا التصوّر القرآني، هدف من أَهداف لقاء المؤمنين، يجتمع مع سائر الأَهداف المرحلية، فيُحقّق هدفاً من الأَهداف الثابتة على درب مشرق كريم، ممتد إلى هناك.. إلى الجنَّة، تصحبه الأهداف الثابتة السابقة كلها.

إن الأُمَّة المؤمنة المجاهدة، الأُمَّة التي يحكمها منهاج اللّٰه، الأُمَّة الواحدة التي تكون فيها كلمة اللّٰه هي العليا، هذه الأُمَّة هي أُمَّة عظيمة، أُمَّة واحدة، أُمَّة ممتدَّة مع التاريخ، مع رسالتها. هي أعمق في التاريخ من أيّ أُمَّة، وهي تحمل أَعظم رسالة، وتجاهد أَكرم جهاد. هذه الأُمَّة هي وحدها التي تستطيع حمل أَمانة العمارة والعمران، والحضارة والبنيان، ورسالة الإسلام إلى الناس إيماناً وعلماً. هذه الأُمة وهي تحمل الحضارة، إنما تحمل واجباً وتؤدي عبادة، وتوفي بأمانة، وتصدُق باستخلاف. فتصبح الحضارة ماضية في حياتها جزءاً من دعوتها ورسالتها، وتصبح الحضارة باباً من أبواب الجهاد في سبيل اللّٰه، باباً يحمل الدَّعوة إلى اللّٰه ورسوله صلى اللّٰه عليه وسلم، مع بركة الخير، ونعمة الرزق، يحوطه كله نور الهداية والإيمان.

إنَّه نعم الهدف ....! نعمت الحضارة ....! في ظل جهاد أَخضر مورق. وكأَنَّ الحضارة هي لون من خضرة الجهاد في الدنيا، ورزق من ينعه وحصاده. طاب الجهاد، وطابَ الحصاد، على طريق الجنة.

إنَّ هذا الهدف الثابت، يحمله كلُّ مؤمن في الأَرض، ليرى عظمة مهمته، وخطورة رسالته، في حياة الإنسان، في حياة الناس كافَّة. يرى

عظمة رسالته ، وعمق امتداد جذورها في تاريخ الإنسان ، وسموٌّ امتداد فروعها في مستقبل الإنسان ، فلا يجد أُمَّة في الأَرض كلها ، في التاريخ كله ، أعظم من أُمَّة الإسلام ، ولا نسباً أكرم من هذا النسب .

وهو بذلك يرى أن مهمته ، حين تنصهر في أُمَّة التوحيد ، تصبح هي الأُمَّة التي تقدّم الخير محض الخير ، والهناءة محضَ الهناءة ، والإعمار الكريم ، والعلم المتفتح ، وتعارف الشعوب كما أمر به اللَّه .... فإذا أُمَّة الإسلام تنقذ البشريَّة من وهدتها ، وترفعها من سقطتها ، وتقودها إلى نور وبركة وخير .

إنها الأُمَّة التي تحمل العدالة للناس جميعهم ، على ميزان ربَّانيّ عظيم . إنها تحمل الغنيَّ والفقير ، والقويّ والضعيف ، في نور الإيمان فيحمي الفقير والضعيف برحمة جارية في الأُمَّة ، وأمر عادل من اللّه ، لا يطغى فيه أحد على أحد . لا ظلم فيه .... إن الظلم حرام ..، حرَّمه اللَّه على نفسه ، وجعله محرّماً بين عباده ...!

عندما ينطلق لقاء المؤمنين في أُمَّة واحدة تعبد ربّاً واحداً ، ينطلق لا ليقيم مظاهر الحياة الدنيا وحدها فحسب : من شاهقات العمائر ، وفارهات السيَّارات ، ووسائل الاتصال ، وعظيم الطائرات ، وغير ذلك من نعيم دنيوي ، وقوَّة ماديَّة . إن الحضارة إذا اقتصرت على هذا البهرج والزخرف فإنها - كما سبق وذكرنا قبل صفحات - حضارة تقتل نفسها ، وتهدم بنيانها ، وتنقض أسسها ، وتذبح أبناءها . إن لقاء المؤمنين حين ينطلق إلى هذا الهدف الثابت العظيم - حضارة الإيمان والإعمار - يرفع المنشآت ويدفع الصناعات ، وينمّي الغراس ، ويغذّي العلم والبحث ، والتأمل والتدبّر ، والسعي والإنتاج ، وكل ما نراه من زهوة العلم وزهرة الدأب ، ويدفع مع هذا كله جوهر الحضارة ، وأصالة الرّقي ، وطهارة السعي ،

وجمال الخلق والقيم، وبهاء الأمن والطمأنينة، وحلاوة العدل، وقوّة الرأي، وطيب الكلمة، وعروة الأُخوَّة في اللّه، وحنان الرحم الموصول، وبرّ القربى، ورحمة الإنسان بالإنسان، ذلك كله على نظام متماسك، وإدارة تتفاعل، ونهج مشرق. تلتقي هذه كلها لتُصهَرَ في بوتقة واحدة، حتى تتماسك أجزاؤها تماسكاً قويّاً متيناً، ولتصبح جوهراً واحداً لا يتفتَّت تحت ضربات معاول الظلم والعدوان، والهوى والضلال، والفتنة والغيّ.

إنَّ هذه الحضارة المتماسكة هي حضارة الإيمان وإعمارها، لا ينفصل جزء منها، ولا تنهار لتفنى. ولكنَّها تمضي مع حياة الإنسان خطاً واحداً ثابتاً في تاريخ البشريَّة، بدأت بالنبوة ومضت مع النبوَّة في التاريخ، حتى خُتِمَت النبوَّةُ بمحمّد صلى اللّه عليه وسلم، فحملها المؤمنون في الأَرض واجباً لا انفكاك عنه. وسيمضون بها على عهدهم مع اللّه، حتى يرث اللّه الأرض ومن عليها.

وبغير هذا التكامل والتناسق في معنى الحضارة والإعمار، تصبح مظاهر الحضارة المادية كلها بناء هشّاً، وجمعاً تذروه الرياح.

إن قطع «جوهر الحضارة» هو قتل للحضارة وإضاعة لكلّ خيرها، حين تصبح «**الحضارة**» عملاً مادياً خالياً من الروح، جامداً خالياً من الحياة، واهياً خالياً من القوّة. مثلها كمثل التي تنقض غزلها من بعد قوّة أنكاثاً، وتصبح الأُمم بعد ذلك في صراع وتحاسد، كل أمة تسعى أن تكون أربى من غيرها. ولنستمع إلى هذه الآيات الكريمة من سورة النحل ترسي قواعد حضارة الإيمان، وتبيّن جوهر الإعمار:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ

عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

(النحل : ٩٠ - ٩٢)

وتمضي الآيات الكريمة في سورة النحل، وفي غيرها، لتثبّت هذه الأسس والقواعد، وتفصّلها، وتبيّنها. فالأساس إذن عدل وإحسان وإنفاق، وصلة قربى ووفاء عهد. وكلّ قاعدة من هذه القواعد لا تبقى على عمومها، ولكنَّ منهاج اللّه يفصّل قواعد العدل والإحسان والإنفاق، وصلة القربى والوفاء بالعهود، حتى تسهل الممارسة ويستقيم السبيل. ولا تقوم هذه القواعد إلا بالمؤمنين الصادقين، والعاملين المجاهدين. هؤلاء فقط هم الذين يعمرون المساجد، ويعمرون الأرض بالخير والنور والبركة. يعمرون مساجد اللّه ليتزوّدوا بالخير والنور، والعلم والبركة. ثمّ يخرجون بهذا الزاد المبارك، والخير العظيم ليعمروا الأرض، ويقيموا حضارة الإيمان. وأما الكافرون فما كان لهم أن يعمروا مساجد اللّه وهم كفار، فلا يتزوّدون إذن بزاد المؤمنين. فإذا ساروا في الأرض ساروا ينشرون الفتنة والفساد، يهدمون ما بنوا، ويفسدون ما صنعوا، فحبطت أعمالهم وخلدوا في النّار.

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم

بِٱلْكُفْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ١٧ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾

(التوبة : ١٧ ، ١٨)

فهذه خصائص الإعمار ، وقواعد البنيان ، وأسس الحضارة : إيمان بالله واليوم الآخر ، وإقامة الصلاة وسائر الشعائر ، وإنفاق في سبيل الله أهمه إيتاء الزكاة ، وثبات على الحق لا يتزعزع ، وأمن وطمأنينة ، حتى لا يخشى المؤمن أحداً إلا الله ، وعمارة المساجد وارتباط بها . هؤلاء الذين يحملون هذه الخصائص هم القادرون على حمل الأمانة والقيام بالعبادة ، وواجبات الاستخلاف على ابتلاء وتمحيص . هؤلاء عُمّار الأرض ومقيمو الحضارة ، وناشرو الخير والأمن والطمأنينة .

إن حضارة الإيمان أُمنية المحرومين في الأَرض ، والمظلومين . إنها أمنية كلِّ إنسان يحب الحقَّ والخير والنّور . إنها حاجة الناس كافَّة ، وهي حاجة ملحَّة للبشريَّة الغارقة في بحار الدماء ، وأمواج المصالح والأهواء . إنها سبيل النجاة لمن سحقتهم النظم المتعددة في الأرض ، بين بريق خادع وشعاع كاذب .

إنَّ حضارة الإيمان هي التي ترعى حقوق الإنسان الصادقة ، لأنها هي القادرة على ذلك ، المتمكنة من ثباتها ، القويَّة في تكاملها وتناسقها ، إنها ترعى حقوق الإنسان لأنها هي حضارة الإنسان المؤمن ، حضارة الإنسان الذي يصون ما يبني ، ويحفظ ما يقيم ويحمي ما يملك . إنها حضارة الإيمان ، فهي حضارة الناس كافَّة ، على بركة وخير ، ورعاية دائمة من الله

سبحانه وتعالى.

حقوق الإنسان ....! كم تغنَّى بها المدَّعون، ورقص لها المخمورون، ودفعوها للنَّاس من عفن الظلمة شعارات لا تجد أيّ رصيد لها في الواقع. مئات الآلاف يموتون جوعاً في كثير من البلاد، واحتفالات المتخمين تُدَوِّي على جثث الموتى، وترقص على أنين الشكوى، يظلل ذلك ما تسمع من شعارات: من اشتراكية إلى شيوعية إلى ديمقراطية، إلى علمانية لا دينية، إلى حداثة وانحراف، إلى غير ذلك من المذاهب.

انظر في الأَرض حتى ترى المتخم وترى الضامر الجائع. وترى البناء المرتفع والكوخ الممزق، ترى رفرفة الثياب الناعمة، وغضبة الخرق والأسمال، في ظلال الرايات كلها، وهي تخفق بحقوق الإنسان، حقوق الإنسان الضائع الممزَّق، دون أن يجد الإنسان حقه، أو يقوى على دفع ظلم.

الإسلام وحده هو الذي يقدّم للإنسان حقوقه. ذلك لأَن الإسلام دين من عند اللَّه، ربّ الإنسان وربّ كلّ شيء، خالق الإنسان وخالق كلّ شيء، فهو الذي حدَّد الحقوق، وحدد معها الواجبات، حدد الصلاحيات وحدد المسئوليات، ووضع للإنسان ميزان القسط والحق. فحقوق الإنسان إذن منحة من اللَّه ونعمة منه، وليست منحة من أي هيئة أو نظام. ولا نوّد هنا أن نعدد حقوق الإنسان كلها. ولكننا نود أن نؤكد على قضايا قد تغيب أحياناً وتختفي تحت ضغط حاجة تشتد، أو مصلحة تغلب.

وأول حقوق الإنسان هو رعايته في طريق النشأة والتكوين. ذلك حين

يتمّ الزواج على سنّة الإسلام ، لتتهيأ أطيب الظروف للولادة ، إذا أراد اللّه أن يخلق عبداً من عباده . فرعاية ظروف الزواج هي رعاية للإنسان الذي يُولد ثمرة هذا الزواج . فتوفير الجوّ الإيماني ، والشروط الإيمانية للقاء الرجل والمرأة في زواج طاهر منظم حق عظيم من حقوق الإنسان على مجتمعه وأمته ، والبشرية . ومن هنا يجب أن يَنْتَفِيَ الزنا ، ويُمنع العبث ، ويستقرّ الحلال ، حتى تخرج الأجيال الصالحة للبشريَّة بإذن اللّه .

إن تنظيم الحياة الجنسية على شروط الإيمان وطهرها أول حقّ من حقوق الإنسان . ولقد نسي كثير من الناس هذا الحق في ثورة الشهوة وسكرة الهَوَى . فإزالة الزنا والفاحشة حق طبيعي للإنسان حتى تتهيأ أفضل الظروف الصحية والنفسيَّة لولادة الإنسان وخروجه إلى الحياة . وهذا الطهر والنظام في الحياة الجنسية هو من أَهم مظاهر حضارة الإيمان وأسس الإعمار في التشريع والقانون ، والتطبيق والرعاية .

والحق الثاني للإنسان هو رعايته خلال فترة النشأة والتكوين ، جنيناً في الرحم . إن اللّه سبحانه وتعالى يرعى عباده في كلّ أحوالهم ، ولكن اللّه سبحانه وتعالى فرض على الإنسان واجبات ومسئوليات ، وجعلها أمانة استخلاف ، وقيام عبادة . فرعاية الجنين واجب الأمة والمجتمع ، وحق عظيم لهذا الإنسان الذي يوشك أن يخرج إلى الحياة .

والحق الثالث هو رعاية الطفل بعد ولادته رعاية تحفظ عليه فطرته التي فطره اللّه عليها ، فطرة الإسلام ، فطرة الإيمان . هذه الرعاية تنمي فيه نوازع الخير وتضعف نوازع الشرّ ، حتى تظل الفطرة سليمة طيبة كما أرادَها اللّه . ولا يغيب عنا حديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه

وسلم : « ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجسّانه ، كما تنتج البهيمة بهمية جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء ؟ » ثم يقول :

﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(الروم : ٣٠) (رواه مسلم)[1]

إذن هو حق الإنسان على أبويه ومجتمعه وأُمَّته أن تحفظ له فطرته السويَّة ، وطبيعته المؤمنة ، حتى لا يكون من المشركين أو الكافرين وحتى لا يدخل النَّار .

ماذا يفيد هذا الإنسان إذا حرف المجتمع فطرته ، ونشأ ضالاًّ تائهاً ، ومات على ذلك ثم دخل النار ؟ ماذا تفيده بعد ذلك سائر الحقوق التي يتغنى بها الناس ، وقد قتلوا فيه فطرته ، وأضاعوا عليه حقه الرئيس . إن اللَّه سبحانه وتعالى هيَّأ برحمته كلَّ الأسباب لحماية الفطرة ، وترك للإنسان فسحة ابتلاء وتمحيص ، وفرجة اختبار وامتحان ، ليؤدي الإنسان مهمته التي يحاسب عليها ويمحَّص من خلالها لتقوم عليه الحجة . الإنسان هو نفسه مسئول عن رعاية حقوقه ، والأُمَّة مسئولة كذلك .

والحق الرابع هو حقّه في أن يسمع كلام اللَّه ، ويبَلّغ رسالته ، ويعيَ دينه ، في جو من الأمن والأمان . وهذا الحق متكامل مع سائر الحقوق التي سبق ذكرها . إنه حق لكل إنسان . وقد جعل الإسلام لهذا الحق منزلة عظيمة ودوراً هاماً . فحين أعلن الإسلام براءته من المشركين ، أبقى لهذا

(١) مسلم : كتاب القدر (٤٦) . باب (٦) . حديث (٢٦٥٨) .

الحق مكانته وأهميته :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة : ٦)

وحين يكون هذا الأمر حقاً أكيداً لكل إنسان ، فهو في الوقت نفسه واجب أكيد على المؤمن الداعية ، كي ينهض ويبلغ رسالة اللّه ودين الإسلام ، ويظلّ الإنسان نفسه مسئولاً عن رعاية حقوقه ، محاسب عليها ، وتظلّ الأُمّة كلها كذلك .

وعندما درسنا أهداف التربية الإيمانيّة كانت حماية الفطرة ، وسلامة النشأة هدفاً رئيساً من هذه الأهداف . وعندما تستقيم الفطرة تصبح مستعدة لتلقّي الرسالة وتدبّر البلاغ والاستقامة على صراط مستقيم . ومن خلال هذا التصور نستطيع أن ندرك ترابط أهداف لقاء المؤمنين . فحين يكون الجهاد في سبيل اللّه - كما أوضحنا في الفصل الخاص بالجهاد - تبليغاً للرسالة ، وقياماً بالدعوة ، وحين يكون سماع كلام اللّه حقّاً ثابتاً للإنسان ، وواجباً أكيداً على الدعاة وحملة الرسالة ، حين يكون هذا التصوّر ثابتاً في النفس والقلب ، نشعر بعظمة ترابط أهداف لقاء المؤمنين ، من دعوة وبلاغ إلى تربية وبناء ، إلى جيل مؤمن ، إلى جهاد في سبيل اللّه ، إلى أُمّة واحدة تكون فيها كلمة اللّه هي العليا ، إلى الانطلاق في الأَرض دعوة وبلاغاً ، وبناء وتربية ، لإقامة حضارة الإيمان وإعمار الأرض على نهج ربّانيّ .

ثم يأتي بعد ذلك سائر حقوق الإنسان الماديّة : غذاء وكساء ومأوى وسعي كريم في ظل منهاج قويم . فحقّ الإنسان أن يُوَفَّرَ له غذاؤُه وكساؤُه

ومسكنه ، وأن يوفّر له العملُ ليسعى ويكسب رزقاً حلالاً ، من خلال نظام واضح معلوم مشرق . يعرف فيه حقوقه وواجباته ، لا من خلال نظم مخفيَّة ، وقواعد مطويَّة ، واضطراب وقلق وخوف .

وبعد ذلك تأتي سائر حقوقه النفسية حيث تحترم كرامة الإنسان ، ويصان عرضه وماله ، ويُوفّر له الأمن والاطمئنان في جو من العدل وصدق الميزان . ويحفظ له حق الرأي الذي حفظه له منهاج اللَّه ، ليظلَّ الرأي بناءً وقوة ، لا ليكون هدماً وضعفاً ، أو فتنة وفساداً .

هذه الحقوق ، وما يتجدد من حقوق أخرى مع الحياة ، هي في حقيقة أمرها أسس حضارة الإيمان ، وقاعدة من قواعد البناء والإعمار .

لا نستطيع أن نفصّل في هذا الأمر أكثر من ذلك ، لأننا ندرس هنا حضارة الإيمان والإعمار من حيث كونهما هدفاً ثابتاً من أهداف لقاء المؤمنين . ونرى أنه بهذه الأهداف الثابتة ، يستطيع لقاء المؤمنين أن يضع خطواته التفصيلية ، لينتقل من واجب إلى واجب ، ومن طاعة إلى طاعة ، ومن خير إلى خير ، ليمتدَّ الإنسان في الأَرض كلها بهذا النور الفيَّاض ، فيُقبِل النَّاس أَفْواجاً أفواجاً يدخلون دين اللَّه ، ليجدوا السعادة الحقة وقد حُرِمُوا منها في ظلال الشعارات المضطربة ، وليجدوا نوراً مشرقاً لا يخبو أبداً ، نوراً ممتدّاً إلى الجنَّة ، يدعو الصادقين إليه ، إلى نعيم دائم .....!

يتساءل كثير من الناس بعد ذلك ، كيف أصبح أعداء اللَّه من كفَّار ومشركين ومنافقين يملكون ثروة العلم والقوة والبأس ، وأصبحت الملايين ممن يُحسبون على الإسلام في وهن وهوان ، وذلة وضعف ، وهزيمة وخذلان ...؟

إن من يتساءل بمثل هذا السؤال غابت عنه القواعد والأسس التي عرضناها من منهاج اللَّه . ولقد أوضحنا في أكثر من موقف أن اللَّه سبحانه وتعالى سبقت مشيئته وقضت بأن يكون مجال السعي في الكون مفتوحاً لكلِّ إنسان ، مهما كان إيمانه أو كانت عقيدته . لقد بيَّن لنا سبحانه وتعالى هذه السنَّة الكونيَّة التي أرادها في أكثر من آية في كتابه العزيز :

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (الإسراء : ٢٠)

وكذلك في سورة الزخرف :

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝٣٣ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝٣٤ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف : ٣٣ - ٣٥)

فالحضارة المادِّيَة ليست محصورة في عقيدة دون عقيدة . بل جعل اللَّه ميدانها مفتوحاً للخلق باباً من أبواب الابتلاء على ميزان قسط حق عند اللَّه سبحانه وتعالى . فاليونان قديماً بلغت شأواً أكثر من غيرها في ظل عقائد فاسدة ، وامتدت الإمبراطورية اليونانيَّة على فساد أُسسها امتداداً واسعاً ، وتلتها حضارات أُخرى . وبلغت اليابان تقدماً علمياً عظيماً وهي تعبد الإمبراطور من دون اللَّه ، وأصحبت روسيا في ظل النظام الشيوعي إحدى الدولتين العظميين ، وأمريكا في ظل الرأسمالية الدولة العظمى الأُخرى ، وقس على ذلك سائر الأمم في الأرض ، وسائر النظم والعقائد . ولقد بلغت

الأمة المسلمة مع انطلاقتها قوة عظيمة حطمت أعظم دولتين في الأَرض: فارس الوثنية، وروما المسيحية. وامتدت قوتها حتى قال الخليفة المسلم يخاطب السحابة: أَمطري حيث شئت فخراجك سوف يأتيني. وقبل ذلك كله ضرب اللَّه لنا مثلاً بحضارات بادت: عاد وثمود ومدين وقوم نوح وغيرهم. ثم دالت الحضارات المادِّية كلها وحقَّت كلمة اللَّه: « **لكلِّ أُمَّةٍ أجل** ». من هذا العرض السريع نجد التصوُّر الواقعيَّ الحقيقي في الأرض لحياة الأمم وحضاراتها المادِّية، على ضوء ما عرضته الآيات الكريمة في منهاج اللَّه.

فالباب إذن، باب القوة والحضارة المادِّية، مفتوح للأمم كلها، مفتوح للسعي، والبذل، والجهد. فليتقدم من يشاء ليبذل فينالَ قسطه الحق. والباب مفتوح للمسلمين كما هو مفتوح لغيرهم من الأمم والشعوب، مع فوارق ثلاثة تميّز بها المسلمون إذا دفعوا الوثبة وصحَّت العزيمة وصدقت النيَّة:

أولاً: إن اللَّه جعلهم هم الأُمَّة الوسط. جعلهم وسطاً في الموقع فكان أعزَّ موقع، وأغنى موقع. وهيَّأ لهم من الكنوز والثمرات ما يغنيهم عن ذلة الحاجة وهوان الفقر. وجعل اللَّه برحمته من فضل « الأُمَّة الوسط » ما يَضِيقُ بحثنا هذا عن تعريفه وتفصيله.

ثانياً: إن اللَّه سبحانه وتعالى منَّ على المسلمين بأن بعث لهم سيّد الأَنبياء وخاتم الرسل. وجعل اللَّه كتابه المنزل على رسوله محمد صلى اللَّه عليه وسلم مهيمناً على الكتب السماوية السابقة ومصدقاً لها. فكان منهاج اللَّه بين المسلمين قوة عظيمة لا تتوافر لغير المسلمين المؤمنين العاملين.

ثالثًا: إن اللَّه سبحانه وتعالى وعد عباده المؤمنين وعداً وجعل لهم رجاء

به لا يرجوه غيرهم .

﴿... وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾
(النساء : ١٠٤)

ولكنّ ....

ولكنّ اللّه سبحانه وتعالى وعد وعداً وجعل رجاء للمؤمنين العاملين العاملين الصادقين .... وليس لغيرهم . وأما الذين استهوتهم الحياة الدنيا ، وأغراهم العجز والكسل ، وناموا على هون وهوان . وحملوا اسم الإسلام وبطاقته ، فحسابهم عند اللّه . ولكنّ ليس لهم أن يتساءلوا وهم في سكرات الغفلة والسهو واللهو ....! إذن .....

إذن لا مجال للتساؤل ، ولكنَّ المجال للنهوض وحمل الأمانة والوفاء بالعهد ، والقيام بواجب الاستخلاف عبادة للّه وطاعة ، ونهوضاً إلى حضارة إيمان ، وبناء عمران .

ولا نستطيع أن نضع جميع خصائص حضارة الإيمان . فإن خصائصها الكاملة هي اتباع منهاج اللّه على إيمان وعلم ، وسعي وموهبة . ولكننا للإيضاح والتسهيل قدمنا بعض الخصائص في الصفحات السابقة . ونود هنا أن نؤكد ونكرر بعض ما سبق للأهمية وللوضوح . إن حضارة الإيمان تشمل جميع مظاهر التقدُّم المادّي الذي أحله اللّه ، وتشمل جميع أوجه النشاط العلميّ الطاهر مما عرفنا ومما قد يعرفه الإنسان في مستقبل الأيام . ولكنَّ حضارة الإيمان والإعمار تجعل ذلك كله يقوم على إيمان صادق عالم عامل ، يقوم على صدق نيَّة وسلامة إيمان ، وقوة علم وشدة سعي ، حتى تستكمل حضارة الإيمان مع نموِّها وامتدادها في الأَرض خصائصها الربَّانيَّة ،

وميّزاتها الإيمانية ، لتظل شعلة تتوهّج وهي تقود الإنسان إلى سعادة الدنيا والآخرة .

لذلك نودُّ مع ختام بحثنا هذا أن نعود ونذكر أنفسنا ببعض الخصائص الإيمانيّة والقواعد الربّانيّة ، لنعمّق التصوُّر ، ونثبت الحقائق ، ونقوّيَ الحوافز ، لتنطلق وتمضي على درب الإيمان طاهرة نقيّة ، تركض إلى هناك .... إلى النور المشرق .... إلى الجنّة .

لقد وعد اللَّه عباده الصادقين وعداً ثابتاً لا ريب فيه ، ليقيم لهم عزَّهم في الدنيا إذا أوفوا بشرطين . الشرط الأول هو الإيمان ، والشرط الثاني هو العمل الصالح . وتفاصيل الإيمان والعمل الصالح لا يضعها الهوى والرغبة والتمني ، ولكن يفصّلها منهاج اللَّه تفصيلاً دقيقاً لا يزيغ عنها إلا هالك . هي تفاصيل العمل والجهد والبذل لا تفاصيل العجز والوهن والقعود والذل . فالوفاء إذن بحق الإيمان وحق العمل الصالح يتطلب أوّلاً العلم بمنهاج اللَّه علماً صادقاً يدفعه الإيمان حتى تُعرَف الشروط ويصدق الوفاء :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ (النور : ٥٥)

إن الإيمان والعمل الصالح ليس عجزاً وقعوداً ، ولكنه إعداد وقوة ونهوض .

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾

(الحج : ٣٨ - ٤١)

هذا هو منطلق حضارة الإيمان ومنطلق الإعمار : « **إلا أن يقولوا ربُّنا الله ...** » ، وهذا هو المدد : « **ولينصُرَنّ الله من ينصره إنّ الله لقوي عزيز** » . وهذه هي سنن الله في الحياة تعمل في حماية المؤمنين : « **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ...** » ، وهذه هي أسس حضارة الإيمان والإعمار :

تمكين في الأَرض من الله سبحانه وتعالى ....

إقامة الصلاة .....

إيتاء الزكاة ....

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ....

ولله عاقبة الأمور ....

وكل عمل من هذه الأعمال ، وكل قاعدة من هذه القواعد تجد تفاصيلها في منهاج الله حتى يستقيم الناس على صراط مستقيم ، ولا يظل عمل المسلم نهب الرغبات والشهوات والأمانيّ .

إن حضارة الإيمان تقوم على العدل والميزان القسط ، عدلاً يمارسه

الإنسان في واقع حياته ، لا عدلاً تَرفعه هتافات وتطيح به عواصف . إنه عدل جزء من إيمان وإعداد وبناء ، وتدريب وعلم . إنه جزء من منهاج ربّانيّ أخبتت له قلوب المؤمنين :

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء : ١٣٥)

نعم ....! عدالة تقوم على القسط والشهادة لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ....! إنه إعداد شاق طويل لجيل مؤمن يصدق في هذا المستوى من العمل الصالح والممارسة الإيمانيّة . إنه ليس شعاراً ، والحضارة الإيمانيّة ليست حضارة شعارات . إنها حضارة بناء وإعداد ومعاناة في طريق مشرق للجنّة .

إن حضارة الإيمان حضارة تقوم على الأمانة والوفاء ، أمانة ووفاء يرتبطان بالعدل ، ذلك كله ثمرة إعداد وإيمان ، وبناء وتربية ومعاناة ، حتى تطهر النفوس وتصدق النيّة وتصحّ العزيمة :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (النساء : ٥٨ ، ٥٩)

لقد سبق أن فصلنا في هذه الآيات الكريمة في أكثر من موضع في نهجنا الذي نمضي عليه. وهنا نعيدها لتثبّت هذه الآيات الكريمة أسس الحضارة وقواعد الإعمار. ونستطيع أن نمضي في تعداد هذه الأسس. ولكننا نختم عرضنا بحديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، ليرسي قاعدة الأمن والأمان، ويزيح الخوف والقلق:

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: «كلُّ المسلم على المسلم حرام: دَمُه وعرضه وماله». (رواه مسلم)[1]

هكذا تقوم حضارة الإنسان: كلُّ المسلم على المسلم حرام. أمن وأمان، وكرامة الإنسان، وتعاون وإحسان، وعدل وقسط، ومساواة وأخوة، وأمانات ترعى، وشهادة للّه، وقيام بالقسط، وحكم بما أنزل اللّه، ورحم وقربى، وبرّ وسكن، وجوار ورعاية ..... ثم بعد ذلك ومعه تدبر وتفكر، وسعي وبذل، وعلم وفن، وعمارة ومواصلات ونعم تتوالى من عند اللّه:

﴿... وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: ٣٤)

والحمد للّه رب العالمين

والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين

(١) مسلم: كتاب (٤٥). باب (١٠). حديث (٢٥٦٤).

• خلاصة وخاتمة •

هذا الجزء الثاني للقاء المؤمنين . يعرض أهداف لقاء المؤمنين ، الأهداف الثابتة ، ترتبط كلها فيما بينها ترابط تناسق وتكامل ، ويرتبط كل هدف منها ، وتترابط هي كلها ، بالهدف الأسمى ، الهدف الأكبر .... الجنّة .

عندما ينشأُ الجيل المؤمن وهو يعي منطلقه وسبيله وغايته ، عندما يعرف حقيقة مهمته في هذه الحياة ، عندئذ يدرك حقيقة وجوده ، ومعنى جهاده . فله مهمّة حقيقيّة كلّفه بها رب العالمين ، رب العرش العظيم ، وحياً تنزّل على محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وكتاباً يُتلى ويتدبر إلى يوم القيامة . يصبح الإنسان المؤمن ، وهذه حالهُ ، يدرك أهمية عمله ، وقيمة خطوته ، وقوّة ارتباطه مع الكون . يدرك معنى الحياة ومعنى الممات ... إنه إنسان يعيش وله هدفه المشرق ، وسبيله المنير ، وإيمانه اليقين . إنه ليس هملاً على هامش الحياة . إنه ليس كالأنعام ، فذلك شأن الكافرين .

عندما يعيش المؤمن مع أهدافه المتماسكة الممتدّة ، يشعر بعظمة السعادة ، وحلاوة الإيمان ، ومتعة البذل ، وفرحة المعاناة في سبيل اللّه ، والرضاء في كلّ حال ، والخشوع في قيام وقعود ، وركوع وسجود ، وذكر ودعاء ، وتسبيح وابتهال . عندما يرى المؤمن صدق أهدافه ، وهو يدفع لها صدق نيّته ، وصدق عطائه ، ينفتح له الكون آيات بيّنات ليزداد إيماناً ويقيناً وسعياً وركضاً ، إلى جنّة عرضها السموات والأرض . هذه الأهداف الثابتة المتماسكة المرتبطة بالهدف الأسمى الجنّة ، الدعوة ، والتربية والبناء ، والجيل المؤمن ، والجهاد في سبيل اللّه ، والأمة الواحدة التي تكون فيها كلمة اللّه

هي العليا، وانطلاقة حضارة الإيمان والإعمار، هذه الأهداف الثابتة المتماسكة على طريق الجنّة، تبني للجيل المؤمن آماله، وتحدد له أمانيه، وترسم له سبيله، وتجمع له طاقته حتى لا تتبدد، فإذا هو يعيش على نهج متكامل، وإشراق، ونور ويقين.

ثمّ يمضي الجيل المؤمن مع الأيام، في لقاء المؤمنين، على إيمان وعهد وأهداف، يضع مع كل خطوة خيراً جديداً، وبركة جديدة، وفيضاً من عطاء صادق، حتى لا تقتله ريبة، ولا يُعطله تردد، ولا تذهب به حيرة.

المؤمنون على لقاء كريم،
يحملون في الأرض رسالة اللّه،
يدعون ويبلغون،
يعلمون ويبنون،
يعطون ويجاهدون،
فتعلو كلمة اللّه، وكلمة اللّه هي العليا.

والحمد للّه رب العالمين.

فهرس الأحاديث

حرف (اللام)

حرف (الميم)

حرف (النون)

■ ■ ■

فهرس كتاب
لقاء المؤمنين – الجزء الثاني
الأهـــداف

الباب الثامن
الأهداف الثابتة
الهدف الثابت السادس
حضارة الإيمان وعمارة الأرض بها

■ ■ ■

كتب للمؤلف

الدعوة الإسلامية

- دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية – الطبعة السادسة .
- الشورى وممارستها الإيمانية – الطبعة الثالثة .
- الشورى لا الديمقراطية – الطبعة الرابعة .
- لقاء المؤمنين – الجزء الأول – الطبعة الرابعة .
- لقاء المؤمنين – الجزء الثاني – الطبعة الرابعة .
- منهج المؤمن بين العلم والتطبيق – الطبعة الخامسة .
- التوحيد وواقعنا المعاصر – الطبعة الثالثة .
- العهد والبيعة وواقعنا المعاصر – الطبعة الثالثة .
- النهج والممارسة الإيمانية في الدعوة الإسلامية – الطبعة الرابعة .
- النيّة في الإسلام وبعدها الإنساني – الطبعة الثانية .
- الولاء بين منهاج الله والواقع – الطبعة الثانية .
- الحوافز الإيمانية بين المبادرة والالتزام – الطبعة الثالثة .
- الخشوع – الطبعة الأولى .
- نهج الدعوة وخطة التربية والبناء – الطبعة الثانية .
- منهج لقاء المؤمنين – الطبعة الأولى .
- «خطة الداعية The Caller s Plan » – الطبعة الأولى .
- لقاء المؤمنين – الجزء الأول – (مترجم إلى اللغة التركية) – الطبعة الأولى .
- قبسات من الكتاب والسنة تدبر وظلال – الطبعة الأولى .

الأدب الإسلامي

- الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته – الطبعة الثالثة .
- الحداثة في منظور إيماني – الطبعة الرابعة .
- تقويم نظرية الحداثة – وموقف الأدب الإسلامي منها – الطبعة الثانية .

- النقد الأدبي المعاصر بين الهدم والبناء - الطبعة الأولى .

الدواوين الشعرية

- ديوان الأرض المباركة - الطبعة السادسة .
- ديوان موكب النور - الطبعة الرابعة .
- ديوان جراح على الدرب - الطبعة الثالثة .
- ديوان مهرجان القصيد - الطبعة الأولى .

الملاحم

- ملحمة الغرباء - الطبعة الثالثة .
- ملحمة القسطنطينية (فتحان) - الطبعة الثانية .
- ملحمة الجهاد الأفغاني - الطبعة الثالثة .
- ملحمة فلسطين - الطبعة الخامسة .
- ملحمة الأقصى - الطبعة الثانية .
- ملحمة الإسلام في الهند - الطبعة الثانية .
- ملحمة البوسنة والهرسك - الطبعة الثانية .

الواقع الإسلامي

- على أبواب القدس - الطبعة الثانية .
- فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع - الطبعة الرابعة .
- فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع باللغة التركية - الطبعة الأولى .
- فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع باللغة الإنجليزية - الطبعة الأولى .
- الصحوة الإسلامية إلى أين؟ - الطبعة الثالثة .
- عبد الله عزام - أحداث ومواقف - الطبعة الأولى .
- أضواء على طريق النجاة - الطبعة الأولى .
- واقع المسلمين أمراض وعلاج - الطبعة الأولى .

علوم أخرى

- دراسة انتشار الموجات الإلكترومغناطيسية المتوسطة باللغة الإنجليزية - الطبعة الأولى .

• مع هذا الكتاب •

هذا هو الجزء الثاني من كتاب لقاء المؤمنين. إنه الكتاب الذي يدرس الأهداف والمراحل ويحدّدها مع أدلتها من الكتاب والسنة، وبعد أن كان الجزء الأول يدرس القواعد العامة والأسس.

إن لقاء المؤمنين في أُمة واحدة، في صفٍّ واحد كالبنيان المرصوص، أَمر من عند اللَّه، وحاجة ماسة للمسلمين اليوم. وإن الخروج عن ذلك إلى فُرقة وشقاق وصراع مخالفة صريحة لنصوص منهاج اللَّه. فلا بد من تعاون الجهود المؤمنة لرسم الطريق للخروج من ظلمات واقع الفرقة إلى نور اللقاء. وكيف يمكن أن يتم ذلك دون رسم السبيل في الواقع اليوم، ودون تحديد الأهداف والمراحل على هدي الكتاب والسنة؟!

إن هذين الكتابين: لقاء المؤمنين - الجزء الأول - القواعد والأُسس، ولقاء المؤمنين - الجزء الثاني - الأهداف، هما جزء من سلسلة كتب الدعوة الإسلامية التي نقدّمها لدراسة هذه القضية الهامة، ولدراسة النهج والوسائل والأساليب.

لقاء المؤمنين أمل الملايين من المعذّبين، المحرومين، القائمين، الضائعين ..! إنه أمل الضعفاء وغاية الأقوياء. من بين الدماء المسفوحة والأنات المذبوحة، من بين الجثث المحترقة والصيحات المنطلقة، والأكوام المدفونة، والطعنات المجنونة، من بين هذا كله وكثير غيره، تمتد نظرات الأمل ولهفة الشوق، وتشتد سواعد العمل.

من بين الديار المتساقطة والحملات المتلاحقة، والمؤامرات المتواصلة، تنطلق الصرخة ويعلو الشوق، ويمتد النداء إلى عزة اللقاء وفرحة التلاق.

إن لقاء المؤمنين هو الشبح المرعب لأعداء اللَّه، لعصابات المجرمين الظالمين. إنه الشبح المرعب الذي ينزع من قلوبهم الأمن ومن جفونهم الكرى. إنه الشبح الذي ينتزعهم من أحضان الفجور وفراش الخدر وسكر النعيم!

فهل ينهض العاملون إلى لقاء المؤمنين، إلى الأمة المسلمة الواحدة، إلى الصف الواحد كالبنيان المرصوص؟!

ردمك: ٨ - ١٩ - ٦٨٧ - ٩٩٦٠